



عمادة الدراسات العليا

جامعة القدس

دوافع استراتيجية ابن خلدون المفضلة للبداوة والعصبية تحقيقا للتغلب فنشوء
الدولة مع الرئاسة / دراسة ونقد وتحليل

حسين محمد حسين حسن جاموس

رسالة ماجستير

القدس - فلسطين

1437هـ / 2016

دوافع استراتيجية ابن خلدون المفضلة للبداوة والعصبية تحقيقا للتغلب فنشوء
الدولة مع الرئاسة / دراسة ونقد وتحليل

اعداد:

حسين محمد حسين حسن جاموس

رقم جامعي: 21412267

بكالوريوس دعوة وأصول دين من جامعة القدس

اشراف: الدكتور سري نسيبة

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في برنامج
الفلسفة في الاسلام / دائرة الفلسفة / عمادة الدراسات العليا / جامعة القدس

القدس - فلسطين

1437هـ - 2016م



جامعة القدس

عمادة الدراسات العليا

دائرة الفلسفة/برنامج الفلسفة في الإسلام

اجازة الرسالة

دوافع استراتيجية ابن خلدون المفضلة للبداوة والعصبية تحقيقاً للتغلب فنشوء الدولة مع الرئاسة /
دراسة ونقد وتحليل

اسم الباحث: حسين محمد حسين حسن جاموس

الرقم الجامعي: 21412267

المشرف: الدكتور سري نسيبة

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ 2016/7/19 من أعضاء لجنة المناقشة المدرجة أسماؤهم
وتواقيعهم:

- | | | |
|-------------------------|------------------|---------------|
| 1. أ.الدكتور سري نسيبة | (رئيساً) | التوقيع:..... |
| 2. أ.الدكتور شكري العبد | (ممتحنا داخلياً) | التوقيع:..... |
| 3. الدكتور صبحي ريان | (ممتحنا داخلياً) | التوقيع:..... |
| 4. أ.الدكتور جورج جقمان | (ممتحنا خارجياً) | التوقيع:..... |

القدس - فلسطين

1437هـ - 2016م

الاهداء

لمن كان عوناً لي في اتمام دراساتي العليا...
ولمن ساعدني وأخذ بيدي بعد أن أظلمت الدنيا...
ولمن أعاد الأمل بعد سنين من الملل...
الى أستاذي الفاضل الدكتور سري نسيبة....

أهدي هذا العمل

الباحث: حسين محمد حسين جاموس

إقرار:

أقر أنا معد الرسالة بأنها قدمت لجامعة القدس، لنيل درجة الماجستير، وأنها نتيجة أبحاثي الخاصة، باستثناء ما تم الإشارة له حيثما ورد، وأن هذه الدراسة، أو أي جزء منها، لم يقدم لنيل درجة عليا لأي جامعة أو معهد آخر .

التوقيع :

حسين محمد حسين جاموس

التاريخ: 2016/7/19م

شكر وعرفان

أتوجه بالشكر والامتنان لأساتذتي الذين ساعدوني على كشف الطرق السليمة في التحليل واعمال العقل للوصول الى خفايا الأسرار في الكتابات والبحوث، وأخص بالذكر الدكتور شكري العبد، والذي كان له الفضل الكبير في انارة ضوء الدرب في نفسي للغوص والبحث في مقدمة ابن خلدون، كما أتوجه بالشكر للدكتور سري نسيبة في اشرافه على رسالتي هذه وتقديم التوجيهات اللازمة لإنجاحها وخروجها الى النور، كما لا أنسى من شكري الأستاذ محمد حسين المسؤول في مكتب الدكتور سري، وهو الجندي المجهول في توفير المقترحات اللازمة لمصادر البحث، وتسهيل خروج هذه الرسالة الى حيز الوجود، كما لا أنسى شكري لزملائي الأعزاء في القسم وعلى رأسهم الأخ أحمد أبو الهوى وباقي الزملاء والذين أمدوني في كثير من الأحيان بملاحظاتهم القيمة وأفكارهم الرائعة مما ساعد في انجاز هذا البحث، كما وأتقدم بشكري لجامعة القدس ممثلة برئيسها، وكذلك كلية الدراسات العليا ممثلة بعميدها، والشكر موصول كذلك لرئيس وأعضاء الهيئة التدريسية في قسم برنامج الفلسفة في الاسلام على جهودهم المباركة في تخريج أفواج المتعلمين من الطلبة والكوادر المتعلمة والمهيئة للمجتمع الفلسطيني.

التعريفات

- **البدَاوة:** يطلق مصطلح البدَاوة للدلالة على أسلوب الحياة في البادية، وعلى تأثر الإنسان فيها بالبيئة المحيطة به، فهم سكان الصحراء، حيث يكثر التنقل والترحال تبعاً لضرورات المعيشة التي تفرضها الطبيعة والتي تتفاوت من فصلٍ إلى آخر على مدار العام.
- **التملق:** ورد في معجم اللغة العربية المعاصرة : تَمَلَّقَ للشَّخصِ: مَلَقَهُ؛ تَوَدَّدَ إليه وَلَيَّنَ كلامَه وتذَلَّلَ وأبدى له من الودِّ ما ليس في قلبه، وتَضَرَّعَ له فوق ما ينبغي. ويعرف كذلك بأنه المديح الزائف المبالغ فيه. والذي يهدف لان يتحقق لمن يقوله مكاسب او مصالح او بهدف المحافظة على مكانة او التقدم في عمل.
- **الحجابه:** معنى حجب في لسان العرب الحِجَابُ السُّتْرُ حَجَبَ الشَّيْءَ يَحْجُبُهُ حَجْباً وَحِجَاباً وَحَجَّبه سَتَرَهُ، ومنه الحاجب وهو الشخص الذي يحجب الناس عن الخليفة ويرتب دخولهم عليه حسب مقامهم وأهمية أعمالهم، فالحجابه والحاجب منصب إداري مشرقي.
- **الحضر:** يطلق على التجمعات في المدن والأمصار، والتي يرتبط معظم السكان فيها بأنشطة مختلفة كالزراعة والصناعة والتجارة والخدمات.
- **السيكولوجية:** هي عبارة عن التغيرات النفسية التي تطرأ على الانسان، كالتغيرات المزاجية. ويُعرَّف كذلك بأنه العلم الذي يَدْرُسُ الوظائف العقلية والسلوكية . و يهتم بدراسة الشخصية، والعاطفة، والادراك، والعلاقات بين الاشخاص .. إلخ.
- **الشعوبية:** هي حركة ظهرت بواورها في العصر الأموي، إلا أنها ظهرت للعيان في بدايات العصر العباسي. وهي حركة من يرون أن لا فضل للعرب على غيرهم من العجم. وقد تصل إلى حد تفضيل العجم على العرب والانتقاص منهم.
- **العصبية:** مصطلح استخدمه ابن خلدون للدلالة على معنى كامل يأتي من طرفين، الأول من جهة النسب فيأتي بمعنى الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام، حتى تقع المناصرة والنصرة. والثاني من جهة اجتماعية ويأتي بمعنى الولاء أو الحلف، ويفيد مفهوم التعاهد أو التعاقد، على أن تصب كل المعاني في النهاية لتفيد النصرة والحماية.
- **الميكافيلية:** تعرف الميكافيلية بالمكر والخداع والازدواجية السياسية، وهو مصطلح يعبر عن مذهب فكري سياسي أو فلسفي يمكن تلخيصه في عبارة "الغاية تبرر الوسيلة".

الملخص

- التعريف بحدود الدراسة الزمانية والمكانية والبشرية:

اعتمدت دراستي على طريقتين في النقد والتحليل أولا هما الدراسة والتحليل الشخصي وثانيهما كتب النقد والتحليل لمنهجية ابن خلدون في كتابته لمقدمته. واقتصرت على الكتب المتوفرة في هذا المجال من مكتبة الجامعة وما تيسر في السوق وما أمكن مطالعته عبر الشبكة العنكبوتية. كما أن الدراسة استغرقت فصلين دراسيين بواقع ستة ساعات معتمدة رسميا لإنجاز رسالة الماجستير في هذا التخصص، فضلا عن أن الدراسة اعتمدت في شخوصها على المشرف الفاضل الدكتور سري نسيبة موجهها ومرشدا، وعلى جهودي الشخصية في البحث والتحليل والدراسة والنقد، كما استرشدت الدراسة بآراء النقاد والمحللين ممن توفرت مادتهم العلمية وتيسرت تحت يدي.

- أما الذي بحثته في هذه الدراسة:

فكان بالتحديد مدى تأثير الكوارث والنكبات والمصاعب والشدائد التي عاصرها ابن خلدون واكتوى بنارها في حياته، على كتابته وتحليله لأربعة عناصر رئيسية في مقدمته وهي قضايا البداوة والحضر والعصبيية والعرب. حيث عملت على دراسة وتحليل حياته وما كتبه بقلمه ممثلا بسيرته الشخصية، واستنباط أبرز الخفايا والآثار التي يمكن كشفها من محطات حياته المختلفة. ثم قمت بدراسة العناصر المحددة في مقدمته ووضعت أسئلة رئيسية لأسباب اعتماده تلك التوجهات والآراء التي ذكرها في تلك العناصر، ثم حاولت الربط بين ما حصل في حياته وبين توجهاته في مقدمته، مما ساعدني على كشف كثير من الغموض وطرح أجوبة محددة لتلك التوجهات.

- أما فيما يتعلق بمبررات وأهداف الدراسة:

فهي عبارة عن قراءة جديدة لمقدمة ابن خلدون، لم يتطرق اليها الكثير من المحللين السابقين، وذلك بالاعتماد على سيرة حياته، ومحاولة دمج السيرة بالتحليل في المقدمة للوصول الى أجوبة شافية لما طرحه في مقدمته من أفكار ومبادئ وتحليلات، وهل لها علاقة بسلسلة الأحداث والآلام التي تركت جرحا عميقا في قلبه، والتوصل الى كشف جديد مبني على التجرد التام لأي تقاربات عاطفية مع شخصية موضوع البحث حتى لا تخل بمنهجية البحث أو التوصل للنتائج المرجوة منه.

• منهجية الدراسة وخطواتها:

قامت دراستي على اعتماد كتابين رئيسيين للبحث والدراسة والنقد والتحليل وهما كتاب التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ويمثل السيرة الشخصية لابن خلدون بقلمه وروايته. وكتاب مقدمة ابن خلدون، والذي قام بطرح الأفكار التي درستها فيه، واعتمد على تحليل ملفت للنظر دفعني لأضع عدة أسئلة حولها، ومنها:

هل لمبادئ علم الاجتماع وقيام الدول وتحقيق الغلبة بالعصبية للوصول الى الرئاسة والملك علاقة معينة بسيرة حياته وما مر بها؟ وكذلك هل لمدحه للبداوة وذهمه للحضر علاقة بمحطات حياته ؟ وأخيرا هل لحملته على العرب وذهمهم في العديد من فصول مقدمته علاقة بموطنه ومكان اقامته وأحداث حياته؟

وقسمت بحثي الى بابين اعتمدت في الباب الاول على دراسة حياته مقسما اياها لعدد من الفصول والمباحث. وأما الباب الثاني فقد أقمته على دراسة مقدمته وتحديد العناصر الأربعة التي تعمقت في دراستها واعتمدتها كأساس في المقارنة والنقد وحاولت الكشف عن علاقة ما طرحه في مقدمته بما مر معه في حياته. وقسمته هو الآخر لعدد من الفصول والمباحث بما يناسب طبيعة البحث.

• أهم نتائج الدراسة وتوصياتها: خلصت الدراسة الى مجموعة من النتائج أهمها:

اثبات أن صياغة مقدمة ابن خلدون قد تأثرت تأثرا جذريا بما مر معه في حياته، بل كانت في العديد من مواضيعها اشبه بصفحة مفتوحة تروي وتحكي أحداثا وآلاما وجراحا غائرة مرت في حياته وحفرت عميقا في الوجدان الخلدوني. ثم أن الدراسة أثبتت أن الآراء الخلدونية في مجال البداوة وأهل الحضر لا يمكن تعميمها على المجتمعات البشرية عموما، بل هي اقتصرت على الزمن الذي عاش فيه ابن خلدون، وعلى الأرض التي عاش عليها. فهي تحكي فترة زمنية محددة تميزت بصفات وخصائص معلومة وبائية. وأما رأيه في قضية العصبية فلا يمكن تعميمها هي الأخرى على بعض المجتمعات البشرية كونها تخلو من هذا التوجه الذي طرحه وبالكيفية والمفهوم الذي تبناه، وان ظهرت في بعضها الآخر بمسمى يختلف عن المسمى الذي أتى به. ولعل أهم التوصيات التي خرجت بها هذه الدراسة تدعو الى وجوب اعتماد حياة ابن خلدون وما انطوى فيها من أسرار كمنهج أساسي عند تحليل ودراسة ونقد أي جوانب أو أفكار في مقدمته. كما يجب الرجوع الى المؤثرات التي حفرت عميقا في قلبه عند اعتماد احدى النظريات التي تبناها ونادى بها.

**Ibn Khaldun Strategic Prejudices for Tribalism and Bandounism
In the Materialization of Nations and the Establishment of States
A Critique and an Analytical Study**

Student Name: Hussein Mohamad Hussein Jamus

Supervisor: Dr. Sari Nussaibeh

Abstract

The Scene Time and Social Scope of the study:

I adopted in the study, my personal approach supported by the available various analytical and critique studies, on Ibn Khaldun's methodology in writing *al-Muqaddama*, at the University library, local bookstores and the Internet. The study covered two academic terms, six hours a day seeking assistance from my supervisor Dr. Sari Nussaibeh, with the available material studies by critics.

My purpose of the study was to define the effect of the catastrophic disasters, and personal hardships that faced Ibn Khaldun, and how they affected the writings of his *al-Muqaddama*, and the analysis of four major factors i.e. bandounism, civilization, tribalism and Arab. I traced his life and writings in his autobiography. I then made an analysis to various stages of his life and the encounters he faced to assess their psychological effect on his writing the 'Introduction', *al-Muqaddama*, and I put forward the basic elements and the orientations that shaped the philosophy Ibn Khaldun adopted in his book, which helped me in clearing the ambiguities, and reach solutions to these ambiguities.

The philosophy and the motives behind the study

The philosophy and the motivation behind the study is to make an unprecedented new approach in reading *al-Muqaddama* through Ibn Khaldun's biography, and amalgamate and fuse his personal life in the general context of the book, to grasp their direct influence on his production.

The methodology of the study:

I focused on two books of Ibn Khaldun: *al-T'areif bi Ibn Khaldun wa ri'hlatihi Sarqan wa Gharban*, which is Ibn Khaldun's autobiography, and *al-Muqaddama* proper. The comprehensive examination of these two books put forward certain questions: Do the principles of sociology, family association, amalgamation of tribalism into nations, and the establishment of

states and monarchism have special effects in the formation of Ibn Khaldun's personal way of life, praising badouins and vilifying Arabs wherever he gets the opportunity throughout his book? To find answers to these queries, I divided my study into two main volumes: the first is dedicated to Ibn Khaldun biography subdividing the study into chapters, the second volume is dedicated to *al-Muqaddama* proper, concentrating on the four categories related to the study, which I also fragmented into chapters.

Conclusion and Recommendations

The structure of *al-Muqaddama* is fundamentally influenced by Ibn Khaldun's attitude and system he adopted throughout his career.

The conceptions of Ibn Khaldun on *badawa*, *ahl al-'hadhar*, and *'asabiyyah* could not be generalized to cover humanity, but it describes Ibn Khaldun's period in human history, which conveyed the extinct heritage of that epoch of history.

It is recommended that a comprehensive research be made in Ibn Khaldun's career, and take it as basic foundation in assessing, analyzing, or critiquing the variant branches of science in the *al-Muqaddama* of Ibn Khaldun.

المقدمة

لعلي لا أخطئ إن قلت أن الأفكار المنبثقة عن ذهن كثير من الكتّاب على صفحات كتبهم كما تحليلاتهم وآرائهم، ما هي إلا تجليات واقع عايشوه بحلوه ومره، وتأثروا به، فانعكس ذلك في كثير من الأحيان على كتاباتهم. بل انني أراهن أحيانا على معرفة مكنونات نفوسهم وما يجول في خاطرهم وتفاصيل دقائق حياتهم من خلال دراسة نصوصهم بدقة وتحليلها ثم ربطها بواقع حياتهم والظروف المحيطة بها، وأخرج بوصف محدد وتوصيف دقيق قد يكون قريبا جدا من الحقيقة المخفية عنا. فالعلاقة بين الفكر والواقع علاقة جدلية قديمة يتبادل فيها الطرفان التأثير تبعاً لظروف كثيرة، وفي الأغلب الأعم يستسلم الفكر لإكراهات الواقع التي غالباً ما تكون شديدة الوطأة، وتأثيرها النفسي العميق تعكسه كتابات صاحبها. وكونه أحيانا لا يجد متنفساً أو مساحتاً حراً يعبر فيها عن دواخله ومكنونات نفسه إلا من خلال تلك الكلمات المكتوبة، خصوصاً اذا كانت الظروف المحيطة والسياسة القائمة في عصره والقوانين الموضوعية تفرض عليه ان لا يصرح بلسانه أو يده وأن يقتصر بالتعبير على قلمه.

كما تكون أحيانا النوايا والشهوات والمطامع والمصالح هي المحركة لكتابات فيلجاً لتتبع الأفكار وسرد الكلمات والجمال بطريقة تخدم أهدافه وتحقق أغراضه سواء كانت قريبة المدى أو بعيدة.

لذلك أقتضت الضرورة، والحكمة التحليلية، وقبل الحكم على كاتب معين من خلال كتاباته، وجوب دراسة تفاصيل حياته والإطلاع على أهم الوقفات التي يمكن اعتبارها جوانب مؤثرة سلباً أو إيجاباً في شخصيته ونفسيته، ودرجة ذلك التأثير من حيث الخطورة أو عدمها. ثم الربط والمقارنة بينها وبين كتاباته وأفكاره بالتحليل والنقد والتعليق، للوصول الى دوافع حقيقية أثرت عليه عميقاً وأجبرته أن يكتب ما كتب من تلك الأفكار.

• بواعث اختيار البحث:

لعل المؤرخ والمفكر ابن خلدون كان بكتابات وتحليلاته الفكرية والاجتماعية انموذجاً للفيلسوف والمحلل الاجتماعي المقرب لما يدور حوله. فقد جعل من المشاهدة والمراقبة والملاحظة أساساً مهماً في تحليله وتفصيله لمختلف المواضيع المتعلقة بالسياسة والحكم والرعية. وقد اعتبرها هي الجانب العقلي في التحليل، كما انه انتقد بشدة أولئك الذين يكتفون بالجانب النقلي (القرآن والسنة) كمصدر وحيد في فهم وتحليل مختلف السياسات ويحملون بشدة على من حاول استخدام عقله في التحليل.

ويظهر ذلك عندما ذكر في بداية مقدمته ما نصه: "اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياساتهم، حتى تتم فائدة الإقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا فهو محتاج إلى مأخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط ..."¹.

لكنني مع ذلك لاحظت في خضم دراستي للحياة التي عايشها ابن خلدون والصراعات التي حصلت في زمانه أثر بالغ في كتاباته لمقدمته وسرده لتحليلاته حول نشوء الدول وأنواعها وسياستها، فقد عايش ابن خلدون معاشة شخصية فترة أليمة في تاريخ الأمة، وقد رأى بأم عينيه بداية سقوط دولة المغرب تحت أقدام الأسبان ثم انهيار دولة المشرق تحت غزو التتار، وكان شاهداً مباشراً على هذا الانهيار فكان الرجل مثقلاً بالمرارة والنقمة عندما رأى العرب غارقين في نزاعاتهم الداخلية وصراعاتهم العميقة من جهة، ومن جهة أخرى النكبات والصدمات التي أصيب بها في مراحل حياته المختلفة منذ صغره حتى كتابته لمقدمته، فانعكس ذلك كله على كتاباته وآرائه التي تميزت بقدر كبير من الحدة تجاه أصناف من الناس خصوصاً العرب وطبائعهم.

ثم إنه مال بكتاباته نحو عقيدة الصراع والحرب المبنية على العصبية والقهر والتغلب وإذلال الخصم وكأن نفسيته قد أحاطتها عوامل وخلجات من الحدة والعنت والمرارة لواقعه حتى رأى في البداوة وما فيها من قساوة وشدة وصراع لتأمين العيش وتغلب ذوي الأتباع على من عداهم تسرية ومنجاة لنفسه، وعلاج للواقع المرير الذي عايشه. فضخ كلماته في مجال العصبية بأسلوب يكشف تلك الظاهرة النفسية التي كان يحياها.

لكن الأمر البالغ الخطورة والملفت للنظر هو علاقته الغريبة مع ذوي السلطان ومغامراته المشبوهة في مهنة السياسة وما فيها من دهاء وحكمة. حيث ظهر ذلك في مجالات متعددة كمدحه للطبقة الحاكمة في عصره بأوصاف مبالغ فيها، كما انه تعامل مع كل حاكم جاء في زمانه واعتلى العرش بأسلوب يثير الريبة والشك، وما رواه عن نفسه وما يُروى عنه في تاريخه من تعاملاته مع الجسم المعتدي على الأمة والمعروف بتيمورلنك، والقصاص المروية في ذلك تكشف هي الأخرى جوانب خفية من حياة ابن خلدون وتضع للباحث علامات استفهام كبيرة تحتاج إلى بحث وتحقيق وتحليل .

1 - ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون (ت 808هـ)، "مقدمة ابن خلدون"، تحقيق حامد احمد الطاهر، الطبعة الثانية (2013م)، ص 21، دار الفجر للتراث - القاهرة .

• مشكلة البحث:

إن السؤال المطروح والمطلب المنشود يفيد بأنني لاحظت ومن خلال قراءتي لطروحات ابن خلدون الفكرية حول العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل ، ثم حول نشوء الدول والملك وتغلبها وجوانب الصراع فيها...لاحظت ولعاً عجيباً بقضية العصبية، وأنها - في الغالب ابتداء حسب رأيه - هي العامل الأهم في هذا النشوء والتكون بما تحمله وتتطوي عليه من تغلب وقهر وتجميع للقوى ودوافع نفسية متدفقة من مشاعر المواجهة وحب الظهور والتمكن وإسالة الدماء، ومن هذا مدحه المتواصل للبداءة وما فيها من مزايا غريبة يفقدها أهل الحضر والمدن...ثم حملته الشعواء على أهل الحضر والمدن...ووصفهم بصفات غريبة...ثم الأعجب من ذلك حملته على العرب في أكثر من موضع والتقزيم من انجازاتهم ودمغهم بصفات هي الأخرى أقل ما يقال فيها احتقاريه...وكأنه يحمل في قلبه عليهم ثارات وضغائن متراكمه.

وقد دفعني هذا للسؤال عن اسباب هذا التطرف والإصرار العجيب حول هذه القضايا...وبالبحث في جوانب حياته ونشأته والمنعطفات التي حصلت معه والروايات التي تروى عنه، وروى بعضها هو بنفسه، خاصة في مجال المجابهات السياسية مع الحكام والسلطين، وفترات سجنه وأسبابها. ثم قصة تعاونه مع قائد المغول بعد تركه للمحاصرين من العرب المسلمين في حصن دمشق، وما اتبع ذلك من تدمير لذلك الحصن. لمست بعض الاجابات التي أتمنى أن تكون كشفاً للأسرار لم يستطع أحد قبلي الخوض فيها أو كشفها...خصوصاً عند سير الجوانب النفسية العميقة لابن خلدون وما تأثرت به شخصيته من الواقع الذي عايشه.

• منهج البحث:

بهدف تحقيق الغاية المنشودة من البحث، ولأجل بيان الجوانب النفسية والحياتية التي أثرت بعمق على ابن خلدون، وللخروج بفائدة يمكن الإعتماد عليها عند تحليل سياسة ابن خلدون ومواقفه ونظرياته في علم الاجتماع عموماً، فقد لجأت الى مصدرين أوليين وأساسيين اعتمدت عليهما وارتكز عليهما بحثي هذا: فالمصدر الأول كان كتاب ابن خلدون نفسه عن أسرار حياته وهو: "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، والمصدر الثاني كان "مقدمة ابن خلدون" والتي كتبها بنفسه بعد رحلات ومغامرات ونكبات حلت ومرت به في تاريخ حياته وذكر أغلبها بأساليب متنوعة في الكتاب الأول.

ووضعت هدفاً بين عيني يقوم على دراسة الكتاب الأول بعمق، معتمداً على التحليل والمقارنة واستكشاف آثار الأحداث الفعلية التي مرت معه وصولاً الى تشخيص وضعه النفسي وما يمكن أن يؤثر على اختياراته وكتاباته نتيجة هذه الأحداث. ومن ثم دراسة المواضيع والأفكار المحددة في عنوان بحثي والتي لفتت

نظري في الكتاب الثاني وهو مقدمته. حيث تم تشخيصها بعناية وظهر من خلالها أن ابن خلدون عمل على تفضيل العصبية والبداءة على حساب الحضر، وذلك بهدف الوصول الى حالة التغلب وبناء الدولة مع الرئاسة والملك، ثم انتقاده للعرب في مواضع متعددة.

وقد عملت على دراسة هذه المواضيع بعمق ودقة، وتحليلها ومحاولة عقد مقارنة بين ما تأثرت به حياته وما مرَّ فيها، وأثر على اختياره لهذه المواضيع في مقدمته بهذه الكيفية وتحليلها بهذه الصورة.

علما أن الكتاب الأول كان بمثابة مذكرات ذاتية سرد فيها ابن خلدون أهم ما مرَّ معه من مواقف ونكبات وأحداث متنوعة في حياته. فقام بذكر أسباب بعضها، ومرَّ عن بعضها الآخر مرور الكرام، وكان دوري النظر عميقا فيما وراء مرويَّاته في هذا الكتاب.

فالكتاب مكون من ثلاثمائة صفحة، احتوت فعليا على أهم ذخائر حياته، وكان لابد من دراسة هذا الكتاب بتعمق، ثم التركيز على أهم المققطات الملفته للنظر وفيها عمق وتأثير نفسي. عملت على تحليلها ونقدها نقدا بناء من غير تحيز أو تجني، وخلصت في نهاية الدراسة والتحليل الى صفات وآثار اعتبرت من المؤكد أنها هي الفاعلة لتوجهاته نحو العصبية والصراع في مقدمته والدافعة لاختياراته، وهي مبعث أفكاره وتعليقاته. وتم ذلك من خلال الربط والمقارنة والتحليل، ثم الاستئناس بالمصادر والمراجع الثانوية والتي علق أشخاصها على هذه الأفكار بطرقهم الخاصة، فعملت على دراستها والاستفادة منها في تركيز فكرة وهدف البحث وصولا الى تحقيق الغاية المنشودة، ولم أغفل عن طرح وجهات نظرهم والتعليق عليها بما يحقق الفائدة.

• الدراسات السابقة:

لقد بُحثت قضية العصبية لابن خلدون عند العديد من الباحثين في عدد من الدراسات الفلسفية والفكرية، حاولوا من خلالها وضع تصورات وتساؤلات متعددة للوصول الى جواب قريب حولها. لكنها في غالبيتها كانت دراسات وبحوث منصبة على كتاباته المرتكزة في مقدمته وبين سطورها، فلم تحاول التطرق الى جوانب أخرى كالربط بين أسرار حياته وتفاصيلها، وما وراء تصرفاته فيما يرويهِ عن نفسه عبر تاريخه وما اعتل فيه من أحداث ونكبات وأحزان وضغوطات وسجن وتملق للحكام، ومناصب وإهانات وتشرد وهروب وطرد وتعري في الصحراء على ايدي اللصوص والخارجين على القانون، وأثرها بالمقابل على المنهج الذي اعتمده في كتاباته وتحليلاته في مقدمته، ولي أن أذكر نماذج من تلك الكتابات الكثيرة بهدف التمثيل لا الحصر، فمن أمثلتها: "العصبية والدولة: معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي" لمحمد عابد الجابري، والذي طرح من خلالها لعدة اسئلة حول بنية العصبية

والدولة عند ابن خلدون كان منها: لماذا تتحول العصبية من مجرد رابطة سيكولوجية اجتماعية إلى قوة للمواجهة والمطالبة، ومن ثم تأسيس الملك والدولة؟ ولماذا تضعف العصبية بمجرد بلوغها غايتها من الملك، والشروع في جني ثمراته؟ ولماذا تفسد العصبية بالترف والنعيم؟ ولماذا تسقط الدولة بفساد عصبيتها؛ لتقوم عصبية جديدة بتأسيس دولة جديدة؟ وغيرها من التساؤلات.

وكذلك كتاب: "الخطاب التاريخي: دراسة لمنهجية ابن خلدون"¹ لعلي اومليل. وكتاب: "دراسات عن مقدمة ابن خلدون" لساطع الحصري. وكتاب: "في علمية الفكر الخلدوني" لمهدي عامل. وكتاب: "الخلدونية - العلوم الاجتماعية وأساس الفلسفة السياسية"² لنور الدين حقيقي. ودراسة لطف حسين تحت عنوان: "فلسفة ابن خلدون الاجتماعية". وغيرها من الكتب والدراسات. والتي لم أجد فيها أي جهد حقيقي للربط بين التأثير النفسي الحياتي لابن خلدون والمبني على التحليل السيكولوجي وما ذهب اليه من مدح للعصبية والبداءة واعتبارها الأساس في بناء الدول وقيام الملك ونقطة الصفر التي تبدأ منها. ثم وقوفه موقف المستهين من أهل الحضر ووصفهم بأنهم أهل التتعم المؤدي الى توليد الضعف لديهم، واقتراقهم عن أهل البداءة من هذا الجانب الذين يمتازون بالخشونة والصلابة والتجمع تحت راية أحد مشايخهم وكبرائهم يقودهم مدفوعين بدافع العصبية محققين للمدافعة والتغلب والنصر. وشعرت أثناء تكلّمه فيها وكأنه يحمل نفسية ثورية ويقف على رأس جبهة حربية تحتاج لكل عوامل الدعم والقوة وصولاً لتحقيق المخططات المرسومة. ثم لاحظت تحامله على العرب في العديد من فصول مقدمته، والتي كانت كذلك هي الأخرى مرتبطة بعوامل مرت في حياته وأثرت على البنية النفسية لديه ما أجبرته أن يتكلم فيها بهذه اللغة التحاملية.

• خطة البحث:

لقد قسمت بحثي الى بابين رئيسيين: فالباب الاول عرضت فيه لأهم الأحداث المؤثرة في الكيان النفسي لابن خلدون، ولأهم المنعطقات التي مرت به منذ الولادة وطلب العلم الى السفر وامتهان السياسة والتملق للحكام والعمل لديهم، ثم الخروج على بعضهم. وصولاً الى فترات السجن التي وقع فيها نتيجة ذلك. ثم تعاونه مع تيمولانك، وما يروى في ذلك، الى وفاته. ومن خلالها أحلل الخفايا واعرض النتائج، وأنقد ما يمكن نقده، واربط ذلك بالآثار النفسية الناشئة أو التي يمكن لها أن تنتج. وبدأت الباب بتمهيد ثم قسمت هذا الباب الى ستة فصول جاءت على النحو التالي: الفصل الأول:

1 - نشر المركز الثقافي العربي، المغرب، ط3، 1985م.

2 - نشر عويدات، بيروت، ط1، 1983م.

نبذة مختصرة عن حياة ابن خلدون، والفصل الثاني: التكوين الثقافي لابن خلدون، والفصل الثالث: سمات العصر الذي عاش فيه، والفصل الرابع: مأساة وباء الطاعون وأثرها النفسي عليه، والفصل الخامس: تحليل مسلسل الأحداث والمنعطفات الخطيرة في حياة ابن خلدون وأثرها النفسي في تحديد سمات شخصيته، وهذا الفصل فرعته الى خمس عشرة مبحثاً تنوعت بحسب الأحداث التي مرت به، وسميت كل مبحث باسم يلائم الأثر النفسي أو الأثر السلبي والذي يمكن استنباطه من تصرف ابن خلدون في هذا الحدث، وأما الفصل السادس والأخير فقد جاء بعنوان خلاصة القول في النزعة النفسية التي تميز بها ابن خلدون.

وأما الباب الثاني فقد جعلته بعنوان دور الآثار النفسية الحياتية في تشكيل وصياغة أفكار المقدمة الخلدونية: حيث عملت فيه على إبراز أهم المحطات التي لمست فيها تأثير حياة ابن خلدون على تشكيل وصياغة أفكار مقدمته، وقسمت هذا الباب الى تمهيد وأربعة فصول، فكان الفصل الأول بعنوان: النزعة التملقية الميكافيلية تأبى أن تفارق صاحبها، وأما الفصل الثاني فقد جاء بعنوان: نقد نظرياته في مدح البدو وذم الحضر وكشف السر في تبنيها، حيث قسمت هذا الفصل الى أربعة مباحث، فكان المبحث الأول بعنوان: نقد مقولة البدو أصل للمدن، وجاء المبحث الثاني بعنوان: نقد مقولة خيرية البدو وأفضليتهم على الحضر، وجاء المبحث الثالث بعنوان: نقد مقولة تفوق شجاعة أهل البادية على أهل الحضر، وأما المبحث الرابع فجاء بعنوان: السر الخفي في مدح ابن خلدون للبدو وأهلها وذم الحضر، وأما الفصل الثالث فقد نقدت فيه العصبية، وجاء بعنوان: نقد مدح ابن خلدون للعصبية الموصلة للتغلب ثم الرئاسة، وكشف السر وراء ذلك، وقسمت هذا الفصل الى مبحثين: فكان المبحث الأول بعنوان: العصبية مفتاح قلوب أهل البداوة لتحقيق الغاية من مديحهم، وجاء المبحث الثاني بعنوان: تحقيق استراتيجية الصراع وتفجير الأجواء بأسلوب الإغراء عند كشف خصائص وميزات العصبية، وأما الفصل الرابع والأخير فجاء بعنوان: كشف الستار عن السر المخبوء لمذمة العرب عند ابن خلدون، وقسمت هذا الفصل الى ثلاثة مباحث، فجاء المبحث الأول بعنوان: العرض الاجمالي لرأي ابن خلدون في أمة العرب، وجاء المبحث الثاني بعنوان: انقسام المحللون في نقد مقولات ابن خلدون الدائمة للعرب، وأتبعته بالمبحث الثالث الذي جاء بعنوان: كشف السر والقول الفصل في ذم العرب عند ابن خلدون، ثم ختمت بحثي بخاتمة مفيدة أبرزت فيها أهم النتائج التي خلصت اليها من بحثي هذا .

سلسلة الأحداث المؤثرة في الكيان النفسي لابن خلدون

• تمهيد:

ارتبطت حياة ابن خلدون بالكثير من المؤثرات النفسية الصعبة والتي صنعتها الأحداث المتوالية عليه وساهمت في صقل شخصيته وبنيته النفسية، مما أنتج انسان ذي بنية عقلية لمستها من خلف كلماته وسطوره عبر الأحداث التي مرت به، وقد اعتبرت هذه الأحداث والمؤثرات كما اعتبرها العديد من الباحثين أنها مآسي وأحزان وكوارث ونكبات تركت جرحا غائرا وأثرا عميقا استمر معه حتى تاريخ وفاته، بل إن هذه الأحداث أنتجت شخصية جديدة له سميتها: بالشخصية الميكافيلية¹، حيث أن شخصية ابن خلدون تأثرت بالواقع المعاش من جهة، واستمدت دماءها من تاريخ الأجداد الذين سبقوها، كما أسهمت في كتابة تاريخ تحليلي أنتج علم في الاجتماع تكاثرت حوله الأسئلة والبحوث في بيان حقيقته وعموميته أو خصوصيته، وفي هذا الباب سأعرض لأهم الأحداث التي مرت مع ابن خلدون، والتي فعلا تركت أثرا عميقا في حياته، وأقوم بتحليلها ونقدها، واستنتاج أهم ما يمكن تسميته بسمات شخصية ابن خلدون النفسية والداخلية، وسأعتمد على الغوص في كلمات وسيرة حياته التي كتبها بنفسه في كتابه الذي سماه: التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، مستعينا ببعض الكتابات والبحوث والمقالات والكتب التي أجريت حول هذا المجال.

1 - تعرف الميكافيلية بالمكر والخداع والازدواجية السياسية، وهو مصطلح يعبر عن مذهب فكري سياسي أو فلسفي يمكن تلخيصه في عبارة "الغاية تبرر الوسيلة".

نبذة مختصرة عن حياة ابن خلدون

• المولد والنشأة¹:

هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، ولد في تونس في رمضان سنة 732هـ الموافق 27 مايو 1332م، وتوفي في 26 رمضان سنة 808هـ الموافق 16 مارس 1406م وسنه 76 سنة، ودفن خارج باب النصر بمقبرة الصوفية في القاهرة. فهو مغربي الميلاد وكذلك النشأة والثقافة، حيث درس خلال حياته العلوم الدينية، واللغوية، والفلسفية، والرياضية. وقد نشأ في بيت علم ومجد عريق، وحفظ القرآن في وقت مبكر من طفولته، وكان أبوه هو معلمه الأول، كما درس على يد مشاهير علماء عصره. فقد تتلمذ على يد الآبلي أشهر فلاسفة عصره، وهو فيلسوف مغربي، وبفضل هذا الفيلسوف الكبير استفاد ابن خلدون طوال ثلاث سنوات منه تعليمًا فلسفيًا، وتكوينًا عقليًا فريداً، حيث أكسبه أستاذه الآبلي تكويناً منطقيًا بالغ القوة².

1 - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت808هـ)، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، الطبعة الأولى 1425 هـ - 2004 م ، ص 36 - 41 ، عارضها بأصولها وعلق حواشيها محمد بن تاويف الطنجي، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان، يقول ابن خلدون عن نشأته: (أما نشأتي فإني وُلدت بتونس في غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة، وربيت في حجر والدي رحمه الله إلى أن أَيْقَعْتُ وقرأت القرآن العظيم على الأستاذ المكتَّب أبي عبد الله محمد بن سعد بن بُزَّال الأنصاري، أصله من جالية الأندلس من أعمال بلنسية... وكان إماماً في القراءات، لألحق شأوه... وبعد أن استظهرت القرآن الكريم من حفظي، قرأته عليه بالقراءات السبع المشهورة إفراداً وجمعاً في إحدى وعشرين خُتْمَةً... وعرضت عليه رحمه الله قصيدتي الشاطبي؛ اللامية في القراءات، والرائية في الرسم... وعرضت عليه كتاب النَّقْصِي لأحاديث الموطأ لابن عبد البر... ودارسْتُ عليه كتباً جَمَّةً، مثل كتاب التَّسْهِيل لابن مالك ومختصر ابن الحاجب في الفقه... وفي خلال ذلك تعلمت صناعة العربية على والدي... ولازمْتُ أيضاً مجلس إمام المحدثين بتونس... ومنهم شيخ العلوم العقلية، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي. أصله من تلمسان، وبها نشأ، وقرأ كتب التعاليم، وحذق فيها؛ وأظله الحصار الكبير بتلمسان أمام المائة السابعة، فخرج منها، وحج، ولقي أعلام المشرق يومئذ، فلم يأخذ عنهم؛ لأنه كان مختلطاً بعارض عرض في عقله. ثم رجع من المشرق، وأفاق، وقرأ المنطق والأصليين على الشيخ أبي موسى عيسى ابن الإمام... وجاء إلى تلمسان بعلم كثير من المعقول والمنقول... ثم خرج من تلمسان هارباً إلى المغرب، لأن سلطانها يومئذ، أبو حمو من ولد يَغْمَرَسِين بن زيان، كان يكرهه على التصرف في أعماله، وضبط الجباية بحسبانها، ففر إلى المغرب، ولحق بمراكش، ولزم العالم الشهير أبا العباس بن البُتَّاء الشهير الذكر، فحصل عنه سائر العلوم العقلية، وورث مقامه فيها وأُرفِعَ، ثم صعد إلى جبال الهسكرة، بعد وفاة الشيخ، باستدعاء علي بن محمد بن تروميت، ليقرأ عليه، فأفاده، وبعد أعوام استنزله ملك المغرب، السلطان أبو سعيد، وأسكنه بالبلد الجديد، والآبلي معه، ثم اختصه السلطان أبو الحسن، ونظمه في جملة العلماء بمجلسه، وهو في خلال ذلك يُعَلِّم العلوم العقلية، ويبثها بين أهل المغرب، حتى حذق فيها الكثير منهم من سائر أمصارها، وألحق الأصاغر بالأكابر في تعليمه. ولما قدم على تونس في جملة السلطان أبي الحسن، لزمته، وأخذت عنه الأصلين، والمنطق، وسائر الفنون الحكيمة، والتعليمية؛ وكان رحمه الله، يشهد لي بالتبريز في ذلك).

2 - الزركلي، خير الدين الزركلي، الاعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الطبعة الخامسة عشرة، أيار/مايو 2002 م، ج3، حرف العين، ص330، تحت اسم "عبد الرحمن بن محمد"، دار العلم للملايين.

• الأصل العائلي وتأثيره في نشأته¹:

إن حالة النبوغ العقلي عند ابن خلدون لم تكن وليدة الفراغ أو مصادفة من غير أساس، بل كانت ترجع الى أصول عائلية متعاقبة سبقت ولادته وامتازت بالمناصب الرفيعة في الدولة والحضوة السياسية، ثم لازمته هو الآخر بعد ولادته وطوال نشأته، فعبد الرحمن بن خلدون ولد لعائلة من الوجهاء حيث شغل أجداده في الأندلس وتونس مناصب سياسية ودينية مهمة وكانوا أهل جاه ونفوذ، وقد أخذت العائلة اسمها عن جدها الأكبر خلدون. وخلدون هذا، تبعاً للمصادر التاريخية والسيرة الذاتية التي وضعها ابن خلدون عن نفسه، عربي هاجر إلى الأندلس في بدايات الفتح العربي لشبه الجزيرة الأيبيرية.

وفي القرن التاسع للميلاد، استقر آل خلدون في إشبيلية وارتقت حالهم ليصبحوا مشاركين في المسائل السياسية وأبناء واحدة من أهم ثلاث عائلات في المنطقة. واستمر نجاح آل خلدون طوال القرون الأربعة التالية في ظل دول الأمويين والمرابطين والموحدين. كما شغل أبناء العائلة مناصب رفيعة في الحياة السياسية والجيش. غير أن آل خلدون، شأن الكثيرين من العرب، غادروا جنوباً نحو السواحل الإفريقية المجاورة عقب استعادة الأوروبيين لشبه الجزيرة الإيبيرية. وفي حياتهم الجديدة التي توزعوا فيها بين المغرب وتونس، استطاع أبناء آل خلدون أيضاً الحصول على مناصب إدارية رفيعة الشأن بالنظر إلى مكانتهم الاجتماعية العالية وتحصيلهم قدراً طيباً من التعليم. وطبيعي أن يولد ابن خلدون في ظل هذا الوضع العائلي الرفيع وينهل من صفاته وتأثيره الروحي والنفسي. كما أن حديثه عن وضع عائلته وأجداده وما تقلدوه من مناصب وحظوة عند الحكام السياسيين فيه نوع من التمجيد الذاتي ورفع الشأن والتي تحمل في طياتها أحيانا بعدا نفسيا يمتاز بحب الظهور والعظمة ومدح الذات، وهذا في علم النفس له ما له من أبعاد وأثار أحيانا على الكتابات المختلفة والتحليلات الموضوعية من طرف هذا الكاتب.

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غريبا وشرقا" م.س، ص 35 - 36.

يروى ابن خلدون عن عائلته فيقول: (أخبرني محمد بن منصور بن مَرْزُي، قال: لما هلك الحاجب محمد بن عبد العزيز الكردي المعروف بالمَرْزُور، سنة سبع وعشرين وسبعمائة، استدعى السلطان جَدَّك محمد بن خلدون، وأرادَه على الحجابة، وأن يَفُوض إليه في أمره، فأبى واستعفى، فأعفاه، وَوَأَمَرَهُ فيمن يوليه حجابته، فأشار عليه بصاحب الثغر... وقال له: هو أقدر على ذلك بما هو عليه من الحاشية والذوين، فعمل السلطان على إشارته، واستدعى ابن سيّد الناس، وولّاه حجابته. وكان السلطان أبو يحيى إذا خرج من تُونس يستعمل جدنا محمداً عليها، وثوقاً بِنَظَرِهِ واستنامة إليه، إلى أن هلك سنة سبع وثلاثين، ونزع ابنه، وهو والدي محمد أبو بكر، عن طريقة السيف والخدمة، إلى طريقة العلم والرباط، لما نشأ عليها في حجر أبي عبد الله الرُّبَيْدِي الشهير بالفقيه، كان كبير تُونس لعهدِه، في العلم والفُتْيَا، وانتَحَل طرق الولاية التي ورثها عن أبيه حُسين وعمه حَسَن، الوليين الشَّهْرِيَيْن. وكان جدنا رحمه الله قد لزمه من يوم نزوعه عن طريقه، وألزمه ابنه، وهو والدي رحمه الله فقراً وَتَفَقُّهً، وكان مقدِّماً في صناعة العربية، وله بصر بالشعر وفنونه. عهدي بأهل الأدب يتحاكمون إليه فيه، ويعرضون حَوَكَمَ عليه، وهلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة.).

التكوين الثقافي

إن تكوين ابن خلدون الثقافي بادئ ذي بدء لم يكن تكوين مؤرخ، ولم يكن يُعنى بالتاريخ إلا بعد أن بلغ من العمر خمسة وأربعين عاماً. فتوجهه الأول كما لاحظت سابقاً كان خليطاً من العلوم الدينية واللغوية والفلسفية. والتقاؤه بالتاريخ كان عرضياً مفاجئاً. وذلك عندما انعزل في قلعة بني سلامة في سنة 776هـ، واتجه إلى التاريخ، يستقتيه الدروس والعبر، نتيجة وضع العصر الذي عاش فيه، ونتيجة ثقافته أيضاً، والنكبات والمصاعب والشدائد التي عايشها ومرت به والتي بدورها فرضت عليه أن ينحو هذا المنحى التاريخي التحليلي الفلسفي، حيث كان فيه ومن خلاله يفرغ همومه وأحاسيسه ومشاعره التاريخية بطريقة تحليلية بنيوية اجتماعية ومبنية أصلاً على مشاهدات وقصص وروايات جرت في زمانه وقبل عصره.

فابن خلدون لم يكن كغيره من المؤرخين الذين سبقوه، وأعطوا التاريخ معنى سردياً قصصياً، بل إن ابن خلدون بوصفه رجل سياسة ودولة، ثم رحالة مرت به مصائب جما، ثم انسان كأبي انسان آخر يطمح ويرنو إلى المناصب والجاه والمال، كان يعرف تماماً أن العوامل التاريخية لا توجد في قصص ساحات القتال، أو في القصور، بل كان يريد البحث عنها منهجياً في مختلف جوانب الحياة: الاقتصادية والاجتماعية والنفسية، لأن القلق الذي مني به المغرب في تلك الفترة جعله يأخذ بعين الاعتبار أن الخيبات والنكسات التي لحقت به وعانى منها ليست سوى أحد المظاهر الضئيلة لظاهرة عامة حاول أن يفهمها ويضع لها قواعدها المستقاة من واقع معاش تحت ظروف مختلفة¹. لذلك فقد اشتهر بكتابه "العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر" في سبعة مجلدات، أولها المقدمة وهي تعد من أصول علم الاجتماع، وفيها ما قد يعكس شخصية ابن خلدون الحقيقية ويقدمها للباحث المتخصص والخبير ليحدد ما وراء كلماته وتحليلاته.

لقد وصف الكاتب ساطع الحصري طبيعة الأزمات المؤلمة التي صقلت شخصية ابن خلدون وجعلته يميل في تحليلاته عبر مقدمته إلى الكثير من الغضب فقال: "كانت حيويته عنيفة صاخبة لا تعرف معنى للهدوء، ولا تبالي بالأخطار والأهوال، ولذلك صارت حياته سلسلة طويلة من حوادث النجاح والفشل، إنه وصل إلى أعلى مناصب الحكم في عهود ملوك عديدين، في دول عديدة، ولكنه في

1 - عاصي، حسين عاصي، ابن خلدون مؤرخاً، بتصرف، ط1، 1411هـ / 1991م، ص 78 . 92، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الوقت نفسه، تعرض الى محن ونكبات متنوعة، مرات عديدة. انه تنعم بنعم القصور، ولكنه ذاق مرارة الإعتقال والسجن أيضا وحضر حربا انتهت بانهزام الجماعة التي ينتسب إليها، فاضطرته الى الهيام في الصحاري مدة من الزمن، كما أنه تعرض الى غزوة جردته من كل ما كان له من أمتعة، حتى الثياب...¹.

1 - الحصري، ساطع الحصري، دراسات عن مقدمة ابن خلدون، طبعة موسعة، الطبعة الثالثة 1387هـ ، 1967 م، ص 44، الناشر مكتبة الخانجي - القاهرة، ودار الكتاب العربي - بيروت .

سمات العصر الذي عاش فيه

لكل عصر قيمه وعاداته وأساليب الحياة السائدة فيه، والتي بدورها تحدد ملامح وطبيعة الأشخاص الذين يعيشون فيه ويمرون بتجاربه، والتي تعكسها الإنتاجات الفكرية لعلمائه ومثقفيه، كما أن تلك الإنتاجات الفكرية تحدد ملامح الشخصية والبناء النفسي للمؤلف الذي تنتمي إليه، فهو أيضًا يتأثر بهما. ولهذا فلا بد لعملية استيعاب وفهم الإنجاز العلمي والفكري لابن خلدون والمتمثل بمقدمته من ضرورة التعرف أولاً على ظروف عصره ولامحه الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية التي كانت سائدة فيه، ومن ثم دراسة حياته وما دار فيها من أحداث ومعرفة مدى تأثيرها بتلك الظروف والسمات واللامح التي كانت سائدة في ذلك العصر.

الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عصر ابن خلدون:

كان النشاط الاقتصادي على أشده ومن أكثر الأنشطة الاقتصادية رواجاً في المغرب العربي، حيث كانت قوافل التجارة تقطع فيافي هذه البلاد. وقد وصف ابن بطوطة بلاد المغرب بأنها أرخص البلاد، وأكثرها خيرات، وأعظمها فوائد.

وبخلاف النشاط التجاري كان هناك نشاط زراعي واسع في بلاد المغرب الأقصى، وكان استثمار الأراضي للزراعة يدرّ مدخلات طيبة. وقد انعكس هذا الرخاء الزراعي على مستوى ونوعية الحياة في تلك البلدان التي عرفت أيضاً نهضة عمرانية كبيرة أشارت كتب الرحالة إلى أبرز معالمها، ولم تقتصر النهضة العمرانية على القصور فقط ولكنها تضمنت الكثير من الطرق البرية والبحرية التي سهلت التنقل من مكان إلى آخر¹.

وأما من الناحية الاجتماعية: فالعصر الذي ينتمي إليه ابن خلدون لم تعرف مجتمعاته الطبقية السائدة هذه الأيام، بل كانت طبقات ومراتب وأصنافاً أفقية على طول امتداد العالم الإسلامي. فهناك طبقة الجنود وطبقة العلماء وطبقة التجار وطبقة المتصوفة... إلخ. وكان أفراد كل طبقة يتعاطفون فيما بينهم بغض النظر عن اختلاف جنسياتهم، مهما بعدت بهم المسافات وفرقت بينهم السياسات، بمعنى أن

1 - الطنجي، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: عبدالهادي التازي، ص161/1، الرباط، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية رحلة ابن بطوطة.

العالمية والوحدة كانتا من سمات ذلك العصر، وهو أمر كان ملائماً لطبيعة البنية السياسية والنشاط الاقتصادي لذلك العصر¹. كما أن أوضاع الحياة الاقتصادية والاجتماعية بمصر هي الأخرى لم تختلف كثيراً عن الحياة في بلاد المغرب العربي، من حيث ازدهار الحياة الاقتصادية، وهو ما ظهر بوضوح في الانطباعات الخلاقة التي أوردها ابن بطوطة من خلال وصفه لهذه البلاد التي زارها أثناء رحلته، ووصفه لمصر الحضارية التي بهرت مثلاً بهرت معاصره ابن خلدون².

الحياة الثقافية والسياسية في عصر ابن خلدون:

كان العصر الذي عاش فيه ابن خلدون يتميز بالتطور الثقافي والنهضة العلمية فهو عصر التجميع، الذي أنتج الموسوعات الكبرى. فقد كتب النويري "نهاية الأرب في فنون الأدب"، وكتب العمري "مسالك الأبصار"، وكتب القلقشندي "صبح الأعشى"، كما كتب غيرهم مؤلفات وموسوعات ومعاجم جامعة³. إضافة إلى أن أدب الرحلات هو من أهم ما ميز الآثار التراثية التي امتازت بها هذه الحقبة. فقد جاب عدد كبير من الرحالة المغاربة والأندلسيين الشمال الإفريقي، وفحصوا أغواره، وأنجاده، واصفين لنا بدقة الأحوال السياسية، والثقافية، والتاريخية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعمرانية لهذه البلاد⁴.

وفي الجانب السياسي: فقد أدت الصراعات السياسية الناشئة بين حكام الإمارات إلى اضطراب سياسي، وظهرت كذلك مشكلات الصراعات القبلية التي نجمت عن ضعف السلطة السياسية، وأدت إلى خروج العديد من القبائل عليها وممارستها لعمليات السلب والنهب⁵. ذلك وتشير كتب الرحلة في تلك الفترة إلى ظلم واستبداد الحكام ونهبهم للمحكومين بدون أي رادع⁶. وكان العالم الإسلامي أيضاً يعاني من أعداء صليبيين، ولا سيما في المغرب والأندلس؛ حيث كثيراً ما لجأت الأندلس لاستصراخ

1 - الجوهري محمد، ومحسن يوسف، "ابن خلدون إنجاز فكري متجدد"، تقديم اسماعيل سراج الدين، ص 20، 26، 21، مكتبة الاسكندرية، بتصرف.

2 - الجوهري، م.ن.، ص 28.

3 - الجوهري، م.ن.، ص 28-29.

4 - الجوهري، م.ن.، ص 30.

5 - الجوهري، م.ن.، ص 37.

6 - الجوهري، م.ن.، ص 39.

المغاربة للحرب والمدافعة ضد المسيحيين¹. أما الجناح الشرقي للعالم الإسلامي، فقد كان يتعرض لخطر هجمات التتار الذين احتك بهم ابن خلدون بنفسه².

هذه هي أهم الصور والأحداث التي كانت تحدث في عصر ابن خلدون وبالتأكيد فقد أثرت في فكره، وكان لها أكبر الأثر في صقل شخصيته وبنيتة النفسية لتتلاءم وذلك العصر، وليكون عضوا مشاركا فيه وفي صياغته. ومن ثم أثرت تلك النفسية وذلك الوضع على كتاباته فكانت تلك الكتابات عبارة عن خلاصة تجاربه وآلامه وأحزانه واختباراته.

يقول الاستاذ ساطع الحصري في وصف الوضع السياسي في زمن ابن خلدون: (...وهكذا كانت القلاقل والاضطرابات تتوالى بدون انقطاع، وإن ابن خلدون دخل الحياة العامة وخاض غمار الحياة السياسية مدة ربع قرن، في هذا العصر الذي كان يغلي بشتى أنواع الفتنة والثورات، ومما تجدر الإشارة إليه: أنه قضى معظم سني حياته السياسية في بلاد المغرب الأوسط، التي كانت بمثابة البؤرة الأساسية في هذه التقلبات)³.

1 - الجوهري، م.ن.، ص 39.

2 - الجوهري، م.ن.، ص 40.

3 - الحصري، ساطع الحصري، دراسات عن مقدمة ابن خلدون، م.س.، ص 56 .

مأساة وباء الطاعون وأثرها النفسي عليه

عرف ابن خلدون الشاب أول مأساة في حياته حينما فقد والديه في خضم جائحة الطاعون التي أصابت البلاد وهو ابن سبعة عشر عاماً. فعندما حدث وباء الطاعون الذي انتشر عام 749هـ - 1348م، وعصف بمعظم أنحاء العالم شرقاً وغرباً، كان لهذا الحادث أثر كبير في حياة ابن خلدون. فقد قضى على أبويه كما قضى على كثير من شيوخه الذين كان يتلقى عنهم العلم في تونس، أما من نجا منهم فقد هاجر إلى المغرب الأقصى سنة (750هـ - 1349م) فلم يعد هناك أحد يتلقى عنه العلم أو يتابع معه دراسته.

ومن الطبيعي أن تكون هذه المأساة قد تركت جرحاً غائراً في نفسه، فليس من السهل أن يفقد المرء والديه وأساتذته وأصحابه وأقرباءه أمام عينيه ولا يتأثر بذلك، بل كانت هذه المأساة المقدمة الأولى في تشكيل البنية النفسية القائمة على الغضب والميل للعصبية في حياته كما سنرى فيما بعد. لكنه حتى ذلك اليوم كان قد حصل على قدر كبير من التعليم، حيث تعمق في دراسة الأدب العربي وأصبح هو نفسه مؤلفاً جيداً واستخدم مواهبه أحسن استخدام حينما توفرت له صداقة رجال نافذين، فاتجه إلى الوظائف العامة، وبدأ يسلك الطريق الذي سلكه أجداده من قبل، والتحق بوظيفة كتابية في بلاط بني مرين، ولكنها لم تكن لترضي طموحه. وعينه السلطان أبو عنان - ملك المغرب الأقصى - عضواً في مجلسه العلمي بفاس، فأتيح له أن يعاود الدرس على أعلامها من العلماء والأدباء الذين نزحوا إليها من تونس والأندلس وبلاد المغرب.

يقول ابن خلدون في أثر هذا الوباء على نفسه: "لم أزل منذ نشأت، وناهزت مُكَبّاً على تحصيل العلم، حريصاً على اقتناء الفضائل، منتقلاً بين دروس العلم وحلقاته، إلى أن كان الطاعون الجارف، وذهب بالأعيان، والصُدُور، وجميع المشيخة، وهلك أبواي، رحمهما الله. ولزمت مجلس شيخنا أبي عبد الله الأبلّي، وعكفت على القراءة عليه ثلاث سنين، إلى أن شَدّت بعض الشيء... فكتبت العلامة للسلطان، وهي وضع الحمد لله والشكر لله بالقلم الغليظ، مما بين البسْملة وما بعدها، من مخاطبة أو

مرسوم. وخرجت معهم أول سنة ثلاث وخمسين. وقد كنت منطوياً على مفارقتهم، لما أصابني من الاستيحاش لذهاب أشياخي، وعطلتي عن طلب العلم¹.

ولقد مرت بابن خلدون في هذه الفترة العديد من الأحداث المريعة على من ساكنهم أو عمل عندهم، كحصول انقلابات أو اغتيالات أو ملاحقات². حتى أنه هو بنفسه تأثر بها فكان يختفي تارة في البيوت، وتارة يسافر، وتارة يلحق بوظيفة، وهكذا حتى صقلت هذه الأحداث مخيلته الشابة حول طبيعة هذه الديار.

ولقد لاحظت أن ابن خلدون قد تكبد المشاق وعانى من الخوف والرعب، وتركت رحلاته تلك أثراً غائراً في نفسه، خصوصاً بعد وباء الطاعون وذهاب القلب الحاني المتمثل بأبويه وشيوخه في هذا الوباء فأصبح وحيداً وتلحق به النكبات والشدائد وتساهم في خنقه وصقل شخصيته بأسلوب اضطراري ورغم انفه، وهذا ما انعكس فعلاً على مقدمته وطبيعة سياساته وأفكاره فيها فيما بعد. وهذا ما ألاحظه كذلك في كلمات الحزن العميق التي صرّح فيها في قوله السابق: "...وقد كنت منطوياً على مفارقتهم، لما أصابني من الاستيحاش لذهاب أشياخي، وعطلتي عن طلب العلم".

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، م.س، ص 64 - 65.

2 - ابن خلدون م.ن.، ص 64-67. يقول في معرض بيانه لبعض هذه الأحداث: (...فلما رجع بنو مرين إلى مراكزهم بالمغرب، وانحسر تيارهم عن إفريقية، وأكثر من كان معهم من الفضلاء صحابة وأشياخ، فاعتزمت على اللحاق بهم، وصدني عن ذلك أخي محمد، رحمه الله، فلما دعيت إلى هذه الوظيفة، سارعت إلى الإجابة، لتحصيل غرضي من اللحاق بالمغرب، وكان كذلك، فإنما لما خرجنا من تونس، نزلنا بلاد هواره، وزحفت العساكر بعضها إلى بعض، بفحص مرماجنة، وانهزم صفنا، ونجوت أنا إلى أبة؛ فأقمت بها عند الشيخ عبد الرحمن الوشتاتي، من كبراء المرابطين. ثم تحولت إلى تبسة، ونزلت بها على محمد بن عبدون، صاحبها، فأقمت عنده ليالي حتى هيا لي الطريق، وسافرت إلى قفصة، وأقمت بها أياماً أترصد الطريق... ثم بلغهم الخبر بأن السلطان أبا عنان ملك المغرب، ونهض إلى تلمسان، فملكها، وقتل سلطانها، عثمان بن عبد الرحمن، وأخاه أبا ثابت، وأنه انتهى إلى المدية، وملك بجاية من يد صاحبها، الأمير أبي عبد الله من حفدة السلطان أبي يحيى... فلما بلغ هذا الخبر، أجفل الأمير عبد الرحمن من مكانه على حصار تونس، ومر بقفصة، فدخل إلينا محمد بن مزني ذاهباً إلى الزاب، فرافقه إلى بسكرة، ودخلت إلى أخيه هنالك. ونزل هو ببعض قرى الزاب تحت جرابية أخيه، إلى أن انصرم الشتاء. وكان أبو عنان لما ملك بجاية، ولّى عليها عمر بن علي بن الوزير، من شيوخ بني وطاس، وجاء فارج، مولى الأمير أبي عبد الله لنقل حرمه وولده، فدخل بعض السفهاء من صنهاجة في قتل عمر بن علي؛ فقتله في مجلسه... وارتحلت أنا من بسكرة، وافتدأ على السلطان أبي عنان بتلمسان... فقاتلني من كرامته وإحسانه ما لم أحتسبه، إذ كنت شاباً لم يطر شاري. ثم انصرف مع الوفود... وعاد السلطان أبو عنان إلى فاس، وجمع أهل العلم للتحقيق بمجلسه، وجرى ذكرى عنده، وهو ينتقي طلبة العلم للمذاكرة في ذلك المجلس، فأخبره الذين لقيتهم بتونس عني، ووصفوني له، فكتب إلى الحاجب يستقدمني، فقدمت عليه، سنة خمس وخمسين، ونظمني في أهل مجلسه العلمي).

تحليل مسلسل الأحداث والمنعطفات الخطيرة في حياة ابن خلدون وأثرها النفسي في تحديد سمات شخصيته

المبحث الأول

مخاطر اللعبة السياسية وشهوة المنصب

لا تكاد أحزان وباء الطاعون تنتقضي ويتلمس ابن خلدون طريقه نحو الوظائف الحكومية والسياسية وما فيها من ملذات وأطماع ومصالح تسحر الحالم وتقود النفس نحو التطلع للمجد حتى تُغرق ابن خلدون في شباكها.

تقول الدكتورة زينب الخضيرى: "...كان ابن خلدون أحد أولئك المفكرين، فقد عاش معظم حياته ملتصقا بأمير أو بآخر، فهو اليوم في خدمة أمير، وغدا في صحبة سلطان آخر، هو دائما مع الأقوى يسير في ركابه حتى إذا كلفه هذا الانقلاب على صديق، وكتاب التعريف ملئ بالأمثلة التي تدل على ذلك..."¹.

ويقول الدكتور محمد النبهان: "كان ابن خلدون طموحا يحب السياسة والرئاسة، ويحب العلم أيضا، ولكن السياسة بالنسبة إليه تحقق له طموحا في الرئاسة، لذلك فقد كان يبحث عن ذلك الطموح، منتقلا من بلد الى آخر، باحثا عن سراب كان يظنه من بعيد ماء، وليس ذلك الطموح بالسراب، فلقد كان يبحث عن الماء، وهو ماء حقيقي وصل إليه ولمسه وشرب منه، ثم أقصى عنه على غير ارادة منه فبقيت في نفسه بقية من ذلك الماء العذب، فطفق يبحث عنه في كل مكان، معرضا نفسه أحيانا للخطر بالموت والسجن، ولكن الحنين كان يعاوده، ويلح عليه ويجعله باستمرار لاهثا باحثا عن ذلك الأمل، ولا نستطيع أن نلوم ابن خلدون بسبب ذلك التطلع المشروع...فهو ابن أسرة عريقة في المجد والشرف والرئاسة والعلم"². ويضيف قائلا: "كان ابن خلدون في قلب الصراع السياسي، ينتقل من

1 - الخضيرى، الدكتورة زينب الخضيرى، كلية الآداب، جامعة القاهرة، "فلسفة التاريخ عند ابن خلدون"، طبعة 1409هـ، 1989م، ص14، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.

2 - النبهان، محمد فاروق، "الفكر الخلدوني من خلال المقدمة"، الطبعة الأولى 1418هـ 1998م، ص 17، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان .

أحضان سلطان الى أحضان آخر، ملتصقا المنصب، متطلعا لما كان يعتقد أنه جديرٌ به من مكانة وحظوة وجاه، ولا شك أنه كان يملك ذكاءا حادا وشخصية نادرة، وخصالا فريدة جعلته يحسن التحرك، ويميز المواقف، ويتوقع فيحسن التوقع...أحداث وأحداث متداخلة ومتشعبة، ومؤامرات متلاحقة، ومساومات كانت تتم في الخفاء حيناً وفي العلانية حيناً آخر، كانت تصنع السلاطين، وتصوغ لهم النصر، ثم تسقطهم لتقود غيرهم الى مركز السلطة، مستغلة في ذلك مطامح الانسان الى الرئاسة، مستفيدة من تجمعات قبلية، كانت تمثل القوى الحقيقية القادرة على اقامة دول واسقاط أخرى، عن طريق تحالفات متلاحقة، تقوم عندما ترى ملامح الانتصار، وتراجع عندما تتأكد من توافر القوة، فتستسلم صاغرة، منتظرة فرصة جديدة، للإيقاض، صانعة بذلك مجدا قد يطول وقد يقصر، لسلطان جديد، قد تدفعه كفاءاته حيناً لكي يكون سلطانا، وقد تدفعه الصدفة في معظم الأحيان لكي يكون في مقدمة المؤهلين لقيادة سفينة تمخض عباب بحر هائج من كل جانب، في رحلة طويلة وسط محيط قاتم بالعواصف المربعة"¹.

وتبدأ فصول القصة بالاختلاف على السلطان الذي يعيش في كنفه، فيتصل ابن خلدون بخصم السلطان المخلوع، نعم فهذه حقيقة رواها بنفسه. وسرعان ما انقلبت الأحوال على رأسه حينما بلغ السلطان أبو عنان أن ابن خلدون - والذي آواه وأكرمه وأدخله مجلسه العلمي - قد اتصل بأبي عبد الله محمد الحفصي - أمير بجاية المخلوع - وأنه دبر معه مؤامرة لاسترداد ملكه، فسجنه أبو عنان، وبالرغم مما بذله ابن خلدون من شفاعاة ورجاء فإن السلطان أعرض عنه، وظل ابن خلدون في سجنه نحو عامين حتى توفي السلطان سنة (759هـ-1358م).

ويصف لنا محمد عبدالله عنان هذا الحدث بقوله: "لم يمض على انتظام ابن خلدون في بلاط فاس عامان حتى تحركت نفسه الوثابة الى خوض غمار الدسائس السياسية، ومع أن سيده وحاميه السلطان أبا عنان لم يدخر باعترافه وسعا في اكرامه والعطف عليه، ومع أنه ولاه رغم حداثة منصب الكتابة واختصه بمجلسه للمناظرة والتوقيع عليه، فإنه لم يحجم عن التآمر عليه مع الأمير عبدالله محمد صاحب "بجاية" المخلوع وكان يومئذ أسيرا في فاس"².

1 - النبهان، "الفكر الخلدوني من خلال المقدمة"، م.ن، ص 19 .

2 - عنان، محمد عبد الله عنان - المحامي، "ابن خلدون حياته وراثته الفكري"، الطبعة الأولى، 1352هـ، 1933م، ص 26، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة .

وعند استعراض رواية ابن خلدون في هذه الحادثة أجدها رواية مقتضبة وقصيرة جدا لم تتجاوز الصفحة مع أنها أخذت من عمره في السجن سنتين، فلا يذكر ابن خلدون تفاصيلها كاملة، بل يسميها "نكبة"، ويسمي اتصاله بعدو سلطانه ابو عنان "مداخلة" من غير توضيح لتفاصيلها، ثم لا يذكر شيئا عن حياته في السجن والبالغة سنتين، وهذا ما يدفع للتساؤل والشك بأن ما فعله ابن خلدون من اتصال بخصم السلطان كان حقيقة وكان يجرب بنفسه إحدى المؤامرات التي كانت تحصل في زمانه.

يقول ابن خلدون واصفاً ذلك الحدث: "حدثت النكبة من السلطان أبي عنان: كان اتصالي بالسلطان أبي عنان، آخر سنة ست وخمسين، وقريني وأدنانني، واستعملني في كتابته، حتى تكدر جوي عنده، بعد أن كان لا يعبر عن صفائه، ثم اعتل السلطان، آخر سبع وخمسين، وكانت قد حصلت بيني وبين الأمير محمد صاحب بجاية من الموحدين مداخلة، أحكمها ما كان لسلفي في دولتهم. وغفلت عن التحفظ في مثل ذلك، من غيرة السلطان، فما هو إلا أن شغل بوجعه، حتى أنمى إليه بعض الغواة، إن صاحب بجاية، معتمل في الفرار ليسترجع بلده، وبها يومئذ وزيره الكبير، عبد الله بن علي، فانبعث السلطان لذلك، وبادر بالقبض عليه. وكان فيما أنمى إليه، أني داخلته في ذلك، فقبض علي، وامتحنني وحبسني، وذلك في ثامن عشر صفر، سنة ثمان وخمسين. ثم أطلق الأمير محمداً، وما زلت أنا في اعتقاله، إلى أن هلك. وخاطبته بين يدي مهلكه، مستعطفاً بقصيدة...وهي طويلة، نحو مائتي بيتاً، ذهبت عن حفظي، فكان لها منه موقع، وهش لها. وكان بتلمسان فوعد بالإفراج عني عند حلوله بفاس، ولخمس ليال من حلوله طرقه الوجع، وهلك لخمس عشرة ليلة، في رابع وعشرين في الحجة خاتم تسع وخمسين. وبادر القائم بالدولة، الوزير الحسن بن عمر إلى إطلاق جماعة من المعتقلين، كنت فيهم، فخلع علي، وحملني، وأعادني إلى ما كنت عليه، وطلبت منه الانصراف إلى بلدي، فأبى علي، وعاملني بوجوه كرامته، ومذاهب إحسانه، إلى أن اضطرب أمره، وانتقض عليه بنو مرين"¹.

إن هذه الرواية تؤكد لنا مدى الحالة النفسية التي آل إليها ابن خلدون بعد فقدته لوالديه وعلمائه وشيوخه، فلن يرقبه أحد ولن يؤاخذه على أفعاله احداً، ومهما صنع فسيكون صنيعه لوحده وأثره عليه لوحده كذلك، ولن يؤثر على من يمت له بعلاقة قريى أونسب، لفقده اياهم اساساً وخصوصاً أنه في بلاد غريبة، كما أنه يسعى بكل الطرق والوسائل للاستفادة من معارفه في ديوان الحكم والسلطان ويستخدم خبراته وحنكته وعبقريته لتحقيق ما يصبو اليه. فابن خلدون هنا يدخل السجن ولمدة عامين

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، م.س، ص 72 - 73 .

بسبب جريمة التآمر والاتصال مع العدو في نظر السلطان، وهي في نظر أهل البلد جريمة تُعاب على ابن خلدون.

والسؤال الذي يطرح نفسه: كيف أثرت في نفسه تلك الحادثة؟ وكيف واجه منتقديه من الساسة والكتبة والمعلمين في بلاط السلطان؟ بل الأدهى من ذلك كيف قضى السنتين خلف قضبان السجن؟ وما هي الآثار النفسية الحادة التي رافقت وضعه طوال هذه الفترة؟ وكيف كان ابن خلدون يتصرف؟ وهل تركت جرحا عميقا غائرا؟.

والحقيقة أنها نعم تركت جرحا غائرا في نفسه أراه أولا عند قوله: "...وأعادني إلى ما كنت عليه، وطلبت منه الانصراف إلى بلدي، فأبى علي..."، فقد طلب الرجوع إلى بلده، ولم يحتمل مشاعر الازلال التي عانى منها في السجن، بل كانت كارثة عليه ناشد خلالها السلطان بقصيدة فاقت المئتي بيتا يستعطفه فيها ويرجو الصفح والغفران... وليالي السجن الظلماء تعذبه وتقلب أحواله ولا يدري كيف سيكون مصيره، وأراه ثانيا في تقلبات حياته فيما بعد عندما يصب كامل مشاعره وحدثه في كتاباته عبر مقدمته.

ويعصف لنا ذلك الدكتور النبهان بقوله: "...أتهم ابن خلدون في عهد السلطان أبي عنان المريني بالتآمر، وزج به في السجن لمدة سنتين، كان خلالها يفقد يوما بعد يوم ذلك الوهج الجميل الذي كان يكلل معالم وجهه. بعد ذلك اليوم فقد ابن خلدون توازنه النفسي وهدوءه، وأصبح قلق النفس، مضطرب السلوك، متقلب المزاج، يحس بالغرابة القاسية، ويبحث عن ذلك الاستقرار الذي فقده، ولذلك فقد كانت خطواته بعد تلك الحادثة مضطربة، توحى بعدم الاطمئنان، ذلك أن هذا الحادث أيقظه من حلم جميل، وأصبح يشعر بالحذر والكآبة، لأن السجن علمه أشياء جديدة، ولو أن ابن خلدون خرج من ذلك السجن إلى قلعة ابن سلامة واعتكف على الدرس والتأليف لكان قد استعاد توازنه النفسي وهدوءه، ولكان أقدر على المشاركة في الحياة السياسية، في ظل سلطان يُقدّر مواهبه ويثق برأيه، ولكن ابن خلدون خرج من السجن ليواصل مرحلة من العمل السياسي كانت الأوضاع فيها مضطربة"¹.

1 - النبهان، "الفكر الخلدوني من خلال المقدمة"، م.س، ص 36.

المبحث الثاني

ابن خلدون يثير حفيظة الحساد وموظفي الدولة والمراقبين

ان الذي يثير حفيظة من حوله من المجاورين والأقران والأصحاب فيسبب لنفسه الحسد والمكر منهم، يكون في العادة صعباً في المناقشة والرد والتعامل معه، بل ان طبيعته تكون ثورية وحادة تميل لعدم التساهل او الصفح او المزاح أو حتى اللين في الأخذ والعطاء، أو تقبل للطرف الآخر بهدوء وروية من غير مواجهة أو رد فوري وصلب وحاسم على ما يسمعه أو يُناقش فيه أو يُطلب حكمه عليه، وخصوصا اذا كان في وضع يحسد عليه كوضع ابن خلدون واستلامه للقضاء والفصل في القضايا ومواجهة المتخاصمين.

وهذه الأحداث حقيقة تكشف شخصية ابن خلدون، فهو في بلاط السلطان أبي سالم بن أبي الحسن. فإنه لما آل السلطان إلى أبي سالم، وكان ابن خلدون خارج السجن، صار ذا حظوة ومكانة عظيمة في ديوانه، فيطلبه السلطان للإستعانة به في اقناع المعارضين له واجبارهم على موالاته من أشياخ بني مرين، ومن جهة أخرى يوليه كتابة سره والترسيل عنه، فيؤدي ابن خلدون المهمة كاملة، ويبذل في سعيه إلى تحرير الرسائل من قيود السجج التي كانت سائدة في عصره¹.

ولقد ظل ابن خلدون في تلك الوظيفة لمدة عامين حتى ولاه السلطان أبو سالم خطة المظالم، فأظهر فيها غاية العدل والكفاية مما جعل شأنه يعظم حتى نَفَسَ وأثار عليه كثير من أقرانه ومعاصريه مما بلغه من شهرة ومكانة، وسعوا بالوشاية بينه وبين السلطان حتى تغير عليه. لكن ابن خلدون يدرك ما يجول في خاطر السلطان تجاهه وما قد يحصل له نتيجة تلك الوشائيات، وكان قد تعلم من الدرس السابق ومن فترة سجنه ولا يمكن له ان يقع في نفس الخطأ، فيخفف من حدته قليلا ويسعى بالمدح الخفي مع الكفة الراجحة، وذلك من خلال بعد نظره وإدراكه لما قد يحصل لهذا السلطان، فالطاعة العمياء والخدمة المتفانية قد تقوداه للقضاء على مجده السياسي وطموحاته الكبيرة حيث يقول: "ثم غلب ابن مرزوق على هواه، وانفرد بمخالطته، وكبح الشكايم عن قربه، فانقبضت، وقصرت الخطو،

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م.س، ص 74 - 75 يقول ابن خلدون في شأن هذا الأمر: (ولما أجاز السلطان أبو سالم من الأندلس لطلب مالكة، ونزل بجبل الصفيحة من بلاد غماره. وكان الخطيب ابن مرزوق بفاس، فبث دعوته سرا، واستعان بي على أمره، بما كان بيني وبين أشياخ بني مرين من المحبة والائتلاف، فحملت الكثير منهم على ذلك، وأجابوني إليه... فنهضت به، وتقدمت إلى شيوخ بني مرين، وأمراء الدولة بالتحريض على ذلك، حتى أجابوا، وبعث ابن مرزوق إلى الحسن بن عمر، يدعو إلى طاعة السلطان أبي سالم...ولما اجتمعت العساكر عنده بالقصر، صعد إلى فاس. ولقيه الحسن بن عمر بظاهرها، فأعطاه طاعته، ودخل إلى دار ملكه وأنا في ركابه، لخمس عشرة ليلة من نزوعي إليه، منتصف شعبان ستين وسبعمائة، فرعى لي السابقة، واستعملني في كتابة سره، والترسيل عنه، والإنشاء لمخاطباته، وكان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل، من غير أن يشاركني أحد ممن ينتحل الكتابة في الاسجاع، لضعف انتحالها، وخفاء العالي منها على أكثر الناس، بخلاف المرسل، فانفردت به يومئذ، وكان مستغرباً عندهم بين أهل الصناعة).

مع البقاء على ما كنت فيه من كتابة سره، وإنشاء مخاطباته ومراسمه. ثم ولاني آخر الدولة خطة المظالم، فوفيتها حقها، ودفعت للكثير مما أرجو ثوابه¹. ويصدق ظننا بـابن خلدون من خلال ما يحصل معه فيما بعد.

المبحث الثالث

لسان عذب ومدح خفي يجعله قريب من قلوب الحكام المتآمرين على بعضهم

لم تكد الأحوال تتقلب على ابن خلدون حتى يُحوّل الظروف بحنكته ودهائه لصالحه، فقد ثار رجال الدولة على السلطان أبي سالم وخلعوه، وولوا مكانه أخاه تاشفين، وفورا ومن غير تردد وكأنها خطة مرسومة مسبقا بليل بادر ابن خلدون إلى الانضمام إليه، فأقره السلطان الجديد على وظائفه بل وزاد له في راتبه، ولعل هذه الروايات تكشف لنا ما كان يدور في خلد ابن خلدون وما كان يسعى إليه. يقول ابن خلدون في تصريح خطير يعبر فيه عن طموحه وغايته: "ولم يزل ابن مرزوق آخذاً في سعائته بي وبأمثالي من أهل الدولة، غيرة ومنافسة، إلى أن انتقض الأمر على السلطان بسببه. وثار الوزير عمر بن عبدالله بدار الملك، فصار إليه الناس، ونبذوا السلطان وبيعته، وكان في ذلك هلاكه، ولما قام الوزير عمر بالأمر، أقرني على ما كنت عليه، ووفر إقطاعي، وزاد في جرايتي، وكنت أسمى، بطغيان الشباب، إلى أرفع مما كنت فيه، وأدل في ذلك بسابقة مودة معه، منذ أيام السلطان أبي عنان، وصحابة استحکم عقدها بيني وبينه، وبين الأمير أبي عبدالله صاحب بجاية، فكان ثالث أثافيتا، ومصقلة فكاھتتا"².

ابن خلدون في قوله هذا قد كشف مستويات الغيرة والحسد من خصومه والتي كان يعاني منها، ومن الطبيعي أن تؤثر تلك الغيرة وما يتبعها من مكر ودهاء عليه شخصيا بالكراهة والحقد والثورة على المتسببين بها، فضلا أنه وببساطة يذكر أن النميمة التي كان يسعى بها غريمه قد أدت وبشكل مفاجئ إلى خلع السلطان من حكمه وعرشه... ثم إلى هلاكه وموته !!! ولقد أبان وأفصح ابن خلدون كذلك أن نوازع الطمع في السلطة والمناصب تسيطر عليه وتدفعه للسعي واستغلال معارفه وصحبته لتحقيق غايته التي يسعى إليها، وهذا من الطبيعي أن يؤثر على اختياراته وتحليلاته مستقبلا عند كتابته للمقدمة، فقد تكون هدية لأحد السلاطين فيتكلم فيها بما ينفعه عنده ويقره من قلبه، كما أن أفكاره بدئا من هذه الجملة قد صارت مشكوكا فيها كونه يميل أحيانا إلى المديح أو الذم لغاية مقصودة النفع لذاته عند من يرجو قره وتحقيق أطماعه، ويظهر ذلك بوضوح في قوله: "ولما قام الوزير عمر بالأمر،

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م.ن، ص 80 .

2 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م.ن، ص 80 .

أقرني على ما كنت عليه، ووفر إقطاعي، وزاد في جرايتي، وكنت أسمو، بطغيان الشباب، إلى أرفع مما كنت فيه، وأدل في ذلك بسابقة مودة معه، منذ أيام السلطان أبي عنان".
ولكن طموح ابن خلدون كان أقوى من تلك الوظائف، فيقرر السفر إلى غرناطة بالأندلس في أوائل سنة (764هـ - 1362م).

المبحث الرابع

سفر ابن خلدون الى غرناطة يثبت الاتصال المسبق مع سلطانها

ليس من العجيب ولا الغريب أن يشتغل ابن خلدون على العديد من الأصعدة السياسية والعلاقات الدولية والشخصية، كونه في وضع سياسي ومنصب قضائي مميز وقريب من السلاطين، فيقوم باتصالاته مع مختلف الجهات الحاكمة ويبني مصالح له شرقا وغربا مستغلا منصبه ووضعه المميز في بلاط السلطان وما قد يعود عليه من فوائد جما وعلاقات دبلوماسية مميزة قد تقيده مستقبلا وتنفعه اذا تغيرت الأحوال وتبدلت.

وهذا ما حصل فعلا¹... فاختيار غرناطة في الأندلس لم يكن مستغربا من ابن خلدون، حيث بنى فيها لنفسه معرفة وصحبة وواسطة عند كبير القوم وسلطانها، ويقدر ابن خلدون الخدمات التي قدمها له ولوزيريه ابي عبد الله بن الخطيب، ويدرك تماما أن هذه الخدمات سينتقى بمقابلها ما يسره وينفعه ويبقي حالة الغنى ورفعة المنصب ملازمة له. وان ترحيل ابن خلدون لعياله الى أخوالهم في قسنطينة، وسفره هو لغرناطة كان بمثابة البحث عن المناصب الرفيعة، واسترداد مقابل الخدمات التي قدمها في سالف أيامه لمن هو متوجه لهم. حيث لقي ابن خلدون قدراً كبيراً من الحفاوة والتكريم من السلطان ابن الأحمر - سلطان غرناطة - ووزيره لسان الدين بن الخطيب الذي كانت تربطه به صداقة قديمة وكان السبب في تقديمه للسلطان وتعريفه به.

يقول ساطع الحصري في وصف هذه العلاقة السياسية الوطيدة: "كان ابن خلدون تعرف الى السلطان والوزير معاً خلال اقامتهما في فاس، وساعدهما مساعدة فعلية بفضل تأثيره على رجال الدولة، كما أنه

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م، ن، ص 82. يقول ابن خلدون في هذا الشأن: (... فأعانني الوزير مسعود عليه، حتى أذن لي في الانطلاق على شريطة العدول عن تلمسان، في أي مذهب أردت، فاخترت الأندلس، وصرفت ولدي وأهمهم إلى أخوالهم، أولاد القائد محمد بن الحكيم بقسنطينة، فاتح أربع وستين. وجعلت أنا طريقني على الأندلس، وكان سلطانها أبو عبد الله المخلوع، حين وفد على السلطان أبي سالم بفاس، وأقام عنده، حصلت لي معه سابقة وصلة ووسيلة خدمة، من جهة وزيره أبي عبد الله بن الخطيب، وما كان بيني وبينه من الصحبة، فكنت أقوم بخدمته، وأعمل في قضاء حاجاته في الدولة. ولما أجاز، باستدعاء الطاغية لاسترجاع ملكه، حين فسد ما بين الطاغية وبين الرئيس المتوثب عليه بالأندلس من قرابته، خلفته فيمن ترك من عياله وولده بفاس، خير خلف، في قضاء حاجاتهم، وإدراكهم، من المتولين لها، والاستخدام لهم).

كان تولى رعاية عائلة لسان الدين بن الخطيب بعد سفره، مدة بقائها هناك انتظاراً الى انتهاء الاضطرابات في الأندلس، وكانت الصداقة التي توطدت بينه وبين لسان الدين بن الخطيب عميقة الجذور، ويظهر أن كل واحد منهما قدر عبقرية صاحبه حق قدرها، وشعر نحوه بنوع من القرابة الفكرية والأخوة الأدبية، فارتبط الاثنان ببعضهما ببعض بروابط معنوية لا تنفصم، ولذلك كله، كان يأمل ابن خلدون أن يقابل بالترحاب من السلطان ووزيره، عندما يرحل الى الأندلس، وإن الوقائع لم تخيب أمله في هذا المضمار؛ فإن السلطان والوزير رحبا به ترحيباً حاراً، وهياً له منزلاً فخماً يحتوي على كل وسائل الراحة والهناء، حيث يقول ابن خلدون في ترجمة حياته، إن السلطان نظمته في عليّة أهل مجلسه، واختصه بالنجى في خلوته، والمواكبة في ركوبه، والمواكلة والمطايبة والفكاهة في خلوات أنسه¹.

ثم تحقق لابن خلدون ما كان يصبو اليه عندما كلفه السلطان بالسفارة بينه وبين ملك قشتالة - بطرّه بن الهنشة بن أدقونش - لعقد الصلح بينهما، وقد أدى ابن خلدون مهمته بنجاح كبير، فكافأه السلطان على حسن سفارته بإقطاعه أرضاً كبيرة، ومنحه كثيراً من الأموال، فصار في رغد من العيش في كنف سلطان غرناطة².

1 - الحصري، "دراسات عن مقدمة ابن خلدون"، م.س، ص 77 - 78 .

2 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، م.ن، ص 84 - 86. يقول ابن خلدون في ذلك: (ثم خرجت إلى غرناطة، وكتبته إلى السلطان ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب بشأني. وليلة بت بقرب غرناطة على بريد منها، لقيني كتاب ابن الخطيب يهنئني بالقدوم ويؤنسني، ونصه شعراً:

حللت حلول الغيث بالبلد المحل ... على الطائر الميمون والرحب والسهل

يميناً بمن تعنو الوجوه لوجهه ... من الشيخ والطفل المهدد والكهل

لقد نشأت عندي للقياك غبطة ... تنسي اغتباطي بالشبيبة والأهل

وودي لا يحتاج فيه لشاهد ... وتقريبي المعلوم ضرب من الجهل

ثم أصبحت من الغد قادماً على البلد، وذلك ثامن ربيع الأول عام أربعة وستين، وقد اهتز السلطان لقدمي، وهياً لي المنزل من قصوره، بفرشه وماعونه، وأركب خاصته للقائي، تحفياً وبراً، ومجازاة بالحسن؛ ثم دخلت عليه فقابلني بما يناسب ذلك، وخلع علي وانصرف. وخرج الوزير ابن الخطيب فشيّعني إلى مكان نزلي؛ ثم نظمني في عليّة أهل مجلسه، واختصني بالنجى في خلوته، والمواكبة في ركوبه، والمواكلة والمطايبة والفكاهة في خلوات أنسه، وأقمت على ذلك عنده، وسافرت عنه سنة خمس وستين إلى الطاغية ملك قشتالة يومئذ، 'بتره بن الهنشة بن أدقونش"، لإتمام عقد الصلح ما بينه وبين ملوك العدو، بهدية فاخرة، من ثياب الحرير، والجياد المقربات بمراكب الذهب الثقيلة، فلقيت الطاغية بإشبيلية، وعانيت آثار سلفي بها، وعاملني من الكرامة بما لا مزيد عليه، وأظهر الاغتراب بمكاني، وعلم أولية سلفنا بإشبيلية. وأثنى علي عنده طبيبيه إبراهيم بن زُرَّزَر اليهودي، المقدم في الطب والنجامة، وكان لقيني بمجلس السلطان أبي عنان، وقد استدعاه يستطبه، وهو يومئذ بدار ابن الأحمر بالأندلس... فلما قدمت أنا عليه، أثنى علي عنده، فطلب الطاغية مني حينئذ المقام عنده، وأن يرد علي تراث سلفي بإشبيلية، وكان بيد زعماء دولته، فقاديت من ذلك بما قبله. ولم يزل علي اغتباطه إلى أن انصرف عنه، فزودني وحملني، واختصني ببغلة فارهة، بمركب ثقيل ولجام ذهبيين، أهديتهما إلى السلطان، فأقطعني قرية إلبيرة من أراضي السقي بمرج غرناطة).

المبحث الخامس

الطبيعة البشرية تتغلب وتخلق حسادا وكارهين وتزداد المآسي

وتأبى الطبيعة البشرية والنفسية التي جبل عليها ابن خلدون إلا أن تخونه هنا مرة أخرى، وتجبره على أن يخلق له مناوئين وحسادا وكارهين. فلم تدم سعادة ابن خلدون طويلا بهذا النعيم، إلا وتلاحقه وشايات من الحاسدين والأعداء، وتوقع وتفسد بينه وبين صاحبه الوزير ابن الخطيب الذي سعى به بدوره لدى السلطان تحريضا وتخوينا، وبالتالي تغيرت نفس السلطان نحوه بالشك والريبة. وعندئذ أدرك ابن خلدون أنه لم يعد له مقام بغرناطة بل والأندلس كلها، فهو لم ينسى درس السجن ولا زالت مآسيه وأحزانه تطارده أينما ذهب وتشكل له هاجسا مستمرا من السقوط أو النكسة والانهيال وفقدان الطموح والتحليق نحو المجد.

لقد عانى ابن خلدون ايما معاناة وأصابه الكثير في داخله من واقع الاشخاص الذين يثق بهم ويعيش معهم، وجاهل من يظن أنه وقف أمام هذه النكسات والتحديات دون أن يتأثر أو توجد في مجاهيل نفسه ثورة من الغضب والحقد على المتسببين له بهذه المآسي. بل واهم من يعتقد أيضا أن ابن خلدون كان كالصخرة الصماء لا يعتريها التفتت والتغير نتيجة هذه الكوارث، خاصة لمن أوقع به الأذى وتسبب له بالشتات والهجرة والسفر وترك الأحباب والخوف من السجن وملاحقة السلاطين والعقوبات الصارمة.

اني اعتقد أن ابن خلدون كان يعيش لحظات من الرعب والخوف من الحساد والمقربين من السلطان وناقلي الوشايات والأخبار جعلته لا يهنأ برغد عيش ولا طعم غنى. وما سيلقاه بعد ذلك - من خلال ما سأسرده - سيكون مفصليا في حياته ويبلور فكره ورأيه حول من يعيش معهم خصوصا العرب من سكان تلك الديار وأهل المدن والحضر وأتباع السلطان في مملكته¹.

وان الحقيقة المؤلمة أن ابن خلدون لم يكد يفرح بالنعيم الذي حل به، أو يتباهى به أمام القريب والبعيد، بل كانت رغبته جامحة أن يشرك زوجته وأولاده في هذه الفرحة، وطبيعة الرجل أن يتباهى أمام زوجته بقدراته العقلية وصنائع يديه الغنية وابداع مخيلته الذكية، فيطلب حضور عائلته وأولاده، وما كادوا يحضرون حتى حلت النكسة، ودارت عليه دائرة الأحزان والحساد والماكرين، فتغير عليه

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غريا وشرقا"، م، ن، ص 90 - 91. يروي ابن خلدون في ذلك: (ولما استقر، واطمأنت الدار، وكان من السلطان الاغبط والاستنثار وكثر الحنين إلى الأهل والتذكار، أمر باستقدام أهلي من مطرح اغترابهم بقسنطينة، فبعث عنهم من جاء بهم إلى تلمسان. وأمر قائد الأسطول بالمرية، فسار لاجازتهم في أسطوله، واحتلوا بالمرية. واستأذنت السلطان في تلقيهم، وقدمت بهم على الحضرة، بعد أن هيأت لهم المنزل والبستان، ودمنة الفلح، وسائر ضرورات المعاش... ثم لم يلبث الأعداء وأهل السعايات أن خيلوا الوزير ابن الخطيب من ملابستي للسلطان، واشتماله علي، وحركوا له جواد الغيرة فتتكر. وشمنت منه رائحة الانقباض، مع استبداده بالدولة، وتحكمه في سائر أحوالها وجاءتني كتب السلطان أبي عبد الله صاحب بجاية، بأنه استولى عليها في رمضان خمس وستين. واستدعاني إليه...).

السلطان وأدرك أن بقاءه عنده قد يجلب له المكاره والمصائب والأحزان وقد يأتي بالسجن، فاختار المغادرة وترك النعيم الذي لم يكد يهنأ به.

ان أثر ذلك على نفسه فوق ما يحتمله عقل أو يتصوره فكر، واني أعتقد أن ابن خلدون كان يشتعل من داخله نارا وجمرا على من سعى بالوشاية به، بل على كل ذلك الجنس العربي الذي ينتمي اليه، فهو في نظره جنس تملؤه الأحقاد والنميمة والحسد والوشايات، ولم يعد في قلبه متسع له أو لمن ينتسبون اليه، ولم تكد أنامله بعد سنوات الأحزان هذه أن تكتب تفاصيل السياسات الحاكمة حتى فرغ مكنونات نفسه وثورات وجدانه حروفا وكلمات تضمنها كتابه المقدمة.

المبحث السادس

القدر يلعب لصالحه، وعلاقاته السابقة تخدمه في الأزمات

لم يكد ابن خلدون يكره واقعه ويقرر مغادرة غرناطة حتى يضحك له القدر مرة أخرى، وتتفعه علاقاته السابقة وكلمات لسانه المعسولة للسلطين دوما. ففي تلك الأثناء يرسل إليه أبو عبد الله محمد الحفصي - أمير بجاية الذي استطاع أن يسترد عرشه - يدعوه إلى القدوم إليه، ويعرض عليه أن يوليه الحجابة وفاء لعهد القديم له. فيغادر ابن خلدون الأندلس إلى بجاية ويصلها في منتصف عام (766هـ - 1365م)، وهناك يستقبله أميرها، وأهلها استقبالا حافلا في موكب رسمي يشارك فيه السلطان وكبار رجال دولته، وحشود من الجماهير من أهل البلاد.

ولنا هنا أن نصف حالة ابن خلدون النفسية والنشوة التي فاقت التصور وسعاده ونزعات وجدانه وهي يغمرها الفرح والغرور والزهو والسرور والشماتة بمن غادرهم ممن سعوا بالوشاية به عند السلطان ابن الأحمر، وكأنني به يقول في داخله: انظروا لم تفلح خططكم ولم يفلح مكركم وهأنذا أتبوا مركزا مرموقا أحسن مما كنت... فلتموتوا بغيطكم. حيث هذا ما أفهمه من قوله: "...فاحتفل السلطان صاحب بجاية لقدمي، وأركب أهل دولته للقائي. وتهافت أهل البلد عليّ من كل أوب يمسحون أعطافي، ويقبلون يدي، وكان يوماً مشهوداً. ثم وصلت إلى السلطان فحيا وفدّي، وخلع وحمل، وأصبحت من الغد، وقد أمر السلطان أهل الدولة بمباكرة بابي..."¹.

وعند ملاحظة كلماته التالية أدرك أن هدف ابن خلدون كان من ورائها اللعب بعقول السلطين، واخفاء للحقائق عنهم بهدف مصالحه الخاصة، فهو يحفظ لنفسه خط الرجعة عند السلطان ابن الأحمر، ويحرص على عدم ايزاء مشاعر السلطان ابقاء للمودة بينهما. فاذا ما احتاج لشيء وجد السلطان ملبياً لها من غير تردد، وهو بذلك يُبقي لنفسه مرجعا وسندا عند الملمات فيقول عن فعله: "وجاءتني كتب السلطان أبي عبد الله صاحب بجاية، بأنه استولى عليها في رمضان سنة خمس وستين، واستدعاني إليه، فاستأذنت السلطان ابن الأحمر في الارتحال إليه، وعميت عليه شأن ابن الخطيب إبقاء لمودته، فارتّمض لذلك، ولم يسعه إلا الإسعاف، فودع وزود، وكتب لي مرسوم بالتشجيع من إملاء الوزير ابن الخطيب..."².

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م.ن، ص 95. والنص الكامل في ذلك هو: (وركبت البحر من ساحل المرية، منتصف ست وستين. ونزلت بجاية لخامسة من الإقلاع، فاحتفل السلطان صاحب بجاية لقدمي، وأركب أهل دولته للقائي. وتهافت أهل البلد عليّ من كل أوب يمسحون أعطافي، ويقبلون يدي، وكان يوماً مشهوداً. ثم وصلت إلى السلطان فحيا وفدّي، وخلع وحمل، وأصبحت من الغد، وقد أمر السلطان أهل الدولة بمباكرة بابي، واستقلت بحمل ملكه، واستفرغت جهدي في سياسة أموره وتدبير سلطانه، وقدمني للخطابة بجامع القصبه، وأنا مع ذلك، عاكف بعد انصرافي من تدبير الملك غدوة إلى تدريس العلم أثناء النهار بجامع القصبه لا أنفك عن ذلك).

2 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م.ن، ص 92 .

المبحث السابع

اللعب بالنار والمجاهرة بالنفاق السياسي

ويعيش ابن خلدون مرة أخرى في رغد من العيش وسعة من الرزق هائناً وادعاً مرتاحاً في القصر، لكن تظهر شخصيته الثورية المليئة بالغضب والشدة على حقيقتها عندما يوليه السلطان منزلة ورتبة لا تعلوها رتبة وهي الحجابة. وهي بمثابة كاتم سر السلطان والساعي بأمره فيما يامر وينهى.

ويعرف لنا ساطع الحصري طبيعة هذا المنصب فيقول: "ومعنى الحجابة حسب وصف ابن خلدون لها: "هي الاستقلال بالدولة، والوساطة بين السلطان وبين أهل دولته، لا يشاركه في ذلك أحد"، ويفهم من هذا الوصف أن الحاجب كان بمثابة "الصدر الأعظم" في السلطنات الإسلامية الأخيرة، قبل انشاء مجالس الوزراء والبرلمانات"¹.

والعجيب أن ابن خلدون يثبت تغوُّلاً وحدة وقوة في منصبه هذا تساهم في كشف مكنونات نفسه. فهو يقول بلسانه عن أوضاع سلطانه: "...ووجدت بينه وبين ابن عمه السلطان أبي العباس صاحب قسنطينة فتنة، أحدثتها المشاحة في حدود الأعمال من الرعايا والعمال، وشب نار هذه الفتنة عرب أوطانهم من الدواودة من رياح... وكانوا في كل سنة يجمع بعضهم لبعض، فالتقوا سنة ست وستين... فانهمز السلطان أبو عبد الله، ورجع إلى بجاية مفلولاً، بعد أن كنت جمعت له أموالاً كثيرة أنفق جميعها في العرب. ولما رجع أعوزته النفقة، فخرجت بنفسي إلى قبائل البربر بجاية المتمنعين من المغارم منذ سنين، فدخلت بلادهم واستبحت حماهم، وأخذت رهنهم على الطاعة، حتى استوفيت منهم الجباية، وكان لنا في ذلك مدد وإعانة"².

فابن خلدون هنا أولاً يرجع أسباب الحروب هناك إلى العرب من قبيلة الدواودة، وفي كلامه هذا تحاملاً على العرب. وقد يكون سبباً لما ورد في مقدمته من اتهامه للعرب في عدة مواقع. ثم ثانياً هو يعترف كيف وفّر الأموال للسلطان عندما احتاج إليها، فلا فرق عند ابن خلدون بين من يحمل عليه أو يحبه من القبائل، وغاية مقصده رضى السلطان عنه فهو من وفر له هذا المنصب وجلب له هذا النعيم... فيذهب بنفسه - ومن الطبيعي بكتيبة كاملة من الجيش - إلى قبائل البربر على جبال بجاية الممتنعين عن أداء الضرائب منذ سنوات - وهنا يظهر في كلامه الفخر والشدة والقسوة والثورة الداخلية النفسية - ثم يدخل بلادهم بقوته وكبريائه المتمثلة بقوله: "واستبحت حماهم، وأخذت رهنهم على

1 - الحصري، "دراسات عن مقدمة ابن خلدون"، م.س، ص 79 .

2 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، م.س، ص 95 - 96 .

الطاعة"، ويستوفي منهم من المال ما يفرح قلب السلطان. وأفهم من وراء كلمات ابن خلدون أحساسه بفوز ساحق وانتقام رهيب من أيامه السوداء والتي عانى فيها من السجن والخوف والهرب والترحال والسفر والوشايات والحساد. وها هي تلوح له الفرصة ليصب جام غضبه على قبائل البربر، خاصة بعد أن ملك جزءا من القوة والسطوة. وكأنني به لو ملك على الدوام هذه القوة التي لاحت له لصنع في بلاد المغرب أكثر مما نتخيله.

لكن لا تأتي الرياح على ابن خلدون بما يشتهيها وتشتهيها السفن، وكأن حظه في هذه الدنيا قد كتب عليه أن يبقى متعثرا، ومصيره أن يبقى في الهرب والرعب والخوف. وحقيقة لقد كشف ابن خلدون بنفسه عن باطنه وأسرار قلبه واعترف - وإن بغير قصد - أنه منافق صريح يحابي السلاطين والحكام طمعا في أموالهم وأرزاقهم واتقاء لشرهم ومكرهم. وما سأسرده الآن سيكون دليلا دامغا على ما أقول.

فابن خلدون كان يدرس المنطقة، ويلاحظ طبيعة الولاءات من القبائل لكل سلطان، بل كان يتنبأ بمصير كل سلطان قبل أن يحصل معه ما تنبأ به. ويظهر ذلك عندما تتقلب الاحوال فجأة وتتغير، فيجتاح أبو العباس أحمد - صاحب قسطنطينية - مملكة ابن عمه الأمير أبي عبدالله الحفصي ويقتله ويستولي على البلاد ويحكمها. والأمير أبو عبدالله كما نعلم ومر سابقا هو من أسعد وأسند وأفرح قلب ابن خلدون بمنصب الحجابة، ووفر له فوق ما يتخيل من الراحة والمال والاستقرار، والعجيب أن ابن خلدون اعترف بلسانه بطريقة غير مباشرة بتنبئه بمصير السلطان أبي عبدالله وأنه مقبل على الهلاك من أحد السلاطين المنافسين بفعل تغير ولاء القبائل ضده بسبب شدته ووسطوته فلن يسانده أحد.

وهنا يحاول ابن خلدون أن يذكر عذره في التخلي عن هذا السلطان - الذي أنعم عليه وولاه الحجابة - ليوالي سلطانا آخر مقبلا على الطريق. فكأنه يقول لمن يقرأ رواية حياته: أعذروني بتحولي عن هذا السلطان لشدته وقسوته على الناس. وهذا ما أفهمه من قوله: "ثم نهض السلطان أبو العباس سنة سبع وستين، وجاس أوطان بجاية، وكاتب أهل البلد، وكانوا وجليين من السلطان أبي عبد الله، بما كان يرهف الحد لهم، ويشد وطأته عليهم. فأجابوه إلى الانحراف عنه، وخرج السلطان أبو عبد الله يروم مدافعتة، ونزل جبل ليزو معتصماً به. فبيته السلطان أبو العباس في عساكره وجموع الأعراب من أولاد محمد بن رباح بمكانه ذلك، بإغراء ابن صخر وقبائل سدويكش، وكبسه في مخيمه وركض هارياً، فلحقه وقتله..."¹

وكلمات ابن خلدون هذه تسبق تحول ولاؤه للسلطان الجديد أبي العباس، وكأنني به يعتذر عن مقتل السلطان السابق بسبب أفعال يده التي جلبت على رأسه تخلي المناصرين والمساندين وأدت الى مقتله.

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م.ن، ص 96 .

والمدهش أن ابن خلدون يأتيه الخبر في تلك اللحظات بينما كان يتنعم ويرقد في قصر السلطان المغدور، ويتسمع الأخبار ويراقب الأحوال وهذا ما أفهمه من قوله: "...وجاءني الخبر بذلك، وأنا مقيم بقصبة السلطان وقصوره"¹.

لكن ابن خلدون كان قد تتبأ بمصير سلطانه، والمسألة الآن هل يبقى على ولائه القديم؟ فيسعى لإبقاء أبناء السلطان المغدور على العرش ويدعو الناس لانتخابهم، وهذا ما نسميه "الوفاء"، "والتمسك بالمبدأ"، أم يغير ويبدل. وعلى الرغم من أن جماعة القصر واهل بيته والمستشارين وجماعة من الشعب جاؤوا لابن خلدون يرجوه ويستجدون أن يُبقي على الأمانة والوفاء للسلطان المغدور أبي عبدالله فيبايع أحد أبنائه - فعلى الرغم من ذلك - إلا أن طبيعة ونفسية ابن خلدون الميكافيلية والطامعة في المناصب والتنعم ومدح السلاطين والميل مع الجانب القوي والرايح تبعاً لمصالحه الشخصية والمبنية على العصبية للغالب تأبى عليه إلا الخيانة والاتحاق بركب السلطان أبي العباس المنتصر. بل ويساعده ويمده بالمشورة والمساندة حتى يمكنه من البلد وأزقتها وجوانبها والتي كانت في السابق هي درة الخير لابن خلدون والمتنعة عليه بالمال والمنصب.

وهذا ما يعترف به صراحة بلسانه عندما يقول: "...وطلب مني جماعة من أهل البلد القيام بالأمر، والبيعة لبعض الصبيان من أبناء السلطان "يقصدون المقتول أبي عبدالله"، فتفاديت من ذلك، وخرجت إلى السلطان أبي العباس، فأكرمني وحباني، وأمكنته من بلده، وأجرى أحوالي كلها على معهودها..."². وهذا ما كان ابن خلدون يسعى إليه أن تبقى أموره وتتمعاته ومنصب الحجابة على معهودها، فلا بأس من عدم الوفاء، ولا مانع من تحول الولاءات، فالمهم أن يبقى في منصبه، ويتلقى راتبه، ومسألة المبدأ فيها نظر عند ابن خلدون.

والغريب أن ابن خلدون بدهائه وحيلته وعلاقاته السابقة يستميل هذا السلطان الجديد - أبو العباس - إلى جانبه ويدخل إلى قلبه، وكأنه لم يكن بينه وبين السلطان السابق أي مودة أو ألفة، وكأن الجهود التي بذلها للسابق لم تكن سوى ضحك على الذقون ولعب في الوقت الضائع، وغاية ما يسعى إليه مصلحته ومنصبه ومجده فيُسمعه بضع كلمات من المديح والتمجيد. وتحدث المفاجأة فيقرر السلطان أبو العباس ابن خلدون في منصب الحجابة الذي كان عليه سابقاً. ويعود ابن خلدون يتنعم بالامتيازات التي كانت له، وذلك على الرغم من كون ولاء ابن خلدون كان للسابق وهذا فيه مخاطرة شديدة، ولا تُعلم نوايا ابن خلدون الحقيقية، وهذا يدركه السلطان أبو العباس الجديد. لكن ابن خلدون استطاع أن

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، م.ن، ص 96 .

2 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، م.ن، ص 96 .

يغير فكرته عنه ببضع كلمات. فماذا قال له ابن خلدون حتى يقبل به على نفس المنصب؟ وما الذي استطاع أن يخدع به السلطان الجديد؟... هذا ما لم يكشفه ابن خلدون بل مرَّ عن هذه المسألة مرَّ الكرام. وهذا يُثبت أن في هذه القصة ما فيها من طبيعة ابن خلدون الخطيرة والتي تحتل أنواع من المؤامرة والخداع. ولا يمكن الوثوق بما كتبه في مقدمته أنه عام لكل المجتمعات، ويمكن أن يشمل كل الأحوال، بل إنه قد يكون خاص لسلطان معين يمدحه فيه من وراء السطور، أو يمدح فيه طبيعة محددة ساهمت في انقاده من الملمات كالطبيعة البدوية وهذا ما سنلاحظه في كتاباته للمقدمة.

ومرة أخرى، فحظ ابن خلدون تلازمه النكبات والعثرات. ويظهر أن هذا السلطان الجديد لم يكن كأبي سلطان، بل كان مدركا لما يدور حوله ولا تتطلي عليه المدائح من هنا وهناك. فيناقش هذا الموضوع بينه وبين نفسه، وكن لسان حاله يسأل: كيف أبقى هذا حاجبا وهو حاجب عدوي السابق؟ وما الذي يمنعه من الغدر بي أو التآمر ضدي مع أنصار من سبقني؟... هذا إضافة إلى أن الوشائيات والمكائد التي اشتهر بها من هم حول ابن خلدون قد تجلت صراحة هناك باعتراف ابن خلدون. وكأن ابن خلدون قد ولد مع أناس يكرهونه أينما ذهب وحل لطبيعة تصرفاته وأعماله. وقد يكون السلطان رأى أمرا آخر أو سمع نصيحة أحد المقربين.

وتقع المفاجأة فلا يلبث ابن خلدون في منصب الحجابة إلا قليلا ويعزله السلطان منها، والغريب أن ابن خلدون لا يعترف بذلك، بل يُظهر لنا أنه خاف وارتعب من مصير هذه الوشائيات عليه من حيث أنها قد تورده المهالك. فيختصر الطريق ويقدم استقالته للسلطان.

والسؤال الذي راودني هل يمكن أن أقتنع أن ابن خلدون الذي تخلى عن ولائه السابق لأبي عبد الله المغدور من أجل المنصب والمال يمكن له أن يتخلى عن هذا المنصب لمجرد الوشائيات والخوف منها؟ وعلى فرض أننا قبلنا بما قاله ابن خلدون فهذا أخطر وأخطر، فهو يكشف طبيعة نفسية ابن خلدون المهزوزة والتي يمكن لها أن تتأثر بأي وشاية أو خبر فيصاب لأجلها ابن خلدون بالرعب والخوف من سجن أو اغتيال أو أذى. وهذا يبرهن أن مقدمة ابن خلدون من باب أولى كانت مرسومة وموضوعة بهدف إرضاء سلطان محدد، أو صنف معين من البشر وذلك خوفا من التسبب لنفسه بالأذى من قبل هذا السلطان أو هذه الجهة. وهذا ما يظهر في قوله: "...وكثر السعاية عنده في، والتحذير من مكاني. وشعرت بذلك، فطلبت الإذن في الانصراف بعهد كان منه في ذلك، فأذن لي بعد لأي" ¹.

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م.ن، ص 96 .

ثم ان ابن خلدون يخرج من بجاية الى جهة محددة يجد فيها الأمان مما صنعه ويهرب منه، وهم أهل البداوة، وهذا سر ميل ابن خلدون في مقدمته لمدح البداوة على اعتبار أنهم منقذيه في الملمات ولهم عليه دين ولا بد له من الايفاء به، وأقله مدحهم في كتابه المقدمة. فهو يقول: "وخرجت إلى العرب، ونزلت على يعقوب بن علي"¹. لكن يتم اكتشاف شيء في أعقاب خروج ابن خلدون من البلد، ويبدو أنها وشاية أو مؤامرة أو شيء من هذا القبيل، وابن خلدون لا يصرح بذلك ولا يفصل ويكتفي أن يقول أن السلطان أبو العباس بدا له من أمره شيء. فما هو؟!... لا يجيب. وينتج عنه اعتقال وسجن أخيه ثم تفتيش بيتهم وقلب أغراضهم بحثاً عن أموال أو ذخيرة... وأكرر أموال أو ذخيرة... فهل شك في تأمره أو تناهى الى علمه خبر عن مخططات يسعى اليها ابن خلدون. وتبقى الإجابة طي المجهول. وهذا ما صرح فيه بقوله: "...ثم بدا للسلطان في أمري، وقبض على أخي، واعتقله ببونة. وكبس بيوتنا يظن بها ذخيرة وأمواًلاً، فأخفق ظنه. ثم ارتحلت من أحياء يعقوب بن علي، وقصدت بسكرة؛ لصحابة بيني وبين شيخها أحمد بن يوسف بن مزني، وبين أبيه، وساهم في الحادث بماله وتجاهه"².

وخلاصة القول مما سبق أنني لاحظت مسلسل الكوارث وتلاحق النكبات على ابن خلدون بعد رغد العيش ومُتّع الحياة التي لم يهنأ بها، حيث تبدأ القصة بتحامله على العرب عند قوله: "...عساكره وجموع الأعراب من أولاد محمد بن رياح"، وأعقبه وصف لرغد عيشه: "وجاءني الخبر بذلك، وأنا مقيم بقصبة السلطان وقصوره". ثم تخليه عن ولائه السابق للسلطان المغدور أبو عبدالله الحفصي وعائلته، بسبب تغير الظروف، وتملقه ومحاباته للسلطان الجديد - قاتل من كان يخدمه ويقدم له أسمى آيات الطاعة والولاء - وهو في قوله: "وطلب مني جماعة من أهل البلد القيام بالأمر، والبيعة لبعض الصبيان من أبناء السلطان، فتفاديت من ذلك، وخرجت إلى السلطان أبي العباس، فأكرمني وحباني"، ثم الولاء الكامل للسلطان الجديد بصراحة والفوز بالعودة لمنصب الحجابة السابق "وأمكنته من بلده، وأجرى أحوالي كلها على معهودها". ثم نكبة الوشايات وتغير الأحوال: "وكثرت السعاية عنده في، والتحذير من مكاني، وشعرت بذلك، فطلبت الإذن في الانصراف بعهد كان منه في ذلك، فأذن لي بعد لأي". ثم المدهش الالتجاء لعرب البداوة وهم من حفظ لهم الجميل ومدحهم في مقدمته: "وخرجت إلى العرب، ونزلت على يعقوب بن علي". ثم اتهامه بالخيانة مع أخيه واقتحام بيوتهم وتفتيشها: "ثم بدا للسلطان في أمري، وقبض على أخي، واعتقله ببونة. وكبس بيوتنا يظن بها ذخيرة وأمواًلاً، فأخفق ظنه". ثم التشرّد والهرب من جديد: "ثم ارتحلت من أحياء يعقوب بن علي، وقصدت بسكرة؛ لصحابة بيني وبين شيخها أحمد بن يوسف بن مزني".

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، م.ن، ص 96 .

2 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، م.ن، ص 96 .

لقد قرأت هذه التفاصيل وللصدق حرت بين الشفقة على ابن خلدون وبين أن أقول هذا ما جنته يداه، فمن دخل أحابيل السياسة وسعى بدهائه ومكره الى تقريب قلوب السلاطين لنفسه، وقلَّب لسانه عندهم بالتحايل والتملق وصولاً الى المناصب والأموال، عليه ان يتحمل ما تجنيه يداه عند انقلاب الأحوال، لكن الخطورة أن تنطبع كتاباته فيما بعد بالآثار النفسية المدمرة التي لحقت به من جراء الكوارث التي مر بها، وأن يميل في مقدمته لجانب دون جانب تأثراً بعصبيته النفسية وتحامله على المتسببين بما مر به، بل ان الغضب الذي يعتريه والشدة وحب الانتقام من جهة، ثم الخوف والرعب من السجن وملاحقة الوشاة والمؤامرات التي تحاك ضده من جهة أخرى، جعلته يتنوع في كتاباته ويتناقض أحياناً فيما يعرضه من أفكار عن علم الاجتماع وقيام الدول والمجتمعات.

المبحث الثامن

الانتقام ممن أفقده امتيازاته وأخرجه من نعيمه

لم ينسى ابن خلدون فعل السلطان أبو العباس به وعزله من منصبه الذي كان به متنعماً مسروراً. ثم اهانت به واهانة أخيه واعتقاله واقتحام بيتهم وتفتيشه. وهنا تفعل علاقاته واتصالاته الدولية فعلها مرة أخرى ويبدأ بالبحث عن حلفائه وأصدقائه، ويشارك باللعبة السياسية المبنية على المكر والخداع والتملق في سبيل تحقيق مصالحه وغاياته، والرجوع الى وضعه الذي كان عليه. فالأمر ليس سهلاً أن يكون في مستوى معيشي معين وينزل الى وضع أسوأ منه بل الى وضع الإفلاس والدمار. وهذا ما لا يقبله ابن خلدون الذي تربي على الدهاء والفتنة والعبقريّة. وتأبى عليه نفسه أن يكون العوبة بيد السلاطين والحكام والوشاة والماكرين.

وكان في الجانب الآخر سلطان يدعى أبو حمو يراقب من بعيد ما يحدث لابن خلدون والذي كان على معرفة سابقة به نتيجة طبيعة المنصب الذي كان به ابن خلدون - الحجابة - وما يفرضه هذا المنصب من تواصل واتصال مع السلاطين الآخرين، ولكون هذا السلطان من المنافسين لأبي العباس السلطان الجديد على بجاية، وكونه يطمع في احتلالها وبسط نفوذه عليها.

فتلتقي المصالح بينه وبين ابن خلدون: ابن خلدون الذي يرغب بالانتقام، والسلطان الذي يرغب بالاحتلال والتوسع. لكن ابن خلدون يتدارك الأمر بداية فلا يعرف النتائج، لكن الاغراء يلغي تردده. فالسلطان يعرض عليه منصب الحجابة كما كان في السابق بكافة امتيازاته وخيراته، ويتحقق لابن خلدون ما كان يصبو اليه، فيجري اتصالاته ويجد مبتغاه. لكن بشيء من خسران الذات والقيام بأفعال تأباه النفس الأبية المحترمة. لكن ما نفع الاحترام لمن فصله من عمله وأهانته وأخرجه من نعيمه.

وتبدأ فصول المغامرة عندما يعرض عليه الأمير أبو حمو، سلطان تلمسان، أن يوليه الحجابة في قصره على أن يساعده في الاستيلاء على "بجاية" بتأليب القبائل واستمالتها إليه، لما يعلمه من نفوذه وتأثيره، ولكن ابن خلدون يعتذر بداية عن قبول الوظيفة، فثمنها غال وفيها كما أسلفنا خسران للذات وفقدان للثقات ونوع من الخسة والنذالة والخيانة، علماً أنه يحتج لسبب اعتذاره برغبته بالانشغال بالعلم والدراسة. لكن نفسه تأبى عليه أن يضيق الفرص، فيعرض أن يرسل أخاه يحيى بدلاً منه، ويقبل السلطان، ويحدث أن يشارك ابن خلدون هو كذلك بنفسه لتأدية الخدمات والمهمات بحذاقها ويستجيب لمطلب سلطان تلمسان طمعاً في العودة لمنصبه مهما كلفت الأمور، ويقوم بتأدية ما طلبه منه من حشد القبائل بنفسه واستمالتها إليه¹.

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، م، ن، ص 98 - 99، يقول ابن خلدون: (وكان السلطان أبو حمو قد بلغه خروجي من بجاية، وما أحدثه السلطان بعدي في أخي وأهلي ومخلفي، فكتب إلي يستقدمني قبل هذه الواقعة. وكانت الأمور قد اشتبهت، فتفاديت بالأعذار، وأقمت بأحياء يعقوب بن علي، ثم ارتحلت إلى بسكرة، فأقمت بها عند أميرها أحمد بن يوسف بن مزني. فلما وصل السلطان أبو حمو=

لكن مرة أخرى فابن خلدون كان يراقب المنطقة، ويدرس طبيعة الولاءات، ويهمه في النهاية مصالحه الذاتية، وتحقق رغباته بالمناصب والأموال، لكن بشئ من الأمن على نفسه، وبعيدا عن الوقوع بالكوارث. فبعد فترة يرى أن أبا حمو بدأ بالضعف، وأصابه الانهزام في بعض معاركه. ثم رأى من بعيد سلطان جديد يتهدد للانقضاض على المنطقة وتحديدا احتلال تلمسان معقل أبي حمو، وهو السلطان عبد العزيز صاحب المغرب الأقصى. ويفكر ابن خلدون ويقيس ببعد نظره فيرى أن مصلحته تقتضي مغادرة المنطقة، لأن الأمور بدأت تأخذ جانبا من الظلمة وعدم الوضوح ويخاف أن يقع في المحذور فيقضي على نفسه. وهنا يدرك ابن خلدون أن ولاءه لأبي حمو قد يتغير لتغير الظروف وموازن القوى في المنطقة. فابن خلدون كان يبني مصالحه ويقدم خدماته لمن ينفعه أكثر¹. وجواب سؤاله من هو الأقوى والأشد وله الغلبة على من سواه في المنطقة؟ لم يتحدد بعد... وما شرحه في مقدمته هو فعليا يطبقه الآن. فيطلب من سلطانه الحالي أبو حمو الإذن بالمغادرة، فنفسه ومكتوباته تفرض عليه الخروج حالا وسريعا، وهذا ما يظهر في قوله: "وطلبت منه الإذن في الانصراف إلى الأندلس، لتعذر الوجهة إلى بلاد رياح، وقد أظلم الجو بالفتنة، وانقطعت السبل".

حمو إلى تلمسان، وقد جزع للواقعة، أخذ في استئلاف قبائل رياح، ليجلب بهم مع عساكره على أوطان بجاية، وخاطبني في ذلك لقرب عهده باستنابهم، وملك زمامهم، ورأى أن يعول علي في ذلك، واستدعاني لحجابه وعلامته، وكتب بخطه مدرجة في الكتاب نصها: الحمد لله على ما أنعم، والشكر لله على ما وهب، ليعلم الفقيه المكرم أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون، حفظه الله، على أنك تصل إلى مقامنا الكريم، لما اختصاصناك به من الرتبة المنيعة، والمنزلة الرفيعة، وهو قلم خلافتنا، والانتظام في سلك أولياننا، أعلمناكم بذلك... ونص الكتاب الذي هذه مدرجته، وهو بخط الكاتب: أكرمكم الله يا فقيه أبا زيد، ووالى رعايتكم. إنا قد ثبت عندنا، وصح لدينا ما انطويتم عليه من المحبة في مقامنا، والانقطاع إلى جانبنا، والتشيع قديماً وحديثاً لنا... وكانت خطة الحجابة ببابنا العلي أكبر درجات أمثالكم، وأرفع الخطط لنظرانكم، قريباً منا، واختصاصاً بمقامنا، وإطلاعا على خفايا أسرارنا. أثرتناكم بها إثارة، وقدمناكم لها اصطفاً واختياراً... لا يشارككم مشارك في ذلك ولا يزاكم أحد... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.... وكان أخي يحيى قد خلص من اعتقاله ببونة، وقدم علي ببسكرة، فبعثته إلى السلطان أبي حمو كالنائب عني في الوظيفة، متقدياً عن تجشم أهوالها، بما كنت نزعته عن غواية الرتب. وطال علي إغفال العلم، فأعرضت عن الخوض في أحوال الملوك، وبعثت الهمة على المطالعة والتدريس، فوصل إليه الأخ، فاستكفى به في ذلك، ودفعه إليه).

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م، ن، ص 118 - 121، حيث يقول في هذا الشأن: (ثم إن السلطان أبا حمو لم يزل معتملاً في الاجلاب على بجاية. واستئلاف قبائل رياح لذلك. ومعولاً على مشايعتي فيه... وكان يوفد رسله في كل وقت، ويمرون بي، وأنا ببسكرة، فأؤكد الوصلة بمخاطبة كل منهما... فخرج في عساكره في منتصف تسع وستين إلى حصين وأبي زيان، واعتصموا بجبل تيطري، وبعث إلي في استنفار الدواودة للأخذ بحجزتهم من جهة الصحراء، وكتب يستدعي أشياخهم... وكتب إلي ابن مزني فعيدة وطنهم بإمدادهم في ذلك، فأمدهم، وسرنا مغربين إليه، حتى نزلنا القطفا قبله تيطري... واجتمعوا مع أبي زيان وحصين، وهجموا على معسكر السلطان أبي حمو ففلوه ورجع منهزماً إلى تلمسان. ولم يزل من بعد ذلك على الكثرة على بجاية عاماً فعاماً، وأنا على حال في مشايعته، وإيلاف ما بينه وبين الدواودة... وبينما نحن في ذلك، بلغ الخبر بأن السلطان عبد العزيز صاحب المغرب الأقصى من بني مرين، قد استولى على جبل عامر بن محمد الهنتاتي بمراكش... وإنه عازم على النهوض إلى تلمسان... ولحين وصول هذا الخبر، أضرب السلطان أبو حمو عن ذلك الشأن الذي كان فيه، وكر راجعاً إلى تلمسان. وأخذ في أسباب الخروج إلى الصحراء... وطلبت منه الإذن في الانصراف إلى الأندلس، لتعذر الوجهة إلى بلاد رياح، وقد أظلم الجو بالفتنة، وانقطعت السبل).

لكنه في الحقيقة كان يميل ويدرك جزئياً، ويشعور داخلي من السلطان القادم والذي سينتصر، وبعد ذلك أصبح فعلياً يحدد بطريقة غير مباشرة لمن أصبح ميزان القوة في المنطقة، وهو يتطلع الى السلطان عبد العزيز ليكون فريسته القادمة في تحصيل منافعه والنظر الى المناصب والمال. وتنجح خطته نوعاً ما عندما يجيبه السلطان أبو حمو الى مطلبه، لكن بشئ من الحيلة والدهاء والذكاء.

فيشترط عليه أبو حمو لخروجه حمل رسالة شفوية للسلطان ابن الأحمر، فيوافق ابن خلدون على ذلك ويقبل بحمل الرسالة لتكون وسيلته للمغادرة. مع أن هذه الرسالة ستكون نكسة ونكبة هي الأخرى على رأسه من حيث لا يعلم. فمهما بلغ من الذكاء والحيلة كانت تعصف به الأقدار من حيث لا يدري، فقد لاحظت أن ابن خلدون كاد يُقضى عليه ويعود الى السجن فترة طويلة بسبب حمله لرسالة السلطان الشفوية الى ابن الأحمر، وهي مخاطرة لم يحسب لها أي حساب سوى ما قد تفيد تلك الخدمة في تقوية علاقته مع السلطان أبي حمو وتتقم له ممن آذوه فضلاً أنها تساهم في بقاء أخيه في وظيفة محترمة عند السلطان، وهذا ما يفصح عنه بقوله: "...فأذن لي، وحملني رسالة فيما بينه وبين السلطان ابن الأحمر... وتعذر علي ركوب البحر من هنين فأقصرت، وتآدى الخبر إلى السلطان عبد العزيز بأني مقيم بهنين، وإن معي وديعة احتملتها إلى صاحب بالأندلس، تخيل ذلك بعض الغواة فكتب إلى السلطان عبد العزيز، فأنفذ من وقته سرية من تازا تعترضني لاسترجاع تلك الوديعة، واستمر هو إلى تلمسان، ووافقتي السرية بهنين وكشفوا الخبر فلم يبقوا على صحته، وحملوني إلى السلطان، فلقيناه قريباً من تلمسان، واستكشفني عن ذلك الخبر، فأعلمته بيقينه، وعنفني على مفارقة دارهم، فاعتذرت له... وشهد لي كبير مجلسه... وسألني في ذلك المجلس عن أمر بجاية، وأفهمني أنه يروم تملكها، فهونت عليه السبيل إلى ذلك، فسر به، وأقمت تلك الليلة في الاعتقال. ثم أطلقني من الغد، فعمدت إلى رباط الشيخ الولي أبي مدين، ونزلت بجواره مؤثراً للتخلي والانقطاع للعلم لو تركت له"¹.

لقد كانت العيون ترقب ابن خلدون منذ لحظة مغادرته، ويبدو أن الأحقاد عليه لا تنتهي، فيلجأ بعض الوشاة والغواة على رأيه الى الكتابة للسلطان عبد العزيز بما سيقوم به ابن خلدون ضده وتوصيله لهذه الرسالة. وهذا في قوله: "...تخيل ذلك بعض الغواة فكتب إلى السلطان عبد العزيز". ولولا اعترافاته المقنعة وحيلته الذكية وشهادة الشهود في حقه لقام السلطان عبد العزيز بحبسه فترة طويلة واهانته أيما اهانة. ثم لولا شرحه المفصل وتسهيله لأمر أطماع واحتلال السلطان عبد العزيز لمدينة بجاية لحصل معه مالم يكن بالحسبان. وهذا في قوله: "وسألني في ذلك المجلس عن أمر بجاية، وأفهمني أنه يروم تملكها، فهونت عليه السبيل إلى ذلك، فسر به".

وطبيعة ابن خلدون تظهر هنا بعدم اهتمامه لأي سلطان عقد معه اتفاق مسبقاً أو عهداً مثل أبو حمو في أن يتخلى عن ولائه له عند أول صعوبة أو يبيعه لأقرب منافس وذلك في سبيل تخلصه من الأذى

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، م.ن، ص 118 - 121 .

أو النكبة التي قد تلحق به، أو في سبيل الحصول على منصب أو مال أو أي اغراء. فهو يراقب ميزان القوى ويرى أنها بدأت ترجح كفتها للسلطان عبد العزيز فما المانع في تبديل الولاءات والبدء بالتعامل مع هذا السلطان الجديد. لكنه مع ذلك تم سجنه تلك الليلة، وما أن أطلق سراحه حتى ذهب الى رباط الشيخ الولي ابي مدين وقال أنه انقطع للعلم هناك. ولي أن أتصور الحالة النفسية التي مر بها ابن خلدون نتيجة هذه الصدمة والسجن والتحقيق معه بسبب الرسالة، ودرجة الخوف والرعب التي حاقت به وكانت ضمن التتابع لمسلسل النكبات التي كانت تلازمه.

لكن...وللمفاجأة أن انعزاله في رباط الشيخ الولي أبي مدين للعلم والتدريس كان أمرا غير دقيق ومتواصل، فابن خلدون لا يترك عاداته في الانكباب على السياسة وخدمة الحكام، بل ان نفسه تضعف تماما أمام شهوة الحكم والمال والمناصب، وهذا ما اعترف به بنفسه عندما قال: "...ولما دخل السلطان عبد العزيز تلمسان، واستولى عليها، وبلغ خبره إلى أبي حمو وهو بالبطحاء، فأجفل من هنالك، وخرج في قومه وشيعته من بني عامر... ثم أعمل السلطان نظره "يقصد السلطان عبد العزيز" ورأى أن يقدمني أمامه إلى بلاد رياح لأوطد أمره، وأحملهم على مناصرتي، وشفاء نفسه من عدوه بما كان السلطان أنس مني من استتباع رياح، وتصريفهم فيما أريده من مذاهب الطاعة فاستدعاني من خلوتي بالعتاد عند رباط الولي أبي مدين. وأنا قد أخذت في تدريس العلم، واعتزمت على الانقطاع، فأنسني، وقربني، ودعاني إلى ما ذهب إليه من ذلك فلم يسعني إلا إجابته. وخلص علي، وحملني، وكتب إلى شيوخ الدواودة بامتنال ما ألقب إليهم من أوامره وبمساعدي على ذلك، وأن يحاولوا على استخلاص أبي حمو من بين أحياء بني عامر، ويحولوه إلى حي يعقوب بن علي، فودعته وانصرف في عاشوراء اثنين وسبعين، فلحقت الوزير في عساكره وأحياء العرب من المعقل وزغبة على البطحاء. ولقيته، ودفعت إليه كتاب السلطان، وتقدمت أمامه"¹.

الطامة الكبرى هنا أن ابن خلدون والذي كان يقدم آيات الطاعة والولاء للسلطان أبي حمو سابقا وذلك طمعا في منصب الحجابة لديه يبيعه عند أول انزلاق وضعف يحصل معه. وهذه حقيقة فالسلطان عبد العزيز بمجرد دخوله تلمسان، وظهور ضعف السلطان ابي حمو، انقلب ابن خلدون فجأة على ابي حمو، وصار من أولياء خصمه السلطان عبد العزيز، وبكلمات من المدح والوعد بالمناصب والمال والاغراء يقبل ابن خلدون ما يعرض عليه السلطان عبد العزيز ويستعد لخدمته: "فأنسني، وقربني، ودعاني إلى ما ذهب إليه من ذلك فلم يسعني إلا إجابته. وخلص علي، وحملني، وكتب إلى شيوخ الدواودة بامتنال ما ألقب إليهم من أوامره وبمساعدي على ذلك". ولعل اقرب وصف يمكن أن أصف به ابن خلدون هنا هو: فقدان المبدأ والميل السياسي مع أي قوي، والتلون والتبدل، بل النفاق السياسي بكل معانيه وعناوينه. فكيف لهذا المؤرخ والمدرس أن يقبل على نفسه فعل هذه الأمور؟ وهل الخوف

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م.ن. ص 121 - 122 .

والرعب هما الدافع أم الطمع والرغبة بالمناصب هما دافعه لما فعل؟ وهذا ما يجعلني أضع العديد من الملاحظات على كتابته لمقدمته. ومرة أخرى أقول هل حقيقة كتبت لعامة الخلق والباحثين، أم كتبت لسلطان معين ليرضي غروره وتطلعاته، أم وضعت لتحقيق أهداف استراتيجية بعيدة المدى.

ويصف ابن خلدون بأريحية تامة دمار من كان يعتبره سلطانه العزيز ابو حمو دون أن تنزل له دمعة أو يتحرك له جفن فيقول: "...وإذا بهوادي الخيل طالعة من الثنية، وعساكر بني مرين والمقل وزغبة متتالية أمام الوزير أبي بكر بن غازي، قد دل بهم الطريق وفد أولاد سباع الذين بعثتهم من المسيلة، فلما أشرفوا على المخيم، أغاروا عليه مع غروب الشمس، فأجفل بنو عامر، وانتهب مخيم السلطان أبي حمو ورحائله وأمواله، ونجا بنفسه تحت الليل، وتمزق شمل ولده وحرمه، حتى خلصوا إليه بعد أيام، واجتمعوا بقصور مصاب من بلاد الصحراء وامتألت أيدي العساكر والعرب من نهابهم)¹. هكذا انتهى أبو حمو على رأي ابن خلدون وبكل بساطة حيث انتهب مخيم السلطان أبي حمو ورحائله وأمواله، بل تمزق شمل ولده وحرمه .

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م.ن، ص 123 .

الذكاء والدهاء لا يخدمان صاحبهما في كثير من الأحيان بل تستمر نكباته

على الرغم من تقديم ابن خلدون لخدماته الكاملة للسلطان عبد العزيز، إلا أن الوشايات تظل في ملاحقته أينما ذهب وحل. ويبدو أنه كان يعاني من كراهة من يجاوره لسبب هو لم يذكره أو يتعرض له، وتقديره أن رغبة السلاطين في تقريبه من مجالسهم لدهائه ولسانه المحنك جعل القريب والبعيد لا يطبق مجالسته لما رأوا من وصوليته لقلوب الحكام وقدرته على خداعهم أحيانا. ونتيجة لذلك فقد بدأت الوشايات تصل للسلطان عبد العزيز ضد ابن خلدون. ويتغير قلبه من جهته فيستدعيه، ويحمل ابن خلدون أسرته ويخرج بها مرتحلا نحو مدينة فاس في المغرب، وقبل أن يصل تأتيه الأخبار بوفاة السلطان عبد العزيز وتولي ابنه مكانه. لكنه وبعد وصوله مدينة فاس يترك أسرته هناك، بعد أن دبر لها مقاما، ويستمر في مرافقة أتباع السلطان الجديد ومنهم علي بن حسون أحد قادة جيشه للوصول إلى بلاد المغرب. وهذا دليل على سعي ابن خلدون الحثيث نحو المناصب وعدم تركها حتى بعد رحيل السلطان الأب وتولي الابن مكانه¹.

لكن المصائب تأتي أن تفارقه، ومن تخلى عنه ابن خلدون بالأمس جاءت الفرصة ليدفع له الثمن غاليا، فالسلطان أبو حمو لما سمع بموت السلطان عبد العزيز خرج من مخبئه الذي هرب إليه لاسترجاع تلمسان، ويصله كذلك خبر ابن خلدون ومرافقته لعساكر ابن السلطان الفقيه في الطريق، فيجهز نفسه ويرسل من يهاجمهم. ويدفع ابن خلدون الثمن غاليا مرة أخرى على أفعاله السابقة. حيث يصف حاله وما آل إليه بالقول: "...وكان أبو حمو قد رجع بعد مهلك السلطان من مكان انتبازه بالفقر في تيكورارين إلى تلمسان، فاستولى عليها وعلى سائر أعماله، فأوعز إلى بني يغمور من شيوخ عبيد الله من المعقل أن يعترضونا بحدود بلادهم من رأس العين مخرج وادي زا فاعترضونا هنالك، فنجا من نجا منا على خيولهم إلى جبل دبدو، وانتهبوا جميع ما كان معنا، وأرجلوا الكثير من الفرسان وكنت

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م، ن، ص 179 - 181. يقول ابن خلدون: (ولما كنت في الاعتمال في مشايعة السلطان عبد العزيز ملك المغرب... وأنا مقيم ببسكرة في جوار صاحبها أحمد بن يوسف بن مزني، وهو صاحب زمام رباح... فلم أشعر إلا وقد حدثت المنافسة منه في استتباع العرب، ووغر صدره، وصدق في ظنونه وتوهماته، وطاوع الوشاة فيما يوردون على سمعه من النقول والاختلاق، وجاش صدره بذلك، فكتب إلى "ونزمار بن عريف"، ولي السلطان، وصاحب شواره... فأنهاه إلى السلطان، فاستدعاني لوقته، وارتحلت من بسكرة بالأهل والولد، في يوم المولد الكريم، سنة أربع وسبعين، متوجهاً إلى السلطان، وقد كان طرده المرض، فما هو إلا أن وصلت مليانة من أعمال المغرب الأوسط، فلقيني هنالك خبر وفاته، وأن ابنه أبا بكر السعيد نصب بعده للأمر... وأنه ارتحل إلى المغرب الأقصى مغذاً السير إلى فاس، فارتحلت معه إلى أحياء العطاف، ونزلنا على أولاد يعقوب بن موسى من أمرائهم، ثم لحق بنا بعد أيام، علي بن حسون في عساكره، وارتحلنا جميعاً إلى المغرب على طريق الصحراء).

فيهم، وبقيت يومين في قفره، ضاحياً عارياً إلى أن خلصت إلى العمران، ولحقت بأصحابي بجبل دبدو، ووقع في خلال من الألفاف ما لا يعبر عنه، ولا يسع الوفاء بشكره¹.

وهذه نكبة جديدة على ابن خلدون أثرت عليه تأثيراً كبيراً، فيومين من التشرد في الصحراء عارياً وبدون ركوبة بعد أن نهبت خيولهم وساروا مشياً على أقدامهم في شمس هذه الصحراء. ولي أن أتصور الوضع النفسي الصعب الذي كان يعانيه ابن خلدون، وهو شيخ كبير، بهذه الصحراء القاحلة والشمس الملتهبة والعطش وآلام الأقدام نتيجة المشي، ولولا بعض المساعدات من القبائل من هنا وهناك لهلكوا - وأقصد هنا قبائل الصحراء وهم غالباً أهل البداوة، وهم من كانوا ينقذوه كما قلت سابقاً في الملمات، وهو أحد الأسباب الرئيسية لمدح ابن خلدون لأهل البداوة في مقدمته - وهو مفهوم قوله: "وقع في خلال من الألفاف ما لا يعبر عنه، ولا يسع الوفاء بشكره".

ثم يغير ابن خلدون مسيره إلى فاس ويصل إليها وإلى عياله هناك. ويبدأ باستغلال معارفه وصلاته السابقة. حيث لم يطق أن يبقى بلا وظيفة تعيد له بعض ما فقد من نعيم وامتيازات. فيعود للاتصال مع ما تبقى من حلفائه وأصدقائه لعله يجد ما يعيد له وضعه. وينجح بالعثور على مبتغاه وذلك عندما يقول: "...ثم سرنا إلى فاس، ووفدت على الوزير أبي بكر، وابن عمه محمد بن عثمان بفاس، وكان لي معه قديم صحبة واختصاص، فلقيني من بر الوزير وكرامته، وتوفير جرايته وإقطاعه، فوق ما أحتسب، وأقمت بمكاني من دولتهم أثير المحل، نابه الرتبة، عريض الجاه، منوه المجلس"².

وفي ظل مقام ابن خلدون في هذه البلد، فقد عصفت من حوله في بلاد المغرب خلافت وحروب وانقلابات لم يحاول ابن خلدون في خلالها التدخل أو الميل لطرف دون طرف بل بقي منزوباً على علمه ودراسته كما يقول. لكن بعين رقيقة وحس منتبه حتى يعرف لمن ستكون الكفة الراجحة فيخطو خطواته القادمة ليعود إلى ما كان عليه من بحث عن المناصب وتبوء لأعلى المراتب. فهذا ديدنه ومن كان هذا في دمه فلن يتركه. وهذا ما حصل فعلاً فقد صفت الأمور في نهايتها وبعد عواصف متلاحقة إلى السلطان أبي العباس والأمير عبد الرحمن. وهنا تتضح الرؤيا لابن خلدون فيبدأ بخطواته ولنسمع ما يقول: "وأما أنا فكانت مقيماً بفاس، في ظل الدولة وعنايتها، منذ ندمت على الوزير سنة أربع وسبعين كما مر، عاكفاً على قراءة العلم وتدريسه، فلما جاء السلطان أبو العباس، والأمير عبد الرحمن، وعسكروا بكدية العرائس، وخرج أهل الدولة إليهم، من الفقهاء والكتاب والجند، وأذن للناس جميعاً في مباركة أبواب السلطانين من غير نكير في ذلك، فكانت أباكرهما معاً"³.

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، م.ن، ص 180 - 181 .

2 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، م.ن، ص 181 .

3 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، م.ن، ص 185 .

لكن ابن خلدون كعادته لا يُبقي لنفسه صاحباً، بل يجبر الآخرين على معاداته والوشاية به. فمصلحته هي في المرتبة الأولى. وتفصيل ذلك أنه كان قبل مقدم الأمير عبد الرحمن ينادم ويجلس في مجلس الوزير محمد بن عثمان وكان يحترمه هذا الوزير ويكثر من دعوته الى مجلسه، فلما أن جاء الأمير الجديد عبد الرحمن، ورأى ابن خلدون أن مصلحته تقتضي منادمة هذا الأمير الجديد والتقرب اليه - فهو مع السلطان من أصحاب الفخامات وبأيديهم المناصب والنعيم كله - لذلك بدأ ابن خلدون في مجالسة هذا الأمير والتتكر لمن كان صاحبه بالأمس الوزير محمد بن عثمان، وأدى ذلك الى انبهار الأمير بذكاء ابن خلدون - وأقصد دهاء ووصولية ابن خلدون - فيطلب من ابن خلدون ملازمته، مما يتسبب بتغيير صدر الوزير محمد بن عثمان عليه، فيدس التهم ضده عند السلطان أبي العباس. ويُصدر السلطان أمراً باعتقال ابن خلدون. ويُسجن ابن خلدون مرة أخرى. لكن عند علم الأمير عبد الرحمن بهذه القضية وأن سجن ابن خلدون ما كان الا بسببه، يتدخل ويطلق سراحه بعد مواجهة كادت تصل للحرب والقطيعة.

وهذه فضيحة أخرى يعمد اليها ابن خلدون في سبيل تحقيق مآربه ومصالحه من غير اهتمام لمشاعر الآخرين، لكن دهاؤه ينقلب عليه ولا ينال منه الا الخسران مرة أخرى، وهذا باعتراف لسانه حيث يكشف ما وضحته سابقاً فيقول: "وكان بيني وبين الوزير محمد بن عثمان ما مر ذكره قبل هذا، فكان يظهر لي رعاية ذلك، ويكثر من المواعيد، وكان الأمير عبد الرحمن يميل إلي ويستدعيني أكثر أوقاته يشاورني في أحواله، فغص بذلك الوزير محمد بن عثمان، وأغرى سلطانه فقبض علي، وسمع الأمير عبد الرحمن بذلك، وعلم أنني إنما أوتيت من جراه، فحلف ليقوضن خيامه، وبعث وزيره مسعود بن ماساي لذلك، فأطلقوني من الغد، ثم كان افتراقهما لثالثه، ودخل السلطان أبو العباس دار الملك، وسار الأمير عبد الرحمن إلى مراكش"¹.

في الحقيقة أنا ألاحظ مما سبق أن ابن خلدون سبب قطيعة بين السلطان والأمير، بل زرع التنافر والعداوة والبغضاء بينهما وجعل كل واحد منهما يذهب الى جهة، وإذا قسنا باقي الوشائيات وسائر العداوات ضد ابن خلدون على سبب نهجه هذا في التعامل مع الأمراء والسلطين، فأجزم أن ابن خلدون كان يستحق أحياناً ما يوشى به بسبب طبعه المتكبر وعدم احترامه للعهود.

ثم ان ابن خلدون لا يطبق ما يفعله أو يوشى به، أو قل عداوة رجال الدولة له بسبب أفعاله الغير لائقة. فيصاب بالخوف والرعب من البقاء في فاس. وهو ما يعبر عنه بكلمة "مستوحشا"، فينوي الارتحال الى الأندلس مع الأمير عبد الرحمن. ويبدو أن الأمير ينوي السفر عبر الساحل المسمى "أسفي". وهذا الساحل يسيطر عليه السلطان أبو العباس، ولا تكفي صحبة الأمير لاجتيازه فلا بد له من واسطة عند السلطان حتى يسمح له بذلك. وهذا دليل على أن الأمير لم يكن راغباً في بذل أي مجهود

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، م.ن، ص 185 .

آخر لانقاذ ابن خلدون مما يكاد له، فهل سبب ذلك أنه مله وضجر منه؟ أو أن القطيعة قد وصلت لحدود مخيفة فلم يعد الأمير يرغب بزيادة الطين بلة لعيون ابن خلدون. وفي نظري هو تحقير من الأمير عبد الرحمن لابن خلدون. ولهذا يلجأ ابن خلدون متذللًا لواسطتين، الأولى الوزير مسعود بن ماساي، وتفشل بسبب رجوعه وعدم رغبته بمتابعة السفر. والثاني ونزار بن عريف. فيتدخل هذا الثاني عند السلطان ويسمح له بالمرور بصعوبة شديدة وبعد تفكير مطول سماه ابن خلدون: "فأذن لي بعد مطاولة" رغم شدة عداوة الوزير محمد بن عثمان له بسبب أفعاله.

يقول ابن خلدون معترفًا بهذه القصة: "وكنيت أنا يومئذ مستوحشاً، فصحبت الأمير عبد الرحمن معتزماً على الإجازة إلى الأندلس من ساحل أسفي، معولاً في ذلك على صحابة الوزير مسعود بن ماساي لهواي فيه، فلما رجع مسعود انتنى عزمي في ذلك، ولحقنا بونزار بن عريف بمكانه من نواحي كرسيف لنقدمه وسيلة إلى السلطان أبي العباس، صاحب فاس في الجواز إلى الأندلس، ووافينا عنده داعي السلطان فصحبناه إلى فاس، واستأذنه في شأني، فأذن لي بعد مطاولة، وعلى كره من الوزير محمد بن عثمان، وسليمان بن داود بن أعراب، ورجال الدولة"¹.

ومرة ثانية أتحير بين الإشفاق على ابن خلدون، أو القول هذا ما جنته يداه. فهلعه على المناصب، وعدم اهتمامه بمن عاهدتهم أو التزم معهم في اتفاق، يقوده إلى النكبات والمصائب والتذلل للوزراء وقادة الجيش حتى يبتعد عن البلدان التي زرعها عداوة وبغضاء ضده. ولي كذلك أن أخمن درجة الحقد والكراهية النفسية والثورة الوجدانية الداخلية التي كان يعاني منها ابن خلدون بسبب تتابع هذه النكبات والمصائب معه، وكيف أثرت في بناء مقدمته القائمة على العصبية والحرب ومعادات العرب وأهل الحضر وتمترسه خلف البداوة، لما يكون قد لقيه منهم من تكريم وانقاذ لمَّا نُهب في سفره وتعرا بفعل اللصوص والعساكر، فأنقذوه وألبسوه وأكرموا، فكان يتوسم فيهم الخير والولاء.

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، م.ن، ص 185 .

رحلة الخوف والرعب ودفع الثمن

وفي رحلة ابن خلدون الى الاندلس، تبدأ كوارث الرعب والخوف والمآسي تلاحقه، فأفعاله القديمة لم يغفل عنها أحد: وتكون البداية عندما وصل إلى الأندلس من جديد، ونزل في ضيافة سلطانها ابن الأحمر والذي أكرم وفادته. لكن الشوق الى عائلته الموجودة في فاس جعله لا يعرف النوم أو الهناء بطعام، فيلتقي بكتاب السلطان ابن الأحمر في جبل الفتح أثناء سفره، حيث كان متوجها الى فاس ويرجوه أن يجيز عائلته الى غرناطة وان يؤمن طريقهم. فمن الممكن أن ابن خلدون كان يخطط للقائهم هناك. لكن المفاجأة أن رجال الدولة في فاس وقفوا ضد ابن خلدون ورفضوا مغادرة عياله من تلك البلد نكاية به. بل أرسلوا الى السلطان ابن الأحمر أن ابن خلدون خطير في لسانه ومكره ودهائه، فخافوا منه أن يحول ولاء ابن الأحمر الى الأمير عبد الرحمن بدلا من السلطان ابي العباس، بعد أن عُرف عن ابن خلدون تخريب علاقة الأمير عبد الرحمن بالسلطان أبي العباس، وطلبوا منه أن يعيده اليهم. لكن ابن الأحمر رفض تسليم ضيفه ابن خلدون أو ايدائه¹.

وتستمر النكبات، فيستغل رجال الدولة في فاس بعض اتصالات ابن خلدون القديمة مع المخالفين لهم ويوقعوا بحيلة خبيثة بين ابن الأحمر وابن خلدون، بعد أن كشفوا له شبه مؤامرة كان يخطط لها ابن خلدون لتغيير الحكم والانقلاب على السلطان. فيتصلوا بابن الأحمر عن طريق مبعوث لهم يسمى مسعود بن ماساي. وينقل هذا الأخير لابن الأحمر تفاصيل المؤامرة مع من يُدعى ابن الخطيب المسجون عندهم، ويقنع ابن الأحمر بذلك ويتغير على ابن خلدون فتقع النكسة مرة أخرى على رأس ابن خلدون. ويطلبوا من ابن الأحمر أن يرسل ابن خلدون الى حتفه، والمتمثل في ارساله الى تلمسان والتي يحكمها أبو حمو وهو من غدر به ابن خلدون سابقا².

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م، ن، ص 186. يقول ابن خلدون: (...وأجرت إلى الأندلس في ربيع سنة ست وسبعين، ولقيني السلطان بالبر والكرامة وحسن النزل على عادته، وكنت لقيت بجبل الفتح كاتب السلطان ابن الأحمر، من بعد ابن الخطيب، الفقيه أبا عبد الله بن زمرك، ذاهبا إلى فاس في غرض التهئة، وأجاز إلى سبتة في أسطوله، وأوصيته بإجازة أهلي وولدي إلى غرناطة، فلما وصل إلى فاس، وتحدث مع أهل الدولة في إجازتهم، تنكروا لذلك، وساءهم استقراره بالاندلس، واتهموا أنني ربما أحمل السلطان ابن الأحمر على الميل إلى الأمير عبد الرحمن، الذي اتهموني بملايسته، ومنعوا أهلي من اللحاق بي. وخاطبوا السلطان ابن الأحمر في أن يرجعني إليهم، فأبي من ذلك).

2 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م، ن، ص 187. يقول ابن خلدون في ذلك: (...فطلبوا منه أن يجيزني إلى عدوة تلمسان، وكان مسعود بن ماساي قد أذنوا له في اللحاق بالاندلس، فحملوه على مشافهة السلطان بذلك، وأبدوا له أنني كنت ساعيا في خلاص ابن الخطيب، وكانوا قد اعتقلوه لأول استيلائهم على البلد الجديد وظفرهم به. وبعث إلي ابن الخطيب من محبسه مسترخيا بي، ومتوسلا. فخاطبت في شأنه أهل الدولة، وعولت فيه منهم على ونزار، وابن ماساي، فلم تنجح تلك السعاية، وقتل ابن الخطيب بمحبسه، فلما قدم ابن ماساي على السلطان ابن الأحمر - وقد أغروه بي - فألقى إلى السلطان ما كان مني في شأن ابن الخطيب، فاستوحش لذلك).

ويستمر مسلسل الخوف والرعب مع ابن خلدون، فيقوم ابن الأحمر بترحيل ابن خلدون الى تلمسان وتحديدًا الى من غدر به سابقاً أبي حمو. وهناك يدخل ابن خلدون أطراف تلمسان وتحديدًا مدينة "هنين"، فيصل خبره الى أبي حمو ويفرض عليه الإقامة الجبرية في تلك المدينة ولا يغادرها. ويلجأ ابن خلدون الى عاداته القديمة فيدخل واسطة بينه وبين أبي حمو، فيأذن له هذا السلطان بالدخول الى تلمسان. ثم يستجلب عياله من فاس، ويحاول ابن خلدون الانصراف للعلم، لكن السلطان أبو حمو لا يكف عنه. فيطلب منه أداء خدمة له كان يؤديها سابقاً عندما كان في خدمته، وتحت الخوف والرعب يقبل ابن خلدون مع أنه غير راغب بذلك، ويخرج الى مهمته في الصحراء، لكنه في الطريق يغير وجهته الى منطقة منداس، مخالفاً بذلك أوامر السلطان، وليكون مستقره في النهاية عند أولاد عريف، والذين بدورهم يكرمونه وينقلوه الى قلعة ابن سلامة، والتي فيها يبدأ حياة جديدة وولادة مقدمته من وسط المعاناة.

وبالواسطة كذلك يستجلبوا عياله من تلمسان بعد أن أقنعوا السلطان أبي حمو باعتذار ابن خلدون عن مهمته حتى سمح بمغادرة عياله من تلمسان ليتوجهوا اليه في قلعة ابن سلامة، ويقضي ابن خلدون مع أهلهم في ذلك المكان القصي النائي نحو أربعة أعوام. نعم خلالها بالهدوء والاستقرار. حيث ولدت هناك مقدمته وتمكن من تصنيف كتابه المعروف "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، والذي صدره بمقدمته الشهيرة التي تناولت شئون الاجتماع الإنساني وقوانينه، وقد فرغ ابن خلدون من تأليفه بعد أن نصبت خبراته، واتسعت معارفه ومشاهداته¹.

وفي قلعة ابن سلامة يعترف ابن خلدون عندما يقول: "...وشرعت في تأليف هذا الكتاب، وأنا مقيم بها، وأكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب، الذي اهتمت إليه في تلك الخلوة، فسالت فيها شأبيب

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، م، ن، ص 187 - 188. يقول ابن خلدون في ذلك: (...فاستوحش لذلك، وأسعفهم بإجازتي إلى العدو، ونزلت بهنين، والجو بيني وبين السلطان أبي حمو مظلم، بما كان مني في إجلاء العرب عليه بالزأب كما مر. فأوعز بمقامي بهنين، ثم وفد عليه محمد بن عريف فعزله في شأني فبعث عني إلى تلمسان، واستقررت بها بالعباد. ولحق بي أهلي وولدي من فاس، وأقاموا معي، وذلك في عيد الفطر سنة ست وسبعين، وأخذت في بث العلم، وعرض للسلطان أبي حمو أثناء ذلك رأي في الدواودة، وحاجة إلى استئلافهم، فاستدعاني، وكلفني السفارة إليهم في هذا الغرض، فاستوحشت منه، ونكرته على نفسي، لما أثرته من التخلي والانقطاع، وأجبتة إلى ذلك ظاهراً، وخرجت مسافراً من تلمسان حتى انتهيت إلى البطحاء، فعدلت ذات اليمين إلى منداس، ولحقت بأحياء أولاد عريف قبلة جبل كزول، فتلقوني بالتحفي والكرامة، وأقمت بينهم أياماً حتى بعثوا عن أهلي وولدي من تلمسان، وأحسنوا العذر إلى السلطان عني في العجز عن قضاء خدمته، وأنزلوني بأهلي في قلعة ابن سلامة، فأقمت بها أربعة أعوام، متخلياً عن الشواغل كلها، وشرعت في تأليف هذا الكتاب، وأنا مقيم بها، وأكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب، الذي اهتمت إليه في تلك الخلوة، فسالت فيها شأبيب الكلام والمعاني على الفكر، حتى امتحضت زبدتها، وتألفت نتائجها).

الكلام والمعاني على الفكر، حتى امتخضت زبدتها، وتألّفت نتائجها"، وألاحظ من كلامه هذا أن تفاصيل مقدمته لم تكن بتخطيط مسبق منه أو حتى عن اهتمام لازمه منذ زمن، لكنها ولدت بعد حلول اليأس والإحباط من مزاولة السياسة لما حصل له جراءها. إضافة لبحثه عن فترة هدوء واستقرار ينصرف فيها لشؤونه. والأهم من ذلك نيته المسبقة أن يكتب عن تجاربه وأحاسيسه ومشاعره، ويضخّ ما لقيه في حياته من معاناة ومآسي ونكبات على شكل أفكار وتحليلات يصرح بها في جزء من مؤلفاته، ويعممها في جزء آخر ليجعلها نظاماً فطرياً عاماً لشعوب الأرض عامة والمغرب والعرب والجزيرة العربية خاصة، بدوها وحضرها، ودولها وأمصارها؛ حتى لا يوسم بأن ما كتبه هو تجارب شخصية لا ترقى لأن تكون منهج اجتماعي عام لشعوب الأرض، أو خوفاً من ملاحقة أصحاب النفوذ والقوة والسلطان له في ذلك الوقت ان هو صرح عن تجاربه معهم وحقيقة ما حصل مع شعوبهم فذكر ذلك بصيغة عامة لا يمكن للقارئ أن يجعلها خاصة بسلطان معين أو شعب محدد.

لكن الأخطر من ذلك أنه كتبها وهو يعاني ويتألم. فقد كان مجروحاً من بلاد المغرب العربي وتلمسان وما صنعت به تلك البلاد من مآسي ونكبات وجروح لا تتدمل. ومن المؤكد أنها أثرت على مقدمته وكتابته وما حوته من أفكار بطريقة تعالج تلك الأحاسيس والمشاعر المظلمة. وهذا الكلام يصرح به بنفسه في عبارته: "ولما نزلت بقلعة ابن سلامة بين أحياء أولاد عريف، وسكنت منها بقصر أبي بكر بن عريف الذي اختطه بها، وكان من أحفل المساكن وأوثقها، ثم طال مقامي هنالك، وأنا مستوحش من دولة المغرب وتلمسان، وعاكف على تأليف هذا الكتاب، وقد فرغت من مقدمته إلى أخبار العرب والبربر وزناته..."¹. فباعترافه السابق أنه كتب هذه المقدمة والتي شكلت في بعض جوانبها سجل تجارب الحياة الشخصية له بآلامها ونكباتها، في ظل حالة العصبية والقهر التي مر بها، وفي مدة لم تتعدى الخمسة أشهر فقط. وهذا باعتراف كذلك عندما قال: "انتمت هذا الجزء الاول، المشتل على المقدمة بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتهذيب في مدة خمسة أشهر اخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبع مائة ثم نقحته بعد ذلك وهذبتة والحقت به تواريخ الامم كما ذكرت في اوله"². وفي الحقيقة فان ذلك يبعث على الكثير من الشك في دقة ومصدرية المعلومات التي أوردها في مقدمته، وذلك الكم الهائل منها، والقائمة على التحليل والتفصيل. مع معرفتنا لنوعية أقلام الحبر المستخدمة وهي الريشة المغموسة في المحبرة، وهذا يحمل في طياته البطئ الشديد عند الكتابة، وبالكاد يكتب

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م.ن، ص 188.

2 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.س، ص 782.

صفحات عديدة بهذه النوعية من التحليل. ومدة الخمسة أشهر قليلة فعليا لهذا العمل. ولكون هذه القضية ليست موضوع بحثي فاني أتوقف فيها.

المبحث الحادي عشر

الشوق لمسقط الرأس

لقد سئم ابن خلدون ما مر به من نكبات وأحوال صعبة ومآسي متلاحقة، وكان لفترة الانعزال والهدوء التي مر بها عبر السنوات الأربع في قلعة ابن سلامة أثر بارز في إعادة صياغة وضعه النفسي، وخصوصا بعد أن فرغ ما في جعبته من هموم وأفكار وتحليلات في مقدمته الشهيرة. يقول المحلل ساطع الحصري في أثر الوضع النفسي لابن خلدون على مقدمته: "...إنه كتب المقدمة سنة 1377م-779هـ، بعد أن وصل إلى منتصف العقد الخامس من العمر، وبعد أن شهد كثيرا من الانقلابات السياسية، واشترك اشتراكا فعليا في عدد غير قليل منها، ومما لا شك فيه أن الأمور التي لاحظها خلال هذه السنين الطويلة، في هذه الأقطار المختلفة، وبين تلك الانقلابات المتتالية...كانت من أهم العوامل التي أثارت تأملاته، ووجهت نظرياته عندما أقدم على كتابة المقدمة. كما أن الحياة التي عاشها ابن خلدون بعد ذلك، ولا سيما المهام التي تولاها بعد انتقاله إلى مصر، لعبت دورا هاما في توسيع مباحث المقدمة وتحويرها"¹.

ثم يشترك ابن خلدون للعودة إلى مسقط رأسه وأهل بلده تونس لسببين: أحدهما: حاجته لمصادر ومراجع يسند ويهذب بها مقدمته ويزداد منها علما، وهي لا توجد إلا في الأمصار ومكاتبها، والثاني: شوقه لمسقط رأسه ورؤية أهله، لكن ما يمنعه حاكمها أبي العباس وغضبه عليه بسبب تلاعبه السابق وميله لمنافسه الأمير عبد الرحمن وتعاونه معه ووشاية الوزير محمد بن عثمان به. فيكتب إلى أبي العباس يستأذنه ويرجو صفحه. فيتعاطف معه السلطان ويأذن له بالعودة. فيعود إلى مسقط رأسه، ويظل عاكفاً على البحث والدراسة حتى يُتم تنقيح كتابه وتهذيبه. ويخشى ابن خلدون أن يزج به السلطان إلى معترك السياسة الذي سئم وقرر الابتعاد عنه، ونتيجة لذلك يعزم على مغادرة تونس مع عائلته مرة أخرى، ويجد في رحلة الحج ذريعة مناسبة يتوسل بها إلى السلطان ليخلي سبيله، ويأذن له السلطان في الرحيل².

1 - الحصري، "دراسات عن مقدمة ابن خلدون"، م.س، ص 46 .

2 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غريبا وشرقا"، م.س، ص 188-189. يقول ابن خلدون: (وتشوفت إلى مطالعة الكتب والدواوين التي لا توجد إلا بالأمصار، بعد أن أملت الكثير من حفظي، وأردت التنقيح والتصحيح، ثم طرقتي مرض أوفى بي على الثنية...فحدث عندي ميل إلى مراجعة السلطان أبي العباس، والرحلة إلى تونس، حيث قرار آبائي ومساكنهم، وآثارهم، وقبورهم، فبادرت إلى خطاب السلطان بالفئة إلى طاعته والمراجعة، وانتظرت، فما كان غير بعيد، وإذا بخطابه وعهوده بالأمان، والاستحثاث للقدوم، فكان الخوف للرحلة...وارتحلنا في رجب سنة ثمانين، وسلطنا الفقر إلى الدوسن من أطراف الزاب...إلى أن نزلنا عليه بضاحية قسنطينة، ومعه صاحبها الأمير إبراهيم بن=

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل لطبيعة ابن خلدون في حب السفر والترحال وعدم البقاء في بقعة محددة - حتى لو كانت بلده - السبب وراء هذا السفر والترحال؟ أم أن هناك دوافع أخرى ترغمه على ذلك كالولع بالسياسة وممارستها، وحب المناصب والرغبة في عدم تركها؟ وهذا فعلاً ما ظهر وثبت معه، لكن قدره أن يجد ويعيش مآسي وأحزان أخرى أصعب مما مر به لتشكل هذه المحن صياغة جديدة لنفسيته أثرت على حياته فيما بعد، بل وعلى تنقيح كتابه مرات ومرات متتالية حتى خرج بصورته النهائية.

وألحظ هنا كذلك مدح ابن خلدون للحياة التي عاشها في ظل السلطان أبي العباس، والتغني بها لدرجة غريبة بالرغم من كبر سنه وهيبته. وهذا يعكس مدى شغفه وحبه لحياة القصور والارتقاء في أحضان السلاطين. وخاصة أنه أرسل لأبي العباس قبل مقدمه يطلب الصفح والغفران، ويعرض خدماته ونصائحه عليه، بل يستجديه ليرضى عنه وليعيش في كنفه. وهذا كذلك يعكس التناقض العجيب في شخصية ابن خلدون. فتارة أجده يوالي السلطان ويسعى إلى خدمته وتحقيق مطالبه، وتارة يخالف ذلك ويلجأ لغيره بحسب المصلحة والإغراء المعروضان عليه. فتحرّكه أهواؤه ومصالحه إلى الجانب الذي يرتاح إليه ويوفر له النعيم والمال والمنصب والسلطان. كما ألاحظ ملاحقة الوشاة لابن خلدون أينما ذهب وحل، وكأن لكلامه وتعامله مع السلاطين أثر سلبي في إثارة نوازع الحسد والمكر تجاهه. أو لعدم ملاطفة ابن خلدون لمن هم دون السلاطين بدرجات كالعلماء والقضاة، وعدم انزالهم منازلهم من المدح والثناء أثر في ذلك.

ولفت نظري كذلك حرص ابن خلدون على مرضات السلطان أبي العباس في استجابته لطلبه حول اتمام كتابه المقدمة وما تبعه. وذلك لاشتياق السلطان لمعرفة أخبار المغرب والأحداث فيها، ورأي ابن خلدون بأوضاعها وسلاطينها. فلما انتهى من تأليفها أهداها له ولمكتبته السلطانية برسم المحبة.

وهذا ما قاله باعترافه: "وقد كلفني بالإكباب على تأليف هذا الكتاب لتشوفه إلى المعارف والأخبار، واقتناء الفضائل، فأكملت منه أخبار البربر، وزناته، وكتبت من أخبار الدولتين وما قبل الإسلام ما

السلطان أبي العباس بمخيمه، وفي عسكره فحضرت عنده، وقسم لي من بره، وكرامته فوق الرضى. وأذن لي في الدخول إلى قسنطينة، وإقامة أهلي في كفالة إحصانه، بينما أصل إلى حضرة أبيه. وبعث يعقوب بن علي معي ابن أخيه أبي دينار في جماعة من قومهم، وسرنا إلى السلطان أبي العباس، وهو يومئذ قد خرج من تونس في العساكر إلى بلاد الجريد، لاستئصال شيوخها عن كراسي الفتنة التي كانوا عليها، فوافيته بظاهر سوسة، فحيا وفادتي، وبر مقدمي، وبالغ في تأنيسي، وشاورني في مهمات أموره، ثم ردني إلى تونس، وأوعز إلى نائبه بها مولاه فارج بتهيئة المنزل، والكفاية في الجارية، والعلوفة، وجزيل الإحسان، فرجعت إلى تونس في شعبان من السنة، وآويت إلى ظل ظليل من عناية السلطان وخرمته، وبعثت عن أهل والود، وجمعت شملهم في مرعى تلك النعمة، وألقيت عصا التسيار، وعاد أبي العباس إلى تونس مظفراً ماهداً، فأقبل علي، واستدنانني لمجالسته، والنجي في خلوته، فغص بطانته بذلك، وأفاضوا في السعايات عند السلطان فلم تتجج).

وصل إلي منها، وأكملت منه نسخة رفعتها إلى خزانته...¹. والسؤال المطروح هنا: إذا حرص ابن خلدون على اخراج هذه المقدمة بالسرعة الممكنة لتكون هدية للسلطان أبي العباس فيزداد رضاه عنه، ويُخرس بها ومن خلالها ألسنة الوشاة عنه، أفلا يُظن أن ابن خلدون قد جعل في بعض كتابته للمقدمة ما يثير اعجاب ودهشة السلطان وان بطريق التحايل، فابن خلدون كان في مرحلة من العمر يتشوف فيها للراحة والاستقرار والبعد عن ملاعبة الحكام أو توغير صدورهم ضده، وعبقورية ابن خلدون تفرض عليه أن لا يضع في المقدمة ما يجلب له ذلك من سيده السلطان أبي العباس والذي جمع شمله بعياله بعد فرقة طال انتظارها، ووفر له حياة رغيدة لطالما حلم بها وتمناها.

وجوابي هو نعم الى حد بعيد عند مدحه للعصبية والتي توفرت لابي العباس من معظم قبائل المغرب في ذلك الوقت بعد أن أخضعها لحكمه وسلطانه، كذلك في اظهاره لصفات السلطان العادل، حيث كان يتطلع من خلالها لتكون هي صفات أبي العباس عندما يطالعها فيتحقق له الشكر والمنة من جانبه.

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م.ن، ص 190 .

المبحث الثاني عشر

الرحلة الى مصر تثبت طبيعته المولعة بالمناصب والتي تأبى أن تفارقه

لقد خرج ابن خلدون من تونس وبصره يرنو نحو مصر والقاهرة التي سمع عن جمالها وازدهارها فاشتاق اليها وهو لم يراها، وليغير نهج العيش الذي دأب عليه في المغرب وتونس. لقد رحل اليها وفي فكره وعقله كلام مشايخه عنها حيث يقول في اشتياقه: "...ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا، حاجهم وتاجرهم، بالحديث عنها. سألت صاحبنا قاضي الجماعة بفاس، وكبير العلماء بالمغرب، أبا عبد الله المقرئ، مقدمه من الحج سنة أربعين، فقلت له: كيف هذه القاهرة؟ فقال: من لم يرها لم يعرف عز الإسلام. وسألت شيخنا أبا العباس بن إدريس كبير العلماء ببجاية مثل ذلك فقال: كأنما انطلق أهله من الحساب، يشير إلى كثرة أممه وأمنهم العواقب. وحضر صاحبنا قاضي العسكر بفاس، الفقيه الكاتب أبو القاسم البرجي بمجلس السلطان أبي عنان...وسأله عن القاهرة فقال: أقول في العبارة عنها على سبيل الاختصار: إن الذي يتخيله الإنسان، فإنما يراه دون الصورة التي تخيلها، لاتساع الخيال عن كل محسوس، إلا القاهرة، فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها. فأعجب السلطان والحاضرون بذلك)¹.

ولقد راودني سؤال على ما سبق ونصه: كيف لابن خلدون أن يكتب كتابه الضخم في التاريخ ومقدمته الشهيرة تلك من غير أن يعيش ويرى تجارب أمم أخرى كأهل مصر والجزيرة والترك والفرس والروم وغيرهم؟ وكيف له أن يضع افتراضاته للوضع الاجتماعي الانساني عموما من غير أن يحياه؟ بدليل انبهاره بالحضارة المصرية كما وضُح لي وما كتبه عن القاهرة وبعض المدن الأخرى، وكأنه اكتشف شيئا جديدا لم يكن له به علم مسبق².

ثم ابن خلدون يخرج راكبا البحر تاركا عائلته في تونس تحت رحمة السلطان أبي العباس. والذي كان يهدف من حجز العيال وعدم الحاقهم به أملا في عودته وعدم اطالته الغيبة. فالعيال يربطون أبيهم شوقا وحبا حتى يعود اليهم. لكن ابن خلدون يلجأ الى سلطان مصر فيطلب أن يشفع له عند السلطان أبي العباس حتى يطلق سراح عياله فيستجيب ويرسل له برسالة الشفاعة. فيقول في ذلك ابن خلدون:

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م.ن، ص 200 - 201.

2 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م.ن، ص 199 - 200. فيقول: (فانتقلت إلى القاهرة أول في القعدة، فرأيت حضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسي الملك، تلوح القصور والأواوين في جوه، وتزهر الحوانك والمدارس بأفاقه، وتضيء البذور والكواكب من علمائه، قد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء، يسقيهم النهل والعلل سيحه ويجني إليهم الثمرات والخيرات ثجه، ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة، وأسواقها تزخر بالنعم).

"وانتظرت لحاق أهلي وولدي من تونس، وقد صدهم السلطان هنالك عن السفر، اغتباطاً بعودي إليه، فطلبت من السلطان صاحب مصر الشفاعة إليه في تخلية سبيلهم، فخاطبه في ذلك"¹.

وفي انتظار الرد من السلطان أبي العباس، فإن طبيعة ابن خلدون البشرية في حب المناصب والوظائف العلية تأبى أن تفارقه. وابن خلدون يتحدث عن ذلك بكلمات مقتضبة وسريعة تشير الى هلاك المدرسين بمدرسة القمحية بمصر. لكن كيف ولماذا؟ فلا يبين. ثم بكلمات سريعة يبين ان السلطان يسخط على قاضي المالكية لبعض النزاعات فيعزله. ولماذا؟ فلا يبين ابن خلدون كذلك. وفي كلتا الوظيفتين فإن ابن خلدون يستلم العمل فيهما. أضف الى ذلك أنه بطريقة أو بأخرى استطاع استمالة السلطان الحاكم. حيث لقي ابن خلدون تقدير واحترام الظاهر برقوق، سلطان مصر، حين قضى حاجته بارسال رسالة تمتاز بالفخامة والمدح الى السلطان أبي العباس كما أسلفت يستشفه فيها لارسال عياله اليه. فما السر وراء هذه العلاقة؟ ولعل الإجابة تكون أن هذا السلطان كان من أحد السلاطين الذين كان ابن خلدون على تواصل معهم عبر علاقاته السابقة ولطبيعة مناصبه السالفة: كالحجابه، والتي تولاهما فاستغلها ليعيد أمجاده السابقة ويحقق مصالحه.

وهذا ما تحقق عندما عينه السلطان لتدريس الفقه المالكي بمدرسة القمحية. كما ولاه منصب قاضي قضاة المالكية، وخلع عليه ولقبه: ولي الدين، علماً أن شهرة ابن خلدون لم تكن في الفقه والشريعة والدين، وإنما - وعبر ما كتبه - كانت في الأدب والشعر والفلسفة ثم التاريخ وتحليله وبيان خفاياه على الرغم من أنه تلقى العلوم الدينية في صغره وحفظ القرآن وتبوأ منصب القضاء لكن ليس لدرجة الافتاء. فكيف له أن يفوز بهذا المنصب؟ وكيف له أن يستحق هذا اللقب من السلطان؟ وهل هناك خفايا وأسرار تشير الى علاقات داخلية أو مسبقة بين ابن خلدون والسلطان الظاهر برقوق؟ أم أن القضية أساليب ووسائل استخدمها ابن خلدون في التأثير على نفس السلطان كمن سبقه من السلاطين فاستمال قلبه اليه ليحقق أعلى وأسمى الأهداف التي يصبو اليها. كما اني أتساءل ما قصة ابن خلدون مع السلاطين، وهل معارفه وأصدقائه هم فقط من الطبقة الحاكمة والمتنفذة دون عوام الناس.

وبرأيي أن ابن خلدون كان يتطلع نحو القصور والمناصب العالية ولا يرضى بأقل منها نظراً أو سعياً. وان ما يدل على ذلك وعلى تلك العلاقة المتينة مع الطبقات الحاكمة دون سواها أمرين: أحدهما تلك السلسلة التاريخية لحياته التي لم تفارق القصور والسلاطين في بلاد المغرب. وثانيها مقدمته التي تكلم فيها بعموميات الحكم والدول والملوك والزعماء وتأثيرهم على رعيتهم إذلالاً أو اكراماً. وحديثه حول سقوط الملوك أو نجاحهم بحسب تأثيرهم على أتباعهم من عوام الناس والمحكومين عموماً. وهذا ما سأطرق اليه بالأمثلة في الباب الثاني من بحثي هذا.

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، م.ن، ص 201.

وعلى العموم فإن ابن خلدون لم يدخر وسعاً في إصلاح ما لحق بالقضاء في ذلك العهد من فساد واضطراب. وقد أبدى صرامة وعدلاً شهد له بهما كثير من المؤرخين. وكان حريصاً على المساواة، متوخياً للدقة، عازفاً عن المحاباة، وبسبب هذه الصرامة والحدة وعدم التراخي أو المحاباة في هذا المنصب فقد جلب له ذلك عداء الكثيرين. فضلاً عن حساده الذين أثارتهم حظوته ومكانته لدى السلطان، وإقبال طلاب العلم عليه¹.

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، م.ن، ص 208. يقول ابن خلدون في ذلك: (ثم هلك بعض المدرسين بمدرسة القمحية بمصر، من وقف صلاح الدين بن أيوب، فولاني تدريسها مكانه، وبيننا أنا في ذلك، إذ سخط السلطان قاضي المالكية في دولته، لبعض النزاعات فعزله، فلما عزل هذا القاضي المالكي سنة ست وثمانين، اختصني السلطان بهذه الولاية، تأهيلاً لمكاني، وتنويهاً بذكري، وشافهته بالتقاضي من ذلك، فأبى إلا إمضاءه، وخلع علي بابوانه، وبعث من كبار الخاصة من أقعدني بمجلس الحكم بالمدرسة الصالحية بين القصرين، فقضيت بما دفع إلي من ذلك المقام المحمود، ووفيت جهدي بما أمني عليه من أحكام الله، لا تأخذني في الحق لومة، ولا يزني عنه جاه ولا سطوة، مسوياً في ذلك بين الخصمين، آخذاً بحق الضعيف من الحكمين، معرضاً عن الشفاعات والوسائل من الجانبين، جانحاً إلى التثبت في سماع البيّنات، والنظر في عدالة المنتصبيين لتحمل الشهادات... فأرغمهم ذلك مني، وملأهم حسداً وحقداً علي... وأمضيت أحكام الله فيمن أجاروه، فلم يغنوا عنه من الله شيئاً، وأصبحت زواياهم مهجورة، وبئرهم التي يمتاحون منها معطلة. وانطلقوا يراطنون السفهاء في النيل من عرضي، وسوء الأحداث عني بمختلف الإفك، وقول الزور، يبنونه في الناس، ويدسون إلى السلطان التظلم مني فلا يصغي إليهم، وأنا في ذلك محتسب عند الله ما فنيته به من هذا الأمر، ومعرض فيه عن الجاهلين، وماض على سبيل سواء من الصرامة، وقوة الشكيمة، وتحري المعدلة، وخلاص الحقوق، والتتكب عن خطة الباطل متى دعيت إليها، وصلابة العود عن الجاه والأغراض متى غمزني لامسها، ولم يكن ذلك شأن من رافقته من القضاة، فنكروه علي، ودعوني إلى تبعهم فيما يصطلحون عليه من مرضاة الأكابر، ومراعاة الأعيان، والقضاء للجاء بالصور الظاهرة، أو دفع الخصوم إذا تعذرت، بناء على أن الحاكم لا يتعين عليه الحكم مع وجود غيره، وهم يعملون أن قد تماأوا عليه... فكثرت الشغب علي من كل جانب، وأظلم الجو ببني وبين أهل الدولة).

المبحث الثالث عشر

سلسلة الكوارث تتابع بفقد الزوجة والأولاد والأموال غرقاً في البحر

وتحدث الفاجعة التي لم يكن يحسب لها حساب، فتغرق السفينة التي تقل عائلته بفعل رياح عاتية، ويفقد زوجته وأولاده وأمواله كاملة بالقرب من الإسكندرية، وقبل أن يصلوا إليها بمسافة قصيرة. ولي أن أتساءل كيف كان وقع هذه المأساة على نفسه؟؟ وما الإنعكاسات والآثار المترتبة عليها كتابة وتفكيراً ومعاملة للغير؟ حيث سيتبين لي فيما بعد كيف أثرت عليه عميقاً فجعلته يزهد في الحياة لبعض الوقت. لكن نعمته تزداد وغضبه الداخلي يتعاضم، بل وسخطه على من خذله والمتخاذلين عموماً والوشاة والمتكلمين في حقه ومن وراء ظهره ومن تسبب له بالنكبات في حياته أصبح في أعلى مراتبه. وهذا يظهر فعلياً في الحوادث التي تلحق به فيما بعد كما سأبين ذلك.

يقول ابن خلدون واصفاً المأساة وآثارها عليه: "...ووافق ذلك مصابي بالأهل والولد، وصلوا من المغرب في السفين، فأصابها قاصف من الريح فغرقت، وذهب الموجود والسكن والمولود، فعظم المصائب والجزع، ورجح الزهد، واعتزمت على الخروج عن المنصب، فلم يوافقني عليه النصيح ممن استشرته، خشية من نكير السلطان وسخطه..."¹.

فألاحظ هنا أن ابن خلدون قد تأذى فعلاً من جانبين أولهما: الوظيفة التي كان يعمل بها، وهي قاضي قضاة المالكية لما ساقته عليه من كره وحقد العامة والعلماء والشعب، وجعل الأغلب لا يطيق مجالسته، أو التقاضي إليه. وثانيهما: جاءت مأساة عائلته مع مأساة كراهة الناس له لتشكل صدمة نفسية متعاضمة، لم يخفف وطأتها سوى وجوده في عناية ورعاية السلطان متنعماً بخيراته وعطائه الذي يغدقه عليه. لكن مع ذلك فقد انزوى وانطوى على نفسه قليلاً، صارفاً جل وقته وجهده لطلب العلوم أو التدريس أو قراءة كتاب، أو التأليف والكتابة. لكن حاله هذه لا تستمر، فيخرج من عقاله باحثاً نحو عادته وما كان يسعى إليه من قبل².

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، م، ن، ص 208 - 209.

2- ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، م، ن، ص 208 - 209. يقول في وصف ذلك: (...فوقفت بين الورد والصدر، وعلى صراط الرجاء واليأس، وعن قريب تداركني اللطف الرباني، وشملتني نعمة السلطان - أيده الله - في النظر بعين الرحمة، وتخليت سبيلي من هذه العهدة التي لم أطق حملها، ولا عرفت - كما زعموا - فصطلحها، فردها إلى صاحبها الأول، وأنشطني من عقاليها، فانطلقت حميد الأثر، مشيعاً من الكافة بالأسف والدعاء وحميد الثناء، تلحظني العيون بالرحمة، وتتجأجأ الآمال في بالعودة، ورتعت فيما كنت راتعاً فيه قبل من مراعي نعمته وظل رضاه وعنايته، قانعاً بالعافية... عاكفاً على تدريس علم، أو قراءة كتاب، أو إعمال قلم في تموين أو تأليف، مؤملاً من الله، قطع صباغة العمر في العبادة، ومحو عوائق السعادة بفضل الله ونعمته).

المبحث الرابع عشر

القبول بمنصب أقل توقيا من الفتن وبعدا عن الدسائس والوشايات

ترك ابن خلدون منصبه القضائي سنة (787هـ - 1385م) بعد عام واحد من ولايته له. وما لبث السلطان أن عينه أستاذًا للفقہ المالكي بالمدرسة الظاهرية البروقية بعد افتتاحها سنة (788هـ - 1386م). ولكن وشايات الوشاة ومكائدهم لاحقته حتى عزله السلطان. والعجيب أن ابن خلدون كان أينما يذهب تلحق به المكائد والوشايات. فما قصة هذا الأمر؟ وهل الموضوع حقيقة أن السلاطين كانوا بهذا الحمق والسفاهة في أن يسمعو لكل واشٍ؟ أم أن الموضوع والسر والحقيقة هو ما ذكرناه سابقا وهي الطبيعة النفسية العصبية لابن خلدون، والتي لا تترك له مقرب أو صاحب. أضف الى ما تحمل هذه القضية في طياتها من شدة وصرامة وتجهم وعدم ملاطفة. بل أنني أجزم أن ابن خلدون كان لا يبتسم أو يضحك أو يقبل المزاح. والأمور عنده تقاس بالجدية الصارمة والتجهم والعبوس. وهذا ما سبب لجلسائه النفور والوشاية به وعدم الرغبة في بقائه أو مجالسته.

وتحت وطأة هذه المكائد والوشايات، وعدم الرغبة في البقاء في مكان يكثر فيه المعادين له والكارهين لمجالسته. ثم لقرب مأساة عائلته التي اثرت عليه تأثيرا كبيرا وجعلته ينطوي على نفسه ويكره التعامل السياسي. يستأذن ابن خلدون السلطان ناويا الحج وذلك عام 789هـ، ويتوجه لاداء فريضة الحج ويعود بنفس ونشاط جديد. ولأول مقابلة له مع السلطان يبتدأ بمدحه بكلمات ترفع رأس السلطان، وتقربه من ابن خلدون. بل ان ابن خلدون يحرص على أن يخبره بعدم تقصيره بالدعاء له في المشاعر المقدسة وهذا ما أفهمه من قوله: "ولقيت السلطان، وأخبرته بدعائي له في أماكن الإجابة، وأعادني إلى ما عهدت من كرامته، وتقيؤ ظله"¹. ومن هذا أدرك أن ابن خلدون كان يحرص تماما على العودة لشغل مناصب في الدولة، بل لم تفارقه رغبته في العودة لممارسة السياسة، ومدح السلاطين والحكام، والدخول الى بلاطهم ومن ثم قلوبهم.

ومن المؤكد أن تأثير هذا كان يدفعه لتعديل مقدمته بما يتناسب وظرفه الحالي في مصر ومعاملة أهلها وسلطانها له. ففريضة الحج أنسته مأساته بفقدانه لعائلته، وأعادت له روح وقادة جديدة تبحث عن التواصل مع المغامرات القديمة. وبدوره يقبل ابن خلدون بمنصب التدريس للحديث النبوي والذي يكلفه به السلطان. ولتكون هذه المهمة كبدية متواضعة نحو التطور في مناصب متقدمة، وفيها فائدة

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م.ن، ص 232 .

عدم الاصطدام مع عامة الناس والقضاة كما كان حاصلًا معه قبل أداء الحج وهو في منصب القضاء. ثم يتطور الأمر فيوليه السلطان ولاية خانقاه ببيرس. وما كاد ابن خلدون يتولاها حتى عزله منها السلطان. والغريب في الأمر أن سبب عزله كان لتلاعب ابن خلدون في بعض الفتاوى وبطريق التورية، ليرضي بها أحد المسؤولين ويدعي منطاش. وهذه الرواية الخطيرة تثبت أن ابن خلدون قد بدأ يعود إلى نهجه القديم في السعي للمناصب بأي ثمن كان. وهذا بدوره يعبر عن النهج الثوري الذي كان يرتفع في صميم نفسه محاولاً اشباع تطلعاته بكافة الوسائل والاساليب تحت قاعدة الغاية تبرر الوسيلة. وذلك تعبيراً عن ضعف نفسه تجاه لذة المناصب وشهواتها.

وهذا اعتراف ابن خلدون الصريح بما اقترفه لسانه: "...وكان الظاهر ينقم علينا معشر الفقهاء فتاوى استدعاها منا منطاش، وأكرهنا على كتابها، فكتبناها، وورينا فيها بما قدرنا عليه، ولم يقبل السلطان ذلك، وعتب عليه، وخصوصاً علي، فصادف سودون منه إجابة في إخراج الخانقاه عني، فولى فيها غيري وعزلني عنها"¹.

لكن تقرب ابن خلدون باستمرار إلى السلطان الظاهر، وتقديم الخدمات والمديح والنصائح في كل وقت وأن، جعل السلطان يعيد النظر مرة ثانية في تولية ابن خلدون القضاء. وبالفعل فقد حقق ابن خلدون لنفسه ما يريد واستطاع العودة إلى منصب قاضي قضاة المالكية على الرغم مما حصل له من الوشايات والعداوات منها في السابق. لكن الذي يظهر أن ابن خلدون كان لا يلتفت لتجاربه السابقة في منصب القضاء. وكل الذي يهيمه هو العودة لهذا المنصب بكافة السبل والوسائل، فقد كان يضعف تماماً تجاه هذه المغريات ولا يطيق مفارقتها أو البعد عنها².

وفي موقف آخر وأثناء مرافقة ابن خلدون للسلطان فرج ابن السلطان الراحل الظاهر برقوق في طريق عودته بعد استرداد سطوته على الشام ودمشق، لفت نظري طلب ابن خلدون الأذن منه لزيارة بيت المقدس. وما يعني بزيارته هذه هو حالة التخبط التي كان يعاني منها، واستحقاقه لكنائس وأديرة النصارى في فلسطين بطريقة تثير الريبة والشك في أفكاره، فقد رفض زيارتها أولاً تحت دعوى أنها تخالف القرآن. علماً أن الخليفة عمر قد أعطى نصارى القدس الحق في إقامة شعائهم ومنع التعرض لهم. بل قد زارها بنفسه ودخلها ولم يحتقرها. ولما حانت الصلاة خرج إلى سطحها وصلى صلاته

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، م.ن، ص 259 .

2 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، م.ن، ص 272. يقول ابن خلدون في ذلك: (واتفقت وفاة قاضي المالكية إذ ذاك ناصر الدين بن التتسي، وكنت مقيماً بالفيوم لضم زرعي هنالك، فبعث عني، وقلدني وظيفة القضاء في منتصف رمضان من سنة إحدى وثمانمائة، فجريت على السنن المعروف مني، من القيام بما يجب للوظيفة شرعاً وعادة، وكان رحمه الله يرضى بما يسمع عني في ذلك).

هناك حتى لا يطمع المسلمون فيها بعد ذلك تحت دعوى أنها مقام ومصلى عمر. لكن ابن خلدون يخالف ذلك كله. بل وصدمني عندما سمى كنيسة القيامة باسم "القمامة". وقد تحققت من الأصل لعل الكلمة محرفة أو فيها خطأ، لكنني وجدت الكلمة هي عينها في الاصل. وهذا كما قلت هو احتقار لمشاعر غير المسلمين، ويدلل على طبيعة النفس الثورية المختزنة في قلب ابن خلدون، واستغلاله لهذه الزيارة ليخرج مكنوناته الى العلن. فهو يقول: "ووصلت إلى القدس ودخلت المسجد، وتبركت بزيارته والصلاة فيه، وتعففت عن الدخول إلى القمامة لما فيها من الإشادة بتكذيب القرآن، إذ هو بناء أمم النصرانية على مكان الصليب بزعمهم، فنكرته نفسي، ونكرت الدخول إليه"¹.

1 - ابن خلدون "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م.ن، ص 274.

المبحث الخامس عشر

المقابلة والتعاون الخبير مع عدو المسلمين تيمورلنك

تقديم

في سنة 1401م رافق ابن خلدون الملك الناصر فرج، الذي خلف السلطان برقوق إلى دمشق في حملته على السفاح تيمورلنك، وذلك حينما جاءت الأنباء بانقضاض جيوش تيمورلنك على الشام واستيلائه على حلب، وما صاحب ذلك من ترويع وقتل وتخريب. فخرج الناصر فرج في جيوشه للتصدي له، وأخذ معه ابن خلدون فيمن أخذهم من القضاة والفقهاء حيث دارت مناوشات واشتباكات بين الفريقين، ثم أعقبتها مفاوضات للصلح. ولكن حدث خلاف بين أمراء الناصر فرج، ووصلت أخبار للسلطان أنهم دبروا مؤامرة لخلعه، فترك دمشق ورجع إلى القاهرة.

ويبدو أن ابن خلدون وقبل خروجه كان يحسب لهذه المواجهة ألف حساب ويفكر بكل خطوة يخطوها. ودليل ذلك مواقفه فيما بعد مع قائد التتار تيمورلنك. فبعد اظهاره مساندته لأهل دمشق ووقوفه بصفهم واعتبار نفسه الناصح الأمين لهم كسائر القضاة، انقلب حاله عند رؤيته لتيمورلنك... فأصبح يكيل له المدائح والكلام المعسول حتى أنه خطب في حضرته خطبة عصماء كما سألين فيما بعد وتعاون معه في شرح وتحديد مدن المغرب العربي المعروف في ذلك الوقت، وأظهر له المواقع والمدن ونحوها. وعلى الرغم يقينا أنه كان يعلم أن تيمورلنك لا يؤمن جانبه، وما كانت تلك الطلبات منه الا لطمعه بالغزو ومدّ نفوذه عبر مدن وصحاري المغرب. لكنه في أفعاله تلك، وبعد البحث والتحليل النفسي الكاريزمي لشخصية ابن خلدون، ومحاولة ايجاد أي مبرر لأعماله السابقة فانه لم يترك لي مجال سوى أن أظن به احدى ثلاثة ظنون لا رابع لها:

أولاً : إما أنه أدرك خطر هذا القائد المغولي على شخصه بعد أن رأى أفعاله في حلب والمجازر والفضائع التي قام بها، فحسب له وتوجس منه خيفة وأدرك أنه يلزمه استخدام مكره ودهاؤه للخروج من هذه الورطة مع هذا القائد المغولي وبالتالي سينجو بنفسه دون حساب لأهل البلد أو علمائها أي حساب. فابن خلدون، مع بالغ الأسف، أثر السلامة وتفضيل الذات. وفعل كل ما بوسعه لينجو بنفسه، ولتذهب دمشق بمن حوت لقمة سائغة بأيدي الغازي الدموي تيمورلنك، دون أن يبدي أسفاً أو خجلاً أو حتى مجرد حسرة على المدينة التي دمرت وعشرات آلوف الضحايا الذين قتلوا!!.

ثانياً : وإما أنه طمع بالجاء والمناصب والأموال على عادته التي لا يغيرها، وأدرك لا محالة ضياع دمشق قبل أن تضيع، لبعد نظره وذكائه وفطنته، بعدما رأى الأحوال السياسية والاقتصادية تتهاور في تلك البلاد وأحس بتقلب الأمزجة والنفوس، وتكالب الأغنياء والأمراء على تهريب أموالهم، وتساؤلات

الناس، فقال في نفسه لعلني أسابق الزمن وأظفر بشيء ينفعني كمنصب أو حفاوة أو مال فأبقى على حالي من السعادة والسرور ولا أضيع تحت الأرجل. ففعل ما فعل طمعاً بمغرم أو منصب أو وضع محترم في ظل حكم القائد التتري القادم.

ثالثاً : وإما أنه قام بما قام به من باب الحقد والكراهية والانتقام من ساسة وقضاة دمشق عندما أدرك اهمالهم له بالمشورة واتخاذ القرار، ولكونه ليس من أهل تلك البلاد - أي غريباً عنها - وإدراكه لبعض الدسائس والمكر الذي يحاك ضده. فكان ذلك دافعاً له لعدم الاهتمام بنتائج أفعاله على أهل تلك الديار، وغاية الأمر مصالحه. حيث سألين فيما بعد حمق وغباوة بعض القضاة الذين تولوا عقد صك الصلح والاستسلام لتيمورلنك. والذي كان من نتائجه جمع وتسليم كافة الأموال والأسلحة والمنافع الموجودة في دمشق. وأعقبها غدر تيمورلنك بهم وهدم وحرق البلد على رؤوس أهلها. فطبيعة هذا الحمق الصادر من أولئك القضاة جعل ابن خلدون يتخذ قراراً مسبقاً لصالحه فينجو بنفسه من جهة، ويعاقب وينتقم من أولئك الحساد والماكرين والمهملين له ولرأيه من جهة أخرى. ولطبيعة نفسية ابن خلدون التي مرت معنا سابقاً والمبنية على الميكافيلية وعدم التساهل في الأحكام والأمور. كما حرصه على تولي المناصب والمراتب الدنيوية، فاني لا أستبعد أن ابن خلدون حتماً قد راودته أحد تلك الأسباب الثلاثة.

الدور الخطير لابن خلدون في رحلته الدمشقية المثيرة للجدل:

لعل أكثر الصفحات إثارة للدهشة والحيرة في رحلات ابن خلدون هي تلك التي خصها لأخبار رحلته الدمشقية، واجتماعه إلى الغازي التتري تيمورلنك عندما كان يحاصر المدينة. ولا بد أن أتوقف ملياً أمام هذه الصفحات التي لا تزال موضع جدل وتحليل حتى يومنا هذا، بسبب حسن العلاقة الغريبة بين هذا الغازي الهمجي وابن خلدون القاضي. فعندما ذهب ابن خلدون لمقابلة تيمورلنك حاملاً إليه الهدايا، وطالبا منه الأمان للقضاة والفقهاء على بيوتهم وحرمتهم وكذلك أهل دمشق إذا قرروا الاستسلام لجيشه. كان أن وثق به وبوعوده بعدم إيذاء أحد بعد التسليم والانقياد، وهذا ما قاله ابن خلدون ولم يصرح بشيء أكثر من ذلك. حتى أن ابن خلدون يعبر عن خشيتَه على نفسه من أذى الرافضين للاستسلام. والمثير للاستغراب أكثر هو أن ابن خلدون لم يطمس لاحقاً ما كتبه عن تيمورلنك، ولا عن دوره في التشجيع على الاستسلام والاطمئنان إلى وعود التتار، رغم أن واقعة سقوط هذه المدينة العظيمة تحت سيوفهم هي واحدة من الوقائع الأكثر شؤماً في تاريخها، لما شهدته من فظائع صارت مضرب مثل في الهمجية¹.

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، م.ن، ص 286 .

وتبدأ القصة مع ابن خلدون عند استدعائه لمرافقة الجند بمعية السلطان فرج. حيث كان في بيته معزولا عن وظيفة القضاء، ومن الطبيعي أن تكون نفسية ابن خلدون الميكافيلية المتلونة والحال هذه على غير طبيعتها. ودليل ذلك رفضه بداية مرافقة الجند والسلطان، لكن بعد اللاحاح عليه بلين الكلام... والأخطر اغرائه بجزيل العطاء وافق على المشاركة وذلك باعتراف لسانه. وهذا يعكس نفسية ابن خلدون الطالبة للجاء والمال والمنصب. فالقضية ليست مبدأ يحارب من أجله بداية. حيث لو كان ذلك لانتفض بدن ابن خلدون بشدة عند دخول المغول أراضي المسلمين ولسارع للمشاركة بدون انتظار الطلب منه أو اغرائه أو تلطيف نفسيته بمعسول الكلام. ثم ان كلامه يكشف الأوضاع السياسية التي كانت سائدة في ذلك الوقت¹.

ثم يوري ابن خلدون في أقواله وكلماته غير مدركا أنه يعرض نفسه لمحاكمة لمن يأتي بعده ويطلع روايته وذلك عند قوله: "جاءني القضاة والفقهاء"². ثم لا يكشف بعد ذلك ماذا كان رأيه أو بماذا تكلم. ويُسند اتخاذ القرار الى مجموع القضاة الآخرين بقوله: "واتفق رأيهم...". وقوله الأول كذلك أن القضاة والفقهاء جاؤوه خاصة يدل على تفخيم وتعظيم ابن خلدون لنفسه بداية، كاشفاً بذلك لما كان يجول في خاطره من حب للظهور والرياء. ثم هو بذكائه وفطنته يخرج نفسه من المسؤولية اذا ما فشلت الخطط والآراء فلا يلام عليها، وانما سائر القضاة هم الملامين وذلك عندما يسند اتخاذ القرار لهم بقوله "واتفق رأيهم". كما أن نكران واعتراض نائب القلعة وجنده عليهم بما سيفعلوه وما أأخذوه من قرار، وخروجهم متدلين من غير علم نائب القلعة القائم على أمن وحماية القلعة، يكشف طبيعة الأوضاع السياسية

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م.ن، ص 286-287. يقول ابن خلدون عند سرده لهذه الحادثة: (...لقاء الأمير تمر سلطان المغل والطرط: لما وصل الخبر إلى مصر بأن الأمير تمر ملك بلاد الروم، وخرب سيواس، ورجع إلى الشام، جمع السلطان عساكره، وفتح ديوان العطاء، ونادى في الجند بالرحيل إلى الشام، وكنت أنا يومئذ معزولاً عن الوظيفة، فاستدعاني "دوادره يشبك"، وأرادني على السفر معه في ركاب السلطان، فتجافيت عن ذلك. ثم أظهر العزم على بلين القول، وجزيل الإنعام فأصخيت، وسافرت معهم منتصف شهر المولد الكريم من سنة ثلاث، فوصلنا إلى غزة، فأرحنا بها أياماً نترقب الأخبار، ثم وصلنا إلى الشام مسابقين الططر إلى أن نزلنا شقحب، وأسرينا فصبحنا دمشق، والأمير تمر في عساكره قد رحل من بعلبك قاصداً دمشق، فضرب السلطان خيامه وأبنيته بساحة قبة يلبغا. وبئس الأمير تمر من مهاجمة البلد، فأقام بمرقب على قبة يلبغا يراقبنا ونراقبه أكثر من شهر، تجاول العسكران في هذه الأيام مرات ثلاثاً أو أربعاً، فكانت حريهم سجالاً، ثم نمي الخبر إلى السلطان وأكابر أمرائه، أن بعض الأمراء المنغمسين في الفتنة يحاولون الهرب إلى مصر للثورة بها، فأجمع رأيهم للرجوع إلى مصر خشية من انتفاض الناس وراءهم، واختلال الدولة بذلك، فأسروا ليلة الجمعة من شهر).

2 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م.ن، ص 288. يظهر ذلك في قوله: (... وركبوا جبل الصالحية، ثم انحطوا في شعباه، وساروا على شافة البحر إلى غزة، وركب الناس ليلاً يعتقدون أن السلطان سار على الطريق الأعظم إلى مصر، فساروا عصباً وجماعات على شقحب إلى أن وصلوا إلى مصر، وأصبح أهل دمشق متحيرين قد عميت عليهم الأنباء. وجاءني القضاة والفقهاء، واجتمعت بمدرسة العادلية، واتفق رأيهم على طلب الأمان من الأمير تمر على بيوتهم وحرهم، وشاوروا في ذلك نائب القلعة، فأبى عليهم ذلك ونكره، فلم يوافقوه. وخرج القاضي برهان الدين بن مفلح الحنبلي ومعه شيخ الفقراء بزواية... فأجابهم إلى التأمين، وردهم باستدعاء الوجوه والقضاة، فخرجوا إليه متدلين من السور بما صبحهم من التقدم، فأحسن لقاءهم وكتب لهم الرقاع بالأمان، وردهم على أحسن الآمال، وانفقوا معه على فتح المدينة من الغد، وتصرف الناس في المعاملات، ودخل أمير ينزل بمحل الإمارة منها، ويملك أمرهم بعز ولايته).

المؤلمة التي كانت سائدة في دمشق عموماً والقلعة خصوصاً وتفرق الآراء وعدم الاتفاق. وهذا ما كان يشاهده ابن خلدون ويحاول بدئه أن يناهض بنفسه عنه ويتجنب الوقوع في دهاليزه حماية لنفسه وبحثاً عن مصالحه.

ثم إن تركه للقاضي الأحمق ابن مفلح الحنبلي أن يقابل تيمورلنك متدلياً من السور هو ومرافقيه ويعقد معه اتفاق دون أن يكون بمعيته، بل يكون غائباً في القلعة يترقب النتائج ثم يقيسها ويوزنها بعقله بعد وصولها إليه ليرتب لنفسه المرحلة المقبلة بما يخدم توجهاته ومصلحته، يشير إلى طبيعة ابن خلدون في اغتنام الفرص والتركيز على ما ينفعه دون النظر إلى مصالح القضاة وسكان القلعة، ففطنة ابن خلدون ودهائه وميكافيليته تجبره على النأي بنفسه عن المشاركة بداية في خطط القضاة أمام معارضة نائب القلعة. ويختفي من المشهد متطلعا لما سينتج من قرارات أو نتائج حتى يتخذ الخطوة القادمة عن مكر ودراية وتدبير.

ويحرص ابن خلدون بشغف منقطع النظير على معرفة ما دار من حديث ونقاش بين القضاة وتيمورلنك في غيابه. فيقيم جلسة استجواب وتحقيق مع القاضي الأحمق برهان الدين ابن مفلح، ويتتبع منه أدق التعليقات والتوصيفات التي نطق بها تيمورلنك. بل يسأله عن أسئلته وطلباته. ومن ثم يبني ابن خلدون في رأسه خطة استراتيجية قائمة على التعامل المرتقب مع هذا الغازي التتري. فيفتح عينيه وتلمع الفكرة في رأسه لمجرد سماعه أن تيمورلنك سأل عنه وعن تفاصيل سفره. وغالب الظن أنه بدأ يعد العدة لمقابلة من لا يعرفه أصلاً ولم يشاهده من قبل. والا كيف لتيمورلنك أن يسأل عنه¹. ورأيي أن هناك أمور قد جرت سابقاً بالسر بين ابن خلدون وهذا التتري، أو أن تيمورلنك كان لديه معلومات مسبقاً من طريقه الخاصة عن ابن خلدون ومدى سهولة التعامل معه وعقد صفقات وصادقات وحوارات مشتركة بينهما إن هو ما حاول الاتصال به لما كان يتميز به ابن خلدون من سعيه للمناصب وشهرته بالتملق للحكام والسلطين.

فاذا افترضنا أن تيمورلنك سأل عنه لأن القاضي برهان الدين ذكره من ضمن القضاة المتبقين في القلعة، فما معنى التحيات والتسليمات التي ذكرها ابن خلدون فيما بعد عندما قال: "فحييتهم وحيوني، وفديت وفدوني، وقدم لي شاه ملك، مركوباً، وبعث معي من بطانة السلطان من أوصلني إليه؟" وهل

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، م.ن، ص 288-289. ويظهر ذلك في قوله: (...وأخبرني القاضي برهان الدين أنه سأله عني، وهل سافرت مع عساكر مصر أو أقمت بالمدينة، فأخبره بمقامي بالمدرسة حيث كنت، وبتنا تلك الليلة على أهبة الخروج إليه، فحدث بين بعض الناس تشاجر في المسجد الجامع، وأنكر البعض ما وقع من الاستئمان إلى القول. وبلغني الخبر من جوف الليل، فخشيت البادرة على نفسي، وبكرت سحراً إلى جماعة القضاة عند الباب، وطلبت الخروج أو التدلي من السور، لما حدث عندي من توهمات ذلك الخبر، فأبوا على أولاً، ثم أصحوا لي، ودلونني من السور، فوجدت بطانته عند الباب، ونائبه الذي عينه للولاية على دمشق، واسمه شاه ملك، من بني جقطاي أهل عصابته، فحييتهم وحيوني، وفديت وفدوني، وقدم لي شاه ملك، مركوباً، وبعث معي من بطانة السلطان من أوصلني إليه. فلما وقفت بالباب خرج إلّان بإجلاسي في خيمة هنالك تجاور خيمة جلوسه).

هناك اتفاق مسبق بين ابن خلدون والقائد المغولي بدليل كلامه المتوسط بين ما ذكره قبل التدلي من السور وبين لقائه لأعوان القائد المغولي، كحدوث التشاجر في المسجد، وكذكرة لانكار الناس لفعل القضاة ثم مسارعة لطلب انزاله عن سور القلعة تحت حجة خوفه على نفسه؟ هل جاء كلامه هذا ليعطي المبرر لانحيازه لطرف القائد المغولي؟ وعند ذلك لا يلومه انسان على تصرفاته التي يخطط لها فيما بعد مع تيمورلنك. فقام باثباتها في كتابه واثبات بداية الواقعة بهذا التفصيل حتى يحقق ذلك الهدف.

لكنه مع ذلك أخطأ عندما ذكر ان تيمورلنك ذكره بدون أن يوضح كيف علم به أو عرف عنه وترك ذلك مجهولاً. ثم أخطأ عندما لم يبرر سبب هذا الترحاب العجيب واركابه على دابة لأول وهلة عندما تلقاه أعوان تيمورلنك عن جدار القلعة وقادوا الدابة التي يركبها حتى أجلسوه بمجلس قريب من مجلس القائد المغولي وأكرموا وفادته باعتراف لسانه. فما الذي حصل ويحصل. وهل هناك اتصالات خفية وتحديد لساعة الصفر ليتم الخروج والهروب اذا افتضحت الأمور.

ثم ان كلامه بواقعة التشاجر في المسجد تشير الى طبيعة الأحوال والأوضاع السياسية المتفككة التي كانت سائدة داخل القلعة، واذا صدق كلامه بانه خشي على نفسه نتيجة ذلك الاتفاق مع القائد المغولي فان ذلك يشير الى امكانية وقوع اغتياالات واتهامات بالخيانة داخل القلعة وهذا بالتالي يفرض على ابن خلدون أن يتصرف بأسرع ما يمكن حتى يخرج نفسه من هذه الورطة الكبيرة خصوصاً وأنه كما قلت: ليس من سكان تلك البلاد.

ثم يتابع ابن خلدون تفاصيل الفضيحة التي ارتكبها ظناً منه أن من يقرأها لن يفسرها أكثر من أنها مجرد تفاوضات وحوارات دلت على نباهته وفطنته. فقد بلغ بابن خلدون في تعامله مع تيمورلنك أن يعتبره من المقربين والأصدقاء ووسيلة يمكن الانتفاع منها وتحقيق أعلى المناصب والمكاسب. فيُظهر شخصيته الميكافيلية ويبدأ بالتملق والتذلل والنفاق بل واهانة نفسه وذاته. فيدخل على مجلس القائد المغولي، ويوميء برأسه، ويقبل اليد، ويبتسم في الوجه، وغير ذلك من الصفات التي لا تستقيم وأفعال هذا الانسان بالعرب وبلادهم، بل انه يتحدث اليه بطلاقة وصراحة تتخيل منها أن له به علاقة قديمة ووطيدة. فيسأله تيمورلنك عن سبب مقدمه للديار الشامية¹، فيخبره ابن خلدون بالسبب الحقيقي وهو

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، م، ن، ص 289-290. ويعبر عن ذلك ابن خلدون بقوله: (...فاستدعاني، ودخلت عليه بخيمة جلوسه، متكناً على مرفقه، وصحاف الطعام تمر بين يديه، يشير بها إلى عصب المغل جليوساً أمام خيمته، حلقاً حلقاً. فلما دخلت عليه فاتحت بالسلام، وأوميت إيماءة الخضوع، فرفع رأسه، ومد يده إلي فقبلتها، وأشار بالجلوس فجلست حيث انتهيت. ثم استدعى من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم، فأقعد يترجم ما بيننا، وسألني من أين جئت من المغرب، ولما جئت، فقلت: جئت من بلادي لقضاء الفرض ركبت إليها البحر، ووافيت مرسى الإسكندرية يوم الفطر سنة أربع (وثمانين) من هذه المائة الثامنة، والمفرحات بأسوارهم لجلوس الظاهر على تخت الملك لتلك العشرة الأيام بعددها. فقال لي: وما فعل معك، قلت كل خير، بر مقدمي، وأرغد قراي، وزودني للحج، ولما رجعت وفر جرايتي، وأقمت في ظله ونعمته، رحمه الله وجزاه. فقال: وكيف كانت توليته إياك القضاء. فقلت: مات قاضي المالكية قبل موته بشهر، وكان يظن بي المقام المحمود في القيام بالوظيفة، وتحري المعدلة والحق، والإعراض عن الجاه، فولاني مكانه، ومات لشهر=

أداء فريضة الحج. والأعجب أنه يسأله عن بعض أحواله وأعماله وكأنه يعلم بكافة تفاصيل حياة ابن خلدون. فمن أين له بهذه المعلومات، علماً أن ابن خلدون لم يصرح بتاتا بكيف عرف تيمورلنك بهذه التفاصيل. وابن خلدون يسرد تفاصيل الحادثة وبدون أن يفكر ما هو موقف القراء من تفاصيل قصته مستقبلاً. والحقيقة أن معرفة تيمورلنك بتفاصيل حياة ابن خلدون مسبقاً، بدون معرفة مسبقة به أو لقائه على الإطلاق يثير العديد من التساؤلات والشكوك. بل ويضع ابن خلدون نفسه موضع الاتهام ويثير الريبة حول هذا اللقاء وهل هو حقيقة للمرة الأولى، وهل ما يسرده ابن خلدون هو حقيقة معرفة لأول مرة ومن غير لقاء مسبق أو اتصال ولو بالسر. كما أن المثير للريبة كذلك سؤال تيمورلنك عن فعل السلطان به عندما دخل البلاد، وتوليه القضاء وكيف أسنده له. وابن خلدون يجيب بأرحية ويضع التفاصيل كاملة بدون موارد أو خوف أو وجل. حتى بدون استخدام لدهائه. يقول الدكتور علي عبد الواحد وافي في تحليله لهذا الموقف: "ويظهر أن ابن خلدون كان قد عاوده حينئذ داؤه القديم، وساوره الحنين إلى المغامرات السياسية، فكان يعلق على صلاته بتيمورلنك آمالاً أخرى غير ما وفق إليه في شأن دمشق وشأن زملائه العلماء والقضاة، ولعله كان يرجو الانتظام في بطانة الفاتح والحظوة لديه، ولذلك أخذ يطنب في مدحه، ويذكر له أنه كان عظيم الشوق إلى لقائه منذ أمد طويل، ويتنبأ له في مستقبله بملك عظيم مستدلاً على صحة تنبؤاته بحقائق الاجتماع وأقوال المنجمين والمتنبئين بالغيب، ولعل ابن خلدون قد آنس سداجة في هذا الفاتح وحبا في المديح فأخذ ينفخ في كبريائه بهذه التنبؤات. غير أن ابن خلدون لم يوفق إلى تحقيق ما كان يأمله من تيمورلنك، فلم تمض أسابيع قلائل حتى سئم البقاء في دمشق، واستأذن تيمورلنك في العودة إلى مصر فأذن له. وفضلاً عن اخفاق ابن خلدون في الوصول إلى ما كان يأمله من تيمورلنك، فإن هذه الرحلة كانت مغرماً كبيراً له، فقد تجشم في أثنائها هديتين قدمهما لتيمورلنك، وفقد في طريق عودته منها جميع ما كان معه من متاع ومال"¹.

بعدها، فلم يرض أهل الدولة بمكاني، فأدالوني منها بغيري جزاهم الله. فقال لي: وأين ولدك، فقلت: بالمغرب الجواني كاتب للملك الأعظم هنالك. فقال وما معنى الجواني في وصف المغرب، فقلت هو في عرف خطابهم معناه الداخلي، أي الأبعد، لأن المغرب كله على ساحل البحر الشامي من جنوبه، فالأقرب إلى هنا برقه، إفريقية، والمغرب الأوسط: تلمسان وبلاد زناتة، والأقصى: فاس ومراكش، وهو معنى الجواني. فقال لي: وأين مكان طنجة من ذلك المغرب. فقلت: في الزاوية التي بين البحر المحيط، والخليج المسمى بالزقاق، وهو خليج البحر الشامي، فقال: وسبته؟ قلت: على مسافة من طنجة على ساحل الزقاق، ومنها التعدية إلى الأندلس، لقرب مسافته، لأنها هناك نحو العشرين ميلاً. فقال: وفاس. فقلت: ليست على البحر، وهي في وسط التلول، وكروسي ملوك المغرب من بني مرين. فقال: وسجلماصة؟ قلت: في الحد ما بين الأرياف والرمال من جهة الجنوب. فقال: لا يقنعني هذا، وأحب أن تكتب لي بلاد المغرب كلها، أقاصيها وأدانيها وجباله وأنهاره وقراره وأمصاره، حتى كأني أشاهده. فقلت: يحصل ذلك بسعادتك، وكتبت له بعد انصرافي من المجلس لما طلب من ذلك، وأوعيت الغرض فيه في مختصر وجيز يكون قدر اثنتي عشرة من الكراريس المنظفة القطع. ثم أشار إلى خدمه بإحضار طعام من بيته يسمونه الرشته، ويحكمونه على أبلغ ما يمكن، فأحضرت الأواني منه، وأشار تعرضها علي، فمثلت قائماً، وتناولتها وشربت واستطبت، ووقع ذلك منه أحسن المواقع).

1 - وافي، د. عبد الواحد، عبقریات ابن خلدون، الطبعة الثانية 1404هـ، 1984م، ص 116 - 117، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية .

والملفت أنه يمدح السلطان وأهل البلد في عقب وصفه وشرحه فيقول: "وما فعل معك، قلت كل خير، بر مقدمي، وأرغد قراي... رحمه الله وجزاه". ويقول: "وكيف كانت توليته إياك القضاء... فيرد: فلم يرض أهل الدولة بمكاني، فأدالوني منها بغيري جزاهم الله". والسؤال: المعروف أن تيمورلنك جاء للشام للاستيلاء عليها وابادة أهلها مع السلطان. فهو يحمل في قلبه العداء ضدهم. فكيف يستقيم الحال أن يسمع مدحهم بأذنيه من ابن خلدون والذي هو في موقع الخائف والمرتعب على نفسه وروحه من هذا القائد المغولي، ولو فرضت نفسي مكان ابن خلدون ما مدحت أحدا من أهلها حتى لا يقع في قلبه غضب علي، وأظن أن دهاء ابن خلدون لا يخونه في هذا المجال... إذن لمن كان يكتب ابن خلدون... هل حقيقة كان يكتب فعليا ما جرى معه بمجلس تيمورلنك بالتفصيل؟ أم الذي قاله في المجلس شيء وما كتبه شيء آخر.

ورأيي الذي أراه أن ابن خلدون توقع لكتابه هذا - والذي أرسله فيما بعد لمراكز مهمة - بعد مكتبة أبي العباس، سيقروه العديد من الشخصيات المهمة وأهل الديار التي يتحدث عنها. فزاد فيه ألفاظ المدح حتى لا يُحمل عليه غضباً واتهاماً بالخيانة من قبل أهل تلك الديار. ودليلي على ما ذهبت إليه: أن أولئك الذين لم يرضوا به قاضٍ، وولوا المنصب لقاضٍ غيره كانوا يبادلونه الكراهة - أما لكونه غريب عنهم أو لما ظهر من تصرفاته ضدهم - فالذي في موقف ابن خلدون كان يجدر أن تكون هذه حجة له يتقرب بها لقلب تيمورلنك، ويظهر من خلالها حقه وكراهيته لأهل دمشق وسلطانها. إذاً فما الذي دفعه لزيادة آخر العبارة في كتابه "جزاهم الله؟؟" وهو أسلوب مدح عند المسلمين فنقول لأحدهم "جزاك الله خيراً"... وكيف يستقيم طرده من وظيفته على يد أهل تلك الديار وبالمقابل يبادلهم التحية والجزاء بالخير؟.

إنني ألاحظ هنا قمة الدهاء والحيلة عند ابن خلدون... فهو لا يصرح بحقيقة ما جرى بينه وبين تيمورلنك في مجلسه. وهي الحقيقة الغائبة. وبالمقابل فهو يكتب ما ينفعه ويجزل له الشكر والثناء من أهل تلك الديار مستقبلاً. فما دار بينه وبين تيمورلنك وبرّد به قلب هذا القائد المغولي لا يتكلم به إطلاقاً. لكنه يفصح نفسه من غير قصد عندما يُفصح عن بعض خدماته لهذا القائد والمتمثلة برسم الخطط وتفصيل المواقع وتسهيل أمر الغزو له والتوسع والسيطرة في بلاد المغرب. فالحقيقة وبعبارة واضحة كان ابن خلدون يهيء لنفسه كل أجواء الريح والتميز سواء عبر كتاباته أو عبر تعاونه مع القائد المغولي وبدون أن يصرح بأكثر من ذلك.

كما أن أسلوب التملق عند ابن خلدون كان مقبولاً وبدون حرج عندما قال بالحديث على لسان تيمورلنك: "...فقال: لا يقنعني هذا، وأحب أن تكتب لي بلاد المغرب كلها، أقاصيها وأدانيها وجباله وأنهاره وقراه وأمصاره، حتى كأني أشاهده. فقلت: يحصل ذلك بسعادتك، وكتبت له بعد انصرافي من المجلس لما طلب من ذلك، وأوعبت الغرض فيه في مختصر وجيز يكون قدر اثنتي عشرة من الكرايس المنظمة القطع". فهل بعد هذا التعاون المنقطع النظير يمكن أن يشك بتعاونه مع القائد

المغولي. بالمقابل فلو أنه كتب فقال: حاولت أن أزور أو لا أخبره الحقيقة التي طلبها، لوجدت لابن خلدون العذر والحجة ليدافع بها عن نفسه. لكنه لم ينف أو يغير في القول أو حتى يعتذر عما فعله. وهذا الكلام الصريح فيه قمة الخطورة، حتى أنني أرى في نفسية ابن خلدون تحامل شديد على أمة العرب جميعاً، أو لعله ينتقم ويثور ضد الأوضاع والنكبات التي مرت به في حياته وينتقم كذلك من كل المتسببين بها عبر بلاد المغرب جميعاً. فيعتبر صداقته مع تيمورلنك عدو العرب والمسلمين هي علاج وفرصة انتقام لكل من دمر حياته أو أساء إليه.

وفي تحليل وتوضيح للدكتور جمعة شيخة، في محاضرة له بعنوان ابن خلدون ما له وما عليه يقول: "إن ابن خلدون لم يكتف بالتملق إلى الملوك والزعماء بل كان له تملق من نوع آخر هو تملق الخيانة، وهذا يتضح في تملقه لتيمورلنك حين غزا دمشق فقد كتب تقريراً عن جغرافية المغرب أثناء بقاءه عند تيمورلنك، وأضاف أن هذا التقرير، اختفى من الوجود ولم يعد له أثر ومن المرجح أن ابن خلدون نفسه هو الذي أخفى هذا التقرير وأتلفه لكي لا يكون عاراً عليه"¹.

إن دهاء ابن خلدون جعله لا يترك لأحد حجة عليه أو ممسك يمكن أن يتهمه به مستقبلاً بالخيانة أو العمالة لهذا المجرم الغاصب. فلذلك هو مثلاً يبرر لنفسه ما قاله وما فعله لتيمورلنك؛ بسبب خوفه من الخطف والتعنيف والاهانة من جند المسلمين في مصر. فهو يذكر أفعال أولئك الجند التابعين للسلطان المملوكي من خطفهم لأحد القضاة في الطريق وطلبهم للفتاء². فيقول: "أسره التابعون لعسكر

1 - شيخة، جمعة شيخة، "محاضرة بعنوان ابن خلدون ماله وما عليه"، ضمن الموسم الثقافي لدار الآثار الإسلامية، في السابعة من مساء الاثنين 2007/11/5 بمركز الميدان الثقافي (مقر منطقة حولي التعليمية). قدم المحاضرة وأدار حولها النقاش الدكتورة هناء البارون الأستاذة بالمعهد العالي للفنون المسرحية. الموقع على النت: جريدة النهار الكويتية، العدد 66 - 2007/11/08، تاريخ الطباعة 2016/11/4،

<http://www.annaharkw.com/Annahar/ArticlePrint.aspx?id=30946>

2 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، م.س، ص 290-292. يظهر ذلك في قوله: (ثم جلست وسكتنا، وقد غلبني الوجع بما وقع من نكبة قاضي القضاة الشافعية، صدر الدين المناوي، أسره التابعون لعسكر مصر بشقحب، وردوه، فحبس عندهم في طلب الفدية منه، فأصابنا من ذلك وجع، فزورت في نفسي كلاماً أخاطبه به، وأتلفه بتعظيم أحواله، وملكه. وكنت قبل ذلك بالمغرب قد سمعت كثيراً من الحدثن في ظهوره، وكان المنجمون المتكلمون في قرانات العلويين يترقبون القرآن العاشر في المثلة الهوائية، وكان يترقب عام ستة وستين من المائة السابعة. فلقبت ذات يوم من عام أحد وستين بجامع القرويين من فاس، الخطيب أبا علي بن باديس خطيب قسنطينة، وكان ماهراً في ذلك الفن، فسألته عن هذا القرآن المتوقع، وما هي آثاره، فقال لي: يدل على ثائر عظيم في الجانب الشمالي الشرقي، من أمة بادية أهل خيام، تتغلب على الممالك، وتقلب الدول، وتستولي على أكثر المعمور. فقلت: ومتى زمنه. فقال: عام أربعة وثمانين تنتشر أخباره. وكتب لي بمثل ذلك الطبيب "ابن زرزر" اليهودي، طبيب ملك الإفرنج "ابن أذفونش" ومنجم. وكان شيعي رحمه الله إمام المعقولات محمد بن إبراهيم الأبلبي متى فافوضته في ذلك، أو سابلته عنه يقول: أمره قريب، ولا بد لك إن عشت أن تراه، أما المتصوفة فكنا نسمع عنهم بالمغرب لرقيهم لهذا الكائن، ويرون إن القائم به هو الفاطمي المشار إليه في الأحاديث النبوية من الشيعة وغيرهم، فأخبرني يحيى بن عبد الله حافد الشيخ أبي يعقوب البادسي كبير الأولياء بالمغرب، إن الشيخ قال لهم ذات يوم، وقد انفصل من صلاة الغداة: إن هذا اليوم ولد فيه القائم الفاطمي، وكان ذلك في عشر الأربعين من المائة الثامنة، فكان في نفسي من ذلك كله ترقب له. فوقع في نفسي لأجل الوجع الذي كنت فيه أن أفافوضه في شيء من ذلك يستريح إليه، ويأس به مني، ففاتحته وقلت: أيدك الله! لي اليوم ثلاثون أو أربعون سنة أتمنى لقاءك. فقال لي الترجمان عبد الجبار: وما سبب ذلك، فقلت: أمران، الأول أنك سلطان العالم، وملك الدنيا، وما أعتقد أنه ظهر في الخليفة منذ آدم لهذا العهد ملك مثلك،=

مصر بشقحب". وهو بهذا يعطي العذر لنفسه والحكم براءته على التجائه لتيمورلنك. كمن يقول البحر من امامي والعدو من خلفي فاخترت أقل الضررين. فابن خلدون وجد أن شخصه معرض لخطر القتل أو الاعتقال ان هو خرج من عند تيمورلنك أو غادر مكانه، كذلك فأخف الضررين - حسب ما فهمته من رأيه - هو البقاء في ظل هذا القائد المغولي، فهو أسلم لنفسه وأحفظ لحياته. ناهيك عما قد يناله من خير ونصيب وافر من عطايا ومنح هذا القائد. ثم يعطي لنفسه البراءة من جهة أخرى فيمن قد يفكر بعد القراءة باتهام ابن خلدون فالينظر الى أفعال الجند المعروفين بحماسة المسلمين وليعذرهم بأفعاله، ولتفكيره بمدح تيمورلنك واعطائه كافة التفاصيل التي طلبها. حيث يقول: "فزورت في نفسي كلاماً أخاطبه به، وأتلفه بتعظيم أحواله وملكه". كما أنه بدعائه أعطى مبرراً آخر وهو تصديقه للمنجمين الذين تنبؤوا عندما أخبروه بخروج هذا العظيم الذي يقلب الديار ويخرب البلاد فيقول: "وكننت قبل ذلك بالمغرب قد سمعت كثيراً من الحدثنان في ظهوره، وكان المنجمون المتكلمون...".

إن المدهش في الأمر أن ابن خلدون ساق أولاً المبررات لتعاونه مع تيمورلنك ثم بعد ذلك صرح بما مدحه به بدعائه وحنكته فقال: "وقع في نفسي لأجل الوجل الذي كنت فيه أن أفأوضه في شيء من ذلك يستريح إليه، ويأنس به مني، ففاتحته وقلت: أيدك الله! لي اليوم ثلاثون أو أربعون سنة أتمنى لقاءك..." لقد فكرت كثيراً وتساءلت لماذا يروي ابن خلدون هذه الفضائح التي قام بها مع تيمورلنك وهو يعلم أنها ستسبب له العنت والكراهية من قبل من يقرأها. وتوصلت الى نتيجة يمكن أن تكون حقيقية وصائبة ومفادها: أن مجلسه مع القائد المغولي كان به العديد من الشخصيات العربية والاسلامية والقضاة. وهم مثله يبحثون عن المناصب والشهرة والمال والحفاوة، وطبيعي أن تنشأ بينهم المنافسة المبنية على الحسد والمكر والايقاع بالخصم المنافس. فخاف أن يُنقل عنه شيء مما قاله ويُفهم ذلك بطريقة مهينة له، وتسبب له كراهية من يسمعه والرغبة بالانتقام منه. لذلك حرص على نقل ما جرى بشيء من الدهاء والتفصيل وإيجاد المبررات وشرح ما جال في نفسه والسبب لأقواله التي قالها لعدو العرب والمسلمين وتعاونه معه في رسم الخطط، فينجو بذلك من أي عقوبة متوقعة. مع أن هدفه فعليا شيئاً آخر وهو الذي قلته سابقاً والمبني على كراهيته الداخلية وحنقه على من تسبب له

ولست ممن يقول في الأمور بالجفاف، فإني من أهل العلم، وأبين ذلك فأقول: إن الملك إنما يكون بالعصبية، وعلى كثرتها يكون قدر الملك، وانفق أهل العلم من قبل ومن بعد، أن أكثر أمم البشر فرقتان: العرب والترك، وأنتم تعلمون ملك العرب كيف كان لما اجتمعوا في دينهم على نبيهم، وأما الترك ففي مزاحمتهم لملوك الفرس وانتزاع ملكهم أفراسياب خراسان من أيديهم شاهد بنصايبهم من الملك. ولا يساويهم في عصبيتهم أحد من ملوك الأرض من كسرى، أو قيصر، أو الإسكندر، أو بختنصر، أما كسرى فكبير الفرس وملكهم، وأين الفرس من الترك، وأما قيصر والإسكندر فملوك الروم، وأين الروم من الترك، وأما بختنصر فكبير أهل بابل، والنبط. وأين هؤلاء من الترك، وهذا برهان ظاهر على ما ادعيت في هذا الملك. وأما الأمر الثاني مما يحملني على تمني لقائه، فهو ما كنت أسمع من أهل الحدثنان بالمغرب، والأولياء، وذكرت ما قصصته من ذلك قبل. فقال لي: وأراك قد ذكرت بختنصر مع كسرى، وقيصر، والإسكندر، ولم يكن في عدادهم، لأنهم ملوك أكابر. وبختنصر قائد من قواد الفرس، كما أنا نائب من نواب صاحب التخت، وهو هذا، وأشار إلى الصف القائمين وراءه، وكان واقفاً معهم، وهو ربيبه الذي تقدم لنا أنه تزوج أمه بعد أبيه ساطلمش فلم يلفه هناك، وذكر له القائمون في ذلك الصف أنه خرج عنهم).

بالنكبات والتشتت، ورغبته بالانتقام الرهيب. ان ابن خلدون ليس بالانسان الأحق والذي يزود العدو بمخططات مفصلة عن ديار المغرب العربي مع علمه بما يضمه هذا القائد المغولي المجرم لهذه الديار من دمار واستباحة للأعراض ونهب وحرق. ومع ذلك رسمها وكتبها له بكل أريحية وصفاء نفس ورغبة أكيدة. وهذا ما يؤكد على تحليلي وهو حمله في نفسه أطنان هائلة من الكراهية والانتقام والهيجان النفسي الناتج على كافة الديار التي عاش بها وسببت له فراق أهله وولده وأحبابه.

ولقد بذل ابن خلدون ما في وسعه من دهاء ومكر في مدح هذا الطاغية ليؤمّن على نفسه من جهة وليحسّن علاقته به ويفوز بتعاطفه وعطائه من جهة أخرى¹، حيث ألاحظ هنا قول تيمورلنك: "...ومنوشهر له علينا ولادة من قبل الأمهات....فيرد ابن خلدون: ثم أفضت مع الترجمان في تعظيم هذا القول منه...". فما كاد ينطق تيمورلنك بعلاقة نسب من جهة الأمهات مع منوشهر حتى بادر ابن خلدون بالمديح والتبجيل لهذا النسب طمعا في التقرب وتلطيف الأجواء وتحقيق الغاية من جلسة الحوار هذه.

وألاحظ كذلك أن ابن خلدون كانت في نفسه غصة وكراهية لفعل القضاة داخل القلعة. بل انه أظهر عدم رضاه بما اتفقوا عليه مع تيمورلنك بدليل كلمة "زعموا" وهي اتهام صريح لهم بالكذب والدجل والنفاق، فقال: "وخروج القضاة وفاء بما زعموا من الطاعة التي بذل لهم فيها الأمان". فإظهار القضاة الطاعة لتيمورلنك هو دجل وكذب. وذلك يعكس مقدار سوء العلاقة بينه وبين قضاة دمشق. خصوصاً

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م.ن، ص 292-293. أنظر قوله: (فرجع إلي فقال: ومن أي الطوائف هو بختنصر، فقلت: بين الناس فيه خلاف، فقيل من النبط بقية ملوك بابل، وقيل من الفرس الأولى، فقال: يعني من ولد منوشهر. قلت نعم هكذا ذكروا، فقال: ومنوشهر له علينا ولادة من قبل الأمهات. ثم أفضت مع الترجمان في تعظيم هذا القول منه، وقلت له: وهذا مما يجعلني على بني لقائه. فقال الملك: وأي القولين أرجح عندك فيه، فقلت إنه من عقبة ملوك بابل، فذهب هو إلى ترجيح القول الآخر. فقلت: يعكر علينا رأي الطبري، فإنه مؤرخ الأمة ومحدثهم، ولا يرجحه غيره، فقال: وما علينا من الطبري؟ نحضر كتب التاريخ للعرب والعجم، ونناظره. فقلت: وأنا أيضاً أناظر على رأي الطبري، وانتهى بنا القول، فسكت، وجاءه الخبر بفتح باب المدينة، وخروج القضاة وفاء بما زعموا من الطاعة التي بذل لهم فيها الأمان، فرفع من بين أيدينا، لما في ركبته من الداء، وحمل على فرسه فقبض شكائمه، واستوى في مركبه. وضربت الآلات حفافيه حتى ارتج لها الجو. وسار نحو دمشق، ونزل في تربة منجك عند باب الجابية، فجلس هناك، ودخل إليه القضاة وأعيان البلد، ودخلت في جملة، فأشار إليهم بالانصراف، وإلى شاه ملك نائبه أن يخلع عليهم في وظائفهم، وأشار إلي بالجلوس، فجلست بين يديه، ثم استدعى أمراء دولته القائمين على أمر البناء، فأحضروا عرفاء البنيان المهندسين، وتناظروا في إذهاب الماء الدائر بحفير القلعة، لعلهم يعثرون بالصناعة على منفذ، فتناظروا في مجلسه طويلاً، ثم انصرفوا، وانصرفت إلى بيتي داخل المدينة بعد أن استأذنته في ذلك، فأذن فيه. وأقيمت في كسر البيت، واشتغلت بما طلب مني في وصف بلاد المغرب، فكتبته في أيام قليلة، ورفعته إليه فأخذه من يدي، وأمر فوقعه بترجمته إلى اللسان المغلي. ثم اشتد في حصار القلعة، ونصب عليها الآلات من المجانيق، والنفوط، والعرادات، والنقب، فنصبوا لأيام قليلة ستين منجنيقاً إلى ما يشاكلها من الآلات الأخرى، وضاق الحصار بأهل القلعة، وتهدم بناؤها من كل جهة، فطلبوا الأمان).

وأنه كان قاضيا. وهذا يُظهر أن المنافسة بينهم كانت على أشدها وابن خلدون لم يكن ليتترك لهم المجال في أخذ نصيب من قلب تيمورلنك على حسابه.

واني أتساءل بماذا أصنف ذوبان ابن خلدون في خدمة هذا الطاغية. أليس هو الآخر كان يحرص على منافستهم في تقديم أسمى آيات الطاعة والخدمة لتيمورلنك، أم أن هذا الفعل حلال له وحرام على سائر القضاة، وكلامه هذا فيه تناقض عجيب بين فعله وإشارته الى فعل القضاة. وهذا كله يظهر الحالة النفسية الحانقة والكارهة لكل تلك الأوضاع وأولئك الأشخاص إضافة لشخصيته الميكافيلية الباحثة عن المنصب والزعامة بأي وسيلة كانت والتي كان يحياها ابن خلدون. حتى أنه من شدة الصراع النفسي في داخله لم يستطع أن يقارن بين فعله وفعل القضاة واختلط عليه الأمر، فظن أن فعله محمود ولم يستاء من تصرفه حتى ولو بكلمة بسيطة، بينما يتهم القضاة بالكذب والنفاق والتدليس.

والمدهش أكثر والمثير للريبة أن ابن خلدون يظن نفسه أنه من بلاد تيمورلنك أو حتى من أعوانه. فلا يستاء من تصرفه القائم على الخيانة ومخالفة الشرع والدين الذي ينتمي اليه. فأراه يتكلم عن تعاونه مع تيمورلنك بكل وضوح وبساطة وبدون لوم للنفس. ثم يعقّب بعد ذلك بذكر الجرائم التي قام بها هذا الطاغية وبسلسلة تدعو الى الدهشة والغرابة فيقول: "وأقمت في كسر البيت، واشتغلت بما طلب مني في وصف بلاد المغرب، فكتبته في أيام قليلة، ورفعته إليه فأخذه من يدي، وأمر فوقعه بترجمته إلى اللسان المغلي، ثم اشتد في حصار القلعة، ونصب عليها الآلات من المجانيق، والنفوط، والعرادات، والنقب..."¹.

وهو كذلك لم يحاول أن يدافع عن نفسه، أو يأتي بحجة أو شيء يدفع اللوم عنه مستقبلا، وذلك بخصوص شرح التفاصيل التي طلبها تيمورلنك بدون مواربة أو مغالطة أو محاولة تزويرها وتغييرها حتى لا يستعملها هذا القائد ويدمر بها بلاد المغرب، وذلك كأن يقول مثلا: بأنه كان مجبورا على هذا الفعل، أو مرغما، أو خائفا على نفسه... إلخ. ولذلك فإن هذا يدعوني للأسف أن أعتقد بأن ابن خلدون كان غير مبالٍ في شرحه ورسمه وتوضيحه لمعالم وحدود بلاده المغرب ويقدمها لتيمورلنك على طبق من ذهب وكأنه يدعوه صراحة لغزوها وأن يفعل فيها ما فعله في حلب ودمشق. بل إن فعله هذا يعكس ما تنازعه نفسه من ويلات الحقد والكراهية والغیظ على من كان سببا في نكباته وأحزانه وفقدانه لمناصبه وفشل مخططاته التي سعى من خلالها للظفر بشيء من الرفعة والمنصب والجاه والسلطان.

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م.ن، ص 293 .

وفي تحليل آخر لهذه الرواية عن ابن خلدون، فقد دافع الكاتب والمفكر العربي اللبناني وليد نويهض عن موقف ابن خلدون، واعتبر تصرفه حقيقة مرتبط بما ذكره في مقدمته حول تطور الشعوب من البداوة ثم حصول القوة لها ثم ميلها للترف والتنعيم حتى تصل لمرحلة السقوط. ثم قاسها على المغول، وأن الأمر لا يعدو مع تيمورلنك سوى مفاوضات بأسلوب الملاطفة والتقرب حتى يصل منه الى اتفاق يحفظ فيه دماء العرب والمسلمين.

فيقول نويهض في مقالة له: "نستطيع أن نتفهم موقف الحاج المسالم انطلاقاً من فهمنا لقصده من العرض التاريخي لسيرة المغول - التتار -. فبدأ المغول من مرحلة الخشونة أو البداوة، فاندفعوا كالسيل الجارف يحرقون ويدمرون ويقتلون فهتكوا المدن والأمصاير والعواصم واستباحوا بغداد واجتاحوا الشام إلى أن هزمهم قطز- أمير الجيوش في نهاية العصر الأيوبي - واستولى المماليك على الحكم. ثم تحول المغول إلى الإسلام وانقسموا واستقر حالهم وخفت بداوتهم وانتقلوا بذلك إلى النعيم والترفع. ثم انقسمت دولتهم ثانياً ونهضت قوة بدوية جديدة تتميز بالخشونة والعنف على رأسها تيمورلنك - دولة صاعدة - في وقت تمرّ دولة المماليك بفترة اضطراب وانقسامات داخلية - صاحب مصر وأمراء الشام - وهو أمر يعطل إمكانات المدافعة ويسهل المهمة على تيمورلنك. انطلاقاً من هذا الفهم التاريخي قرأ صاحب المقدمة الموقف السياسي واعتقد أن ما حصل أمس - الغزوات الأولى - يمكن أن يحصل اليوم. وكما تحول المغول في موجدتهم الأولى إلى الإسلام يمكن إقناع المغولي تيمورلنك بالصلح وإنقاذ المدينة من الدمار والتخريب، وخصوصاً أن تاريخ الحروب التتارية يقوم على الغزو ثم الانسحاب. فهم شعوب بدوية لا تستقر في مدينة وتستولي عليها لتقيم الملك بل تمرّ في المدينة وتحرقها وتنتقل إلى أخرى وتكرر الأمر نفسه. المدافعة مغامرة حسب قانون ابن خلدون التاريخي وترجيح المفاضلة هو الأسلوب الأفضل لإقامة الصلح وإنقاذ المدينة... كان شاهد ابن خلدون على الحاضر هو الماضي ونجاح المسلمين في تحويل المغول إلى الإسلام على رغم انتصاراتهم العسكرية وتدميرهم الأمصار والمدن وصولاً إلى حرق ونهب عاصمة الخلافة العباسية آنذاك. فلماذا لا ينقذ المدينة من خلال ملاطفة هذا الطاغية واللعب على عواطفه ودغدغة أحلامه... وأهم ما في لقاءات ابن خلدون المتكررة مع تيمورلنك والتي دامت 35 يوماً. أنه يروي لنا ما قاله له من شروح في التاريخ والدروس المستخلصة من حوادثه. وتكشف تلك الروايات التي كتبها في أيامه الأخيرة أن الحاج لم يعدل نظريته في التاريخ "العصبية والدولة". بل إنه يدمج في شروحه بين نظريات المقدمة وحوادث تاريخه ويضيف عليها الكثير من المعلومات وخصوصاً تلك التي تتعلق بأمر المغول وصولاً إلى المماليك وعصرهم وهي كلها حوادث راهنة كان لصاحبنا دوره الخاص في مراقبتها وملاحظتها ومحاولاته الفاشلة لتعديلها.

فآخر ما كتبه السيرة يعتبر في مقام الوصية التاريخية التي تلخص كل عمره الثقافي والعلمي والمعرفي منذ طفولته في تونس إلى إقامته الطويلة في مصر¹.

بعد استعراض هذا المقال فإنني أختلف مع تحليل الكاتب والباحث وليد نويهض في هذا المجال، حيث يُسهّل هذا الفعل لابن خلدون ولا يحاول أن يلومه لمجرد أن خياراته كانت محدودة. فيعتبر أن خطة ابن خلدون كانت لا تحتل إلا خيارين: فهو إما أن يلاطف تيمورلنك ويفاوضه ليصل معه إلى مصلحة مشتركة يخدم بها العرب من أهل دمشق والقلعة، ويرفع الحصار عنها. ويكون بذلك قد استخدم ذكاه وعبقريته، وطبق نظريته التي أوردها في مقدمته حول نشوء الدول واندثارها. وإما أن يحجم عن ذلك فيكون الدمار والخراب. وبالمقابل فاني أتساءل: كيف يُفسّر اعتراف ابن خلدون بخوفه من جند مصر عند القائم القبض على أحد القضاة، وأنه خاف البادرة على نفسه فرأى أن يتعامل مع هذا المغولي بما يكسب وده ويبعد الشر عن نفسه؟.

وإن ما يثير الغيظ والدهشة أن ابن خلدون أطنب بأريحية وهدوء نفس ولطافة أعصاب في شرح تفاصيل الدمار والحرق والتخريب والنهب الذي لحق بدمشق وقلعتها بكل سلاسة وسهولة. وكأن ما يجري أمراً عادياً. بل أنه يصف - بأسلوبه الخاص وبما لا يظهر منه الحزن والاستنكار - تلك النار التي اشتعلت فلم تتطفيء لأيام بمنازلها وبيوتها وقد لحقت السنة لهبها بالجامع الأعظم. ومن شدتها ذاب الرصاص المصبوب في بعض جدرانه وسقفه. وتُعظم المصيبة والبلاء، وتزداد دهشتي، عندما ينطق بكلمات تنم عن برودة أعصابه واستهانته بما جرى² وذلك عند قوله: "...وكان أمراً بلغ مبالغه

1- نويهض، وليد نويهض، "اللقاء مع تيمورلنك والوقوف على حريق دمشق"، رحلة ابن خلدون إلى الشام 2، مقال صحفي، صحيفة الوسط، العدد 3115 - الجمعة 18 مارس 2011م الموافق 13 ربيع الثاني 1432هـ.

<http://www.alwasatnews.com/news/532760.html>

2- ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م، ن، ص 293-294. أنظر قوله: (وكان بها جماعة من خدام السلطان ومخلفيه، فأمنهم السلطان تمر، وحضروا عنده. وخرب القلعة وطمس معالمها، وصادر أهل البلد على قناطير من الأموال استولى عليها بعد أن أخذ جميع ما خلفه صاحب مصر هنالك من الأموال والظهر والخيام ثم أطلق أيدي النهابة على بيوت أهل المدينة، فاستوعبوا أناسيها، وأمتعتها، وأضرموها النار فيما بقي من سقط الأقمشة والخرثي، فاتصلت النار بحيطان الدور المدعمة بالخشب، فلم تزل تتوقد إلى أن اتصلت بالجامع الأعظم، وارتفعت إلى سقفه، فسال رصاصه، وتهدمت سقفه وحوائطه، وكان أمراً بلغ مبالغه في الشناعة والقيح. وتصاريف الأمور بيد الله يفعل في خلقه ما يريد، ويحكم في ملكه ما يشاء. وكان أيام مقامي عند السلطان تمر، خرج إليه من القلعة يوم أمن أهلها رجل من أعقاب الخلفاء بمصر، من ذرية الحاكم العباسي الذي نصبه الظاهر بيبرس، فوقف إلى السلطان تمر يسأله النصفة في أمره، ويطلب منه منصب الخلافة كما كان لسلفه، فقال له السلطان تمر: أنا أحضر لك الفقهاء والقضاة، فإن حكموا لك بشيء أنصفتك فيه. استدعى الفقهاء والقضاة، واستدعاني فيهم، فحضرنا عنده وحضر هذا الرجل الذي يسأل منصب الخلافة، فقال له عبد الجبار: هذا مجلس النصفة فتكلم. فقال: إن هذه الخلافة لنا ولسلفنا، وإن الحديث صح بأن الأمر لبني العباس ما بقيت الدنيا، يعني أمر الخلافة. وإني أحق من صاحب المنصب الآن بمصر، لأن آبائي الذين ورثتهم كانوا قد استحقوه، وصار إلى هذا بغير مستند، فاستدعى عبد الجبار كلاً منا في أمره، فسكتنا برهة، ثم قال: ما تقولون في هذا الحديث، فقال رهان الدين بن مفلح: الحديث ليس بصحيح. واستدعى ما عندي في ذلك فقلت: الأمر كما قلتم من أنه غير صحيح، فقال=

في الشناعة والقبح، وتصاريح الأمور بيد الله يفعل في خلقه ما يريد، ويحكم في ملكه ما يشاء....".
فكأنه يرجع اللوم والأسباب لمجرد أنها مقدرة عند الله فحصلت، وليس أكثر من ذلك.

وابن خلدون لم يحاول الخوض في بيان الأسباب الحقيقية لهذا الدمار والفضائع الحاصلة. اما لرضاه واستهانتة بما جرى، فهي تسلي نوازعه الداخلية وتشفي غليله ممن كادوا له. وإما خوفا ممن سيقراً ما يكتبه فيما بعد، فيتهم بالميل لأحد أطراف الذين ينتقدهم ويكون ذلك سبباً للانتقام منه. وإما كراهة لذلك الواقع كله. فأحب أن يمر عنه مرَّ الكرام ولا يحاول تعذيب نفسه ونفس القارئ بقصص وشروحات تسبب النقمة والفرقة والفتنة.

ومهما كان السبب فاني لا أعذر ابن خلدون على تلك الكلمات التي يشتم المرء من حروفها عدم المبالاة والاهتمام لما جرى. كما أن المثير للانتباه تعامل ابن خلدون مع هذا الطاغية عقب ما وصف من فعله الشنيع فيصفه بما يصف به أمراء وملوك زمانه بلفظ السلطان فيقول: "فقال السلطان تمر".
ألهذا الحد كان يعتبر تيمورلنك من المقربين الى نفسه حتى بدون محاولة لانكار فعله؟ أو اظهار السخط على مجازره. بل لا يكلف خاطره الترحم على من مات على يد هذا الطاغية وهم بالمئات، نساء وأطفالاً وشيوخاً. ومنهم من نُهبَت أمواله ومنهم من أخذت زوجته ومنهم من أغتصبت ابنته سواء في حلب أو دمشق. فما هذا السكوت الغريب والعجيب؟ وما هذا المدح المريب لتيمورلنك؟ هل هو الحقد الدفين والتشتم المهين؟؟ أم هو الخوف والرعب من أتباعه وأعدائه؟؟ أم هي ثورة غضب داخلية جارفة على كل القيم والمعاني التي نشأ عليها ابن خلدون، سببتها له نكباته والكوارث التي مر بها وأتعبته وجعلت منه كائناً آخر ينظر الى الفضائع ببرود أعصاب واستهانة وبدون انكار.

السلطان تمر: فما الذي أصر الخلافة لبني العباس إلى هذا العهد في الإسلام؟ وشافهني بالقول، فقلت: أيدك الله! اختلف المسلمون من لدن وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، هل يجب على المسلمين ولاية رجل منهم يقوم بأمرهم في دينهم ودنياهم، أم لا يجب ذلك. فذهبت طائفة إلى أنه لا يجب، ومنهم الخوارج، وذهب الجماعة إلى وجوبه، واختلفوا في مستند ذلك الوجوب، فذهب الشيعة كلهم إلى حديث الوصية، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى بذلك لعلي، واختلفوا في تنقلها عنه إلى عقبه إلى مذاهب كثيرة تشذ عن الحصر. وأجمع أهل السنة على إنكار هذه الوصية، وأن مستند الوجوب في ذلك إنما هو الاجتهاد، يعنون أن المسلمين يجتهدون في اختيار رجل من أهل الحق والفقه والعدل، يفوضون إليه النظر في أمورهم، ولما تعددت فرق العلوية وانتقلت الوصية بزعمهم من بني الحنفية إلى بني العباس، أوصى بها أبو هاشم بن محمد بن الحنفية إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وبث دعائه بخراسان. وقام أبو مسلم بهذه الدعوة، فملك خراسان والعراق، ونزل شيعتهم الكوفة، واختاروا للأمر أبا العباس السفاح بن صاحب هذه الدعوة، ثم أرادوا أن تكون بيعته على إجماع من أهل السنة والشيعة، فكاتبوا كبار الأمة يومئذ، وأهل الحل والعقد، بالحجاز والعراق، يشاورونهم في أمره، فوقع اختيارهم كلهم على الرضى به، فبايع له شيعته بالكوفة ببيعة إجماع وإصفاق. ثم عهد بها إلى أخيه المنصور، وعهد بها المنصور إلى بنيه، فلما تزل متناقلة فيهم، إما بعهد أو باختيار أهل العصر، إلى أن كان المستعصم آخرهم ببغداد. فلما استولى عليها هولاكو وقتله، افترق قريته، ولحق بعضهم بمصر، وهو أحمد الحاكم من عقب الراشد، فنصبه الظاهر بيبرس بمصر، بممالة أهل الحل والعقد من الجند والفقهاء. وانتقل الأمر في بيته إلى هذا الذي بمصر، لا يعلم خلاف ذلك. فقال لهذا الرافع: قد سمعت مقال القضاة، وأهل الفتيا، وظهر أنه ليس لك حق تطلبه عندي. فانصرف راشداً).

ثم إني قد لاحظت في ختام روايته هذه عدة أمور مثيرة للاهتمام والاستهجان، ومنها أن ابن خلدون كان يعرف أن الهدايا تقربه من قلب تيمورلنك وتحقق له غايته وطموحه. لكنه أراد أن يعتبر هذه الحركة منه ليست من دهائه إنما هي من نصيح بعض الأصحاب له من غير ذكر لأسمائهم ومواقعهم وذلك عندما يقول: "...كنت لما لقيته، وتليت إليه من السور كما مر أشار علي بعض الصحاب ممن يخبر أحوالهم بما تقدمت له من المعرفة بهم، فأشار بأن أطرفه ببعض هدية، وإن كانت نزره فهي عندهم متأكدة في لقاء ملوكهم..."¹. فهي وسيلة من ابن خلدون في التخلص مما قد يوصمه بالخيانة أو معاونة هذا الطاغية ويضع شهادة البراءة له قبل التكلم عن فعله.

1- ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م، ن، ص 286-298. أنظر قوله: (الرجوع عن هذا الأمير تمر إلى مصر : كنت لما لقيته، وتليت إليه من السور كما مر أشار علي بعض الصحاب ممن يخبر أحوالهم بما تقدمت له من المعرفة بهم، فأشار بأن أطرفه ببعض هدية، وإن كانت نزره فهي عندهم متأكدة في لقاء ملوكهم، فانتقيت من سوق الكتب مصحفاً رائعاً حسناً في جزء محدو، وسجادة أنيقة، ونسخة من قصيدة البردة المشهورة للأبوصيري في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة. وجئت بذلك فدخلت عليه، وهو بالقصر الأبلق جالس في إيوانه، فلما رأيته مقبلاً مثل قائماً وأشار إلي عن يمينه، فجلست وأكابر من الجقطية حفاية، فجلست قليلاً، ثم استدرت بين يديه، وأشرت إلى الهدية التي ذكرتها، وهي بيد خدامي، فوضعتها، واستقبلني، ففتحت المصحف فلما رآه وعرفه، قام مبادراً فوضعه على رأسه. ثم ناولته البردة، فسألني عنها وعن ناظمها فأخبرته بما وقفت عليه من أمرها. ثم ناولته السجادة، فتناولها وقبلها. ثم وضعت علب الحلوى بين يديه، وتناولت منها حرفاً على العادة في التأنيس بذلك. ثم قسم هو ما فيها من الحلوى بين الحاضرين في مجلسه، وتقبل ذلك كله، وأشعر بالرضى به. ثم حومت على الكلام بما عندي في شأن نفسي، وشأن أصحاب لي هنالك. فقلت أيدك الله! لي كلام أذكره بين يديك، فقال: قل. فقلت أنا غريب بهذه البلاد غريبتين، واحدة من المغرب الذي هو وطني ومنشئي وأخرى من مصر وأهل جبلي بها، وقد حصلت في ظلك، وأنا أرجو رأيك لي فيما يؤنسني في غريتي، فقال: قل الذي تريد أفعله لك، فقلت: حال الغربة أنستني ما أريد، وعساك - أيدك الله - أن تعرف لي ما أريد. فقال: انتقل من المدينة إلى الأردو عندي، وأنا إن شاء الله أوفى كنه قصديك. فقلت يأمر لي بذلك نائبك شاه ملك، فأشار إلي به بامضاء ذلك، فشكرت ودعوت وقلت: وبقيت لي أخرى، فقال: وما هي، فقلت: هؤلاء المخلفون عن سلطان مصر. من القراء والموقعين، والدواوين، والعمال، صاروا إلى إيلالك والملك لا يغفل مثل هؤلاء فسلطانكم كبير، وعمالاتكم متسعة، وحاجة ملككم إلى المتصرفين في صنوف الخدم أشد من حاجة غيركم، فقال وما تريد لهم؟ قلت: مكتوب أمان يستقيمون إليه، ويعولون في أحوالهم عليه. فقال لكاتبه: أكتب لهم بذلك، فشكرت ودعوت. وخرجت مع الكاتب حتى كتب لي مكتوب الأمان، وختمه شاه ملك بخاتم السلطان، وانصرفت إلى منزلي. ولما قرب سفري واعتزم علم الرحيل عن الشام، دخلت عليه ذات يوم، فلما قضينا المعتاد، التفت إلي وقال: عندك بغلة هنا؟ قلت نعم، قال حسنة؟ قلت نعم، قال وتبيعه، فأنا اشتريها منك، فقلت: أيدك الله! مثلي لا يبيع من مثلك، إنما أنا أخدمك بها، وبأمثالها لو كانت لي، فقال: أنا أردت أن أكافئك عنها بالإحسان، فقلت: وهل بقي إحسان وراء ما أحسنت به، اصطنعتني، وأحللتني من مجلسك محل خواصك، وقابلتني من الكرامة والخير بما أرجو الله أن يقابلك بمثله، وسكت وسكت وحملت البغلة - وأنا معه في المجلس - إليه، ولم أرها بعد. ثم دخلت عليه يوماً آخر فقال لي: أتسافر إلى مصر. فقلت أيدك الله، رغبتي إنما هي أنت، وأنت قد أويت وكفلت، فإن كان السفر إلى مصر في خدمتك فنع، وإلا فلا بغية لي فيه، فقال لا، بل تسافر إلى عيالك وأهلك، فالتفت إلى ابنه، وكان مسافراً إلى شقحب لمرباع دوابه، واشتغل بإحاده، فقال لي الفقيه عبد الجبار الذي كان يترجم بيننا: إن السلطان يوصي ابنه بك، فدعوت له، ثم رأيت أن السفر مع ابنه غير مستبين الوجهة، والسفر إلى صفد أقرب السواحل إلينا أملك لأمر، فقلت له ذلك، فأجاب إلي، وأوصى بي قاصداً كان عنده من حاجب صفد ابن الداوياري، فودعته وانصرفت، واختلفت الطريق مع ذلك القاصد، فذهب عني، وذهبت عنه. وسافرت في جمع من أصحابي، فاعترضتنا جماعة من العشير قطعوا علينا الطريق، ونهبوا ما معنا، ونجونا إلى قرية هنالك عرايا. واتصلنا بعد يومين أو ثلاث بالصبيبة فخلفنا بعض الملبوس، وأجزنا إلى صفد، فأقمنا بها أياماً. ثم مر بنا مركب من مراكب ابن عثمان سلطان بلاد الروم، وصل فيه رسول كان سفر إليه عن سلطان مصر، ورجع بجوار رسالته، فركبت معهم البحر إلى غزة، ونزلت بها، وسافرت منها إلى مصر، فوصلتها في شعبان من هذه السنة، وهي سنة ثلاث وثمانمائة، وكان=

ثم في تفاصيل هديته أجده يبطن المديح لتيمورلنك في وصف تقبله للهدية، فيذكر تارة أنه وضع المصحف على رأسه، وتارة قبل السجادة، وهي علامات التقرب من المسلمين الذين سبق وأن حرق بيوتهم وديارهم وسبى نساءهم وحرأثرهم وأدمى قلوبهم وأجسادهم ونهب أموالهم وحوائجهم. فكيف يستقيم هذا؟ وهل هذه لفظة من ابن خلدون ليعذر فعله مع هذا الطاغية ولا تثار التهم والشبهات من حوله؟ وليعطي الحجة والبرهان على أن معدن هذا الطاغية صافي ونقي وظاهر وأنه قريب من هذا الدين فلا يلومه أحد على تعاونه معه أو مساعدته فيما طلب.

كما ألاحظ دهاء ابن خلدون في تناوله لقطعة من الحلوى حتى يأنس بها تيمورلنك فلا يشك به. وتظهر نوايا ابن خلدون الحقيقية من هداياه تلك عندما يصرح بذلك بأنه كان يحوم حول مطالب ومصالح له ولبعض أصحابه هناك. فعندما شعر برضى تيمورلنك وقبوله للهدية، بدأ في الطلب. وكلام ابن خلدون يفضحه أكثر مما يبرؤه؛ فطلبه لنفسه كان بطريقة ملتوية يقيس من خلالها درجة رضى تيمورلنك عن أفعاله وخدماته التي قدمها له، فهو هنا يُظهر نفسه بمظهر المسكين الجاهل البرئ عند قوله: "أنا غريب بهذه البلاد غريبتين... وأنا أرجو رأيك لي فيما يؤنسني في غريبتى، فقال: قل الذي تريد أفعله لك، فقلت: حال الغربة أنستني ما أريد، وعساك - أيدك الله - أن تعرف لي ما أريد". فما الذي يحصل هنا؟؟... ابن خلدون يطلب رأي تيمورلنك - الغريب أصلاً عن هذه الديار - بما ينفعه ويصلح حاله في هذه الغربة. ثم ان ابن خلدون يعتبر نفسه بدأ ينسى بسبب مرارة الغربة ويطلب الاسعاف من تيمورلنك لنفسه. ثم ان ابن خلدون يحرص على الدعاء لتيمورلنك الطاغية السفاح بقوله: "أيدك الله" تلطيفاً للجو معه وتحبباً لنفسه!!!

السلطان صاحب مصر، قد بعث من بابه سفيراً إلى الأمير تمر إجابة إلى الصلح الذي طلب منه، فأعقبني إليه. فلما قضى رسالته رجع، وكان وصوله بعد وصولي، فبعث إلي مع بعض أصحابه يقول لي: إن الأمير تمر قد بعث معي إليك ثمن البغلة التي ابتاع منك، وهي هذه فخذها، فإنه عزم علينا من خلاص ذمته من مالك هذا. فقلت لا أقبله إلا بعد إذن من السلطان الذي بعثك إليه، وأما دون ذلك فلا. ومضيت إلى صاحب الدولة فأخبرته الخبر فقال وما عليك، فقلت إن ذلك لا يجمل بي أن أفعله دون اطلاعكم عليه، فأغضى عن ذلك، وبعثوا إلي بذلك المبلغ بعد مدة، واعتذر الحامل عن نقصه بأنه أعطيه كذلك، وحمدت الله على الخلاص. وكتبت حينئذ كتاباً إلى صاحب المغرب، عرفته بما دار بيني وبين سلطان الططر تمر، وكيف كانت واقعته معنا بالشام، وضمنت ذلك في فصل من الكتاب نصه: وإن تفضلتم بالسؤال عن حال المملوك، فهي خير والحمد لله، وكنت في العام الفارط توجهت صحبة الركاب السلطاني إلى الشام عندما زحف الططر إليه من بلاد الروم والعراق، مع ملكهم تمر، واستولى على حلب وحماة وحمص وبلبك، وخربها جميعاً، وعاثت عساكره فيها بما لم يسمع أشنع منه. ونهض السلطان في عساكره لاستنقاذها، وسبق إلى دمشق، وأقام في مقابلته نحواً من شهر، ثم قفل راجعاً إلى مصر، وتخلف الكثير من أمرائه وقضاته، وكنت في المخلفين. وسمعت أن سلطانهم تمر سأل عني، فلم يسع إلا لقاءه فخرجت إليه من دمشق، وحضرت مجلسه، وقابلني بخير، واقتضيت منه الأمان لأهل دمشق، وأقامت عنده خمسة وثلاثين يوماً، أباكره وأراوحيه. ثم صرفني، وودعني على أحسن حال، ورجعت إلى مصر. وكان طلب مني بغله كنت أركبها فأعطيته إياها، وسألني البيع فتأفقت منه، لما كان يعامل به من الجميل، فبعد انصرافي إلى مصر بعث إلي بثمانها مع رسول كان من جهة السلطان هنالك، وحمدت الله تعالى على الخلاص من ورطات الدنيا...).

وفي الحقيقة فقد تساءلت هل هذا ابن خلدون العبقرى أم غيره؟ لقد أظهر ابن خلدون في كلامه هذا من الدهاء ما يعجز عنه الفصحاء والبلغاء. وأراد أن يضرب ضربته الختامية مستعينا بدهائه ومكره رغم أن الحظ فيها قد لا يسعفه أو يخدمه. وقد يسند إليه تيمورلنك من المناصب ما لم يكن يتوقعه، بل قد يصدق عليه من الأموال - المنهوبة- ما لم يكن يحتسبه. وفيها أيضا مفتاح لقلب تيمورلنك وتحبب إليه وطلب العطف منه. فقد عرف ابن خلدون سر هذا الرجل من العظمة والجاه والكبر فأراد أن يدخل إليه من باب آخر يكسر فيه هذه العظمة. وقد نجح جزئيا عندما أنطقه بكلمة أبواب النعيم فقال متلطفا لابن خلدون: "قل الذي تريد أفعله لك".

لكن ابن خلدون يفشل هنا ولم يستغل جواب تيمورلنك له تمام الاستغلال، بل تهادى في طلب التعطف والانكسار، عندما أشعره بأن الغربة أنسته ما يريد، وطلب رأيه فيما يريد. فلعله يعطيه شيئا أكثر مما يتوقع أو ما قد يطلبه.

ولعلي هنا قد أفهم شيئا آخر وهو أن ابن خلدون قد بلغ به الخوف كل مبلغ كما سألين فيما بعد، فخاف أن يطلب شيئا يستهجنه تيمورلنك فيكون سببا لسخطه عليه وسجنه، أو قتله كما فعل ببعض القضاة حسب ما ذكره بعض المؤرخين. فاراد أن يترك الخيار له لينجو من سخطه، ولا يقع في سوء أعماله واختياراته. فقد كان حريصا بدهائه على الاجابة على تيمورلنك فهو الآخر كان يمتاز بالدهاء والخبث. وكان لأسئلته مغازٍ كثيرة يمتحن فيها عقول من يجالسهم. لكن المؤكد أن ابن خلدون، وحسب ما يروي، هو من فاتح تيمورلنك بطلبه، لذلك فاني أرجح الخيار الأول من طمع وشهوة مال ومنصب. لكن تيمورلنك يجيب ابن خلدون بما كان مفاجئا فيطلب منه الارتحال الى بلده وهناك يوفيه مطلبه. فلا يحاول ابن خلدون العصيان بل يقبل مباشرة خاضعا ذليلا. وكأنه يعيش في حالة رعب فيروي ويقول: "فقال: انتقل من المدينة إلى الأردن عندي، وأنا إن شاء الله أوفى كنه قصدك، فقلت يأمر لي بذلك نائبك شاه ملك، فأشار إليه بإمضاء ذلك، فشكرت ودعوت". وبعد ذلك يتوجه إليه بمطالب أصحابه في العمل وشغل وظائف في الدولة فيجيبه الى ذلك.

ثم أقرأ في روايته قصة البغلة التي تخصصه وعلم تيمورلنك بها وسؤاله عنها ثم عرضه ليشترىها ورد ابن خلدون عليه. والسؤال هل تيمورلنك الذي تجري أموال الدنيا من تحت يديه بحاجة الى بغلة ابن خلدون. وهل انقطعت البغال من أرض الشام. لقد فكرت في البداية أنه سؤال امتحان واختبار ليسمع ما هو رد ابن خلدون عليه: فيأتي رد ابن خلدون عليه بفصيح الكلام وبليغه، فيروي ويقول: "فلما قضينا المعتاد، التفت إلي وقال: عندك بغلة هنا؟ قلت نعم، قال حسنة؟ قلت نعم، قال وتبيعها، فأنا اشتريها منك، فقلت: أيدك الله! مثلي لا يبيع من مثلك، إنما أنا أخدمك بها، وبأمثالها لو كانت لي". لكن تيمورلنك يرد ويجيب بأنه ما أراد من ذلك الا مساعدة ابن خلدون في شئ من المال، حيث يقول

ابن خلدون على لسانه: "فقال: أنا أردت أن أكافئك عنها بالإحسان، فقلت: وهل بقي إحسان وراء ما أحسنت به، اصطنعتني، وأحللتني من مجلسك محل خواصك، وقابلتني من الكرامة والخير بما أرجو الله أن يقابلك بمثله، وسكت وسكت وحملت البغلة - وأنا معه في المجلس - إليه، ولم أرها بعد".

لقد ظننت بداية أنها حرب أدمغة... لكن المفاجأة أن تيمورلنك يأمر بأخذ وسحب البغلة من تحت يد ابن خلدون، ولا يفطن الى ارسال ثمنها الا بعد مدة من الزمن. والملاحظ أن ابن خلدون يبالغ مرة أخرى في تمجيد تيمورلنك والدعاء له بتذلل عجيب وهو الذي عرف عنه أنه القاضي الذي لا يحابي ولا يجامل وينصف من غير تحيز فأراه يقول: "فقلت: أيدك الله! مثلي لا يبيع من مثلك، إنما أنا أخدمك بها، وبأمثالها لو كانت لي، فقال: أنا أردت أن أكافئك عنها بالإحسان، فقلت: وهل بقي إحسان وراء ما أحسنت به، اصطنعتني، وأحللتني من مجلسك محل خواصك، وقابلتني من الكرامة والخير بما أرجو الله أن يقابلك بمثله، وسكت وسكت وحملت البغلة - وأنا معه في المجلس - إليه، ولم أرها بعد".

اذن فالقضية بغلة وقعت تحت عين تيمورلنك فاستحسنها وطمع بها وأخذها عنوة لكن بعد مناقشة مع ابن خلدون. أو أن رد ابن خلدون كان بدهاء أخرج به تيمورلنك، وشعر فعلا بهذا الاحراج فلم يحب أن يظهر بمظهر الماكر فأخذ البغلة على الحقيقة حتى لا يظهر نفسه كاذبا.

والقصد فيما سبق أن ابن خلدون كان يتلاعب بالكلمات معه ليصل الى هدفه وغايته تحت قاعدة "الغاية تبرر الوسيلة"، ولو كان ذلك فيه اهانة لذاته أو اساءة لشخصه. ثم ألاحظ أن تيمورلنك ينسى أو يتناسى العرض الذي قدمه لابن خلدون بعد أيام عندما عرض عليه بداية نقله أو دعوته بالارتحال الى بلده ليجيب مطلبه ويحقق غايته، مع عدم توضيحه لكيفية ذلك وهل فعلا كان ينوي خدمته أو البطش به؟ ثم موافقة ابن خلدون على هذا العطاء!!

فألاحظ أن تيمورلنك يعرض عليه عرضا جديدا بالسفر الى مصر مبررا ذلك لمقابلة أهله ورؤيتهم!! فبماذا كان يفكر تيمورلنك؟ وهل هو مجرد اللعب باعصاب ابن خلدون ليصل منه الى هدف معين؟ والحقيقة تظهر بالمقابل على لسان ابن خلدون عندما يجيبه باجابة بليغة مرة أخرى فيقول: "فقال لي: أتسافر إلى مصر. فقلت أيدك الله، رغبتني إنما هي أنت، وأنت قد أويت وكفلت، فإن كان السفر إلى مصر في خدمتك فنعم، وإلا فلا بغية لي فيه، فقال لا، بل تسافر إلى عيالك وأهلك".

لكن ابن خلدون يُظهر فعلا تخوفه من هذا العرض عندما يقول لاحقا عن مرافقته لابن تيمورلنك: "ثم رأيت أن السفر مع ابنه غير مستبين الوجهة، والسفر إلى صفا أقرب السواحل إلينا أملك لأمرى، فقلت له ذلك، فأجاب إليه". فالقضية هي قضية خوف ورعب بعد فشله في تحقيق مصالحه وأطماعه وغاياته. وتيمورلنك كما يظهر لا يحفل بأمر ابن خلدون ولا بأمر أي أنسان انما هدفه هو الآخر

أطماعه وتوسعاته الاستيطانية عبر البلاد العربية. فبعد أن فكر بأخذ ابن خلدون الى بلده عندما قال له: "قال: انتقل من المدينة إلى الأردن عندي...". هاهو يطرده بطريقة غير مباشرة عندما يعرض عليه السفر الى مصر، ومع كل ذلك فابن خلدون لا زال يستमित بخدمته وشكره والدعاء له.

وتتلازم المصائب وتلحق بابن خلدون أينما ذهب وحل. وتكون سببا رئيسيا في تنقيح مقدمته فيما بعد عبر ما احتوته من صراع وتوتر نفسي، ودعوة صريحة للحرب والنزال في كافة المواقع كما سألين لاحقا في الباب الثاني. بل تكون هي السمة الغالبة على شخصه عبر كلماته وسطوره.

وتقع مصيبة أخرى لابن خلدون عندما يروي فيقول: "وسافرت في جمع من أصحابي، فاعترضتنا جماعة من العشير قطعوا علينا الطريق، ونهبوا ما معنا، ونجونا إلى قرية هنالك عرايا". لقد دقت بكلمة عرايا، وفكرت بتبعاتها النفسية مرارا. فشيخ جليل ومؤرخ وقاض عبقرى يسير لمسافة طويلة في الصحراء مع صحبه...عرايا...نعم عرايا...كل منهم ينظر لصاحبه. ويملؤهم الخوف أن يلتقوا بامرأة أو رحالة فيراهم على هذه الحال. ويظلوا كذلك حتى يصلوا الى بعض أطراف العمران فينقذونهم ببعض الملابس فيقول: "واتصلنا بعد يومين أو ثلاث بالصبيبة فخلفنا بعض الملبوس".

إن تصوري للوضع النفسي المزري الذي مرَّ به ابن خلدون وهذه الاهانة الفضيعة قد ولدت لديه حالة من الغضب العارم والسخط على الوضع الذي وصلت اليه تلك البلاد. وكان سببا في اهانتته وتعريته ورعبه وخوفه. فجعل من العصبية والشدة والقهر والحرب وقوة الملك والسلطان منهجا رئيسيا في بيان سياسة الحكم النافع لهذه الديار والتي لا ينقذها من هذه الحال ويعيدها الى الوضع الآمن الا هذه القوة المتمثلة بملك قوي لديه كافة القدرات الجسدية والعقلية والعشائرية العصبية. فكانت مقدمته بهذا النهج البنيوي.

ومع كل هذه الشدائد فابن خلدون لازال يحسب للسلطين كل حساب. وتتأبّع البلايا جعله يعيش في حالة رعب دائم أن يقع في السجن أو العذاب. ويظهر ذلك عند عودة رسول السلطان في مصر من طلب الصلح مع تيمورلنك، وبدون أن يكون فارغ اليد بل يحمل فيها ثمن البغلة. ويتوجه أولا الى بلاط السلطان ليخبره بجواب تيمورلنك، وبالمبلغ المالي الذي يحمله الى ابن خلدون.

وأظن أن السلطان تساءل ما قصة هذا المبلغ لابن خلدون من تيمورلنك الطاغية؟ وما قصة هذا التعاون والحب الخفي؟ ويصل الخبر لابن خلدون، وتكاد بغلة أن تذهب برأس ابن خلدون...لكنه يفلح في انقاذ نفسه من الهاوية، والوقوع في شر أعماله مجددا، وذلك عندما يرفض أخذ المبلغ قبل موافقة السلطان على أخذه له، وحتى لا يبقى في نفس السلطان أي شكوك تجاهه وحتى لا يقع تحت طائلة الاتهام بالتعاون والاتصال الخفي مع عدو العرب والمسلمين تيمورلنك.

يروى ابن خلدون كلام رسول السلطان اليه بقوله: "إن الأمير تمر قد بعث معي إليك ثمن البغلة التي ابتاع منك، وهي هذه فخذها، فإنه عزم علينا من خلاص ذمته من مالك هذا، فقلت: لا أقبله إلا بعد إذن من السلطان الذي بعثك إلي، وأما دون ذلك فلا، ومضيت إلى صاحب الدولة فأخبرته الخبر فقال وما عليك، فقلت إن ذلك لا يجمل بي أن أفعله دون اطلاعكم عليه، فأغضى عن ذلك". وبعدها يتنفس ابن خلدون الصعداء من البلى والرزايا التي تلحق به فيقول: "وحمدت الله على الخلاص". لكنه بفطنته وحنكته لا يغفل سلطان بلده المغرب الذي ينتظره بالمرصاد بعد عودته من ترحاله وما قد يكون قد وصله من قصص عن ابن خلدون. فيستيق ابن خلدون الأحداث ويرسل إليه برسالة حوت تفاصيل رحلته، لكن منقوصة ومجتزئة، فيذكر له فيها ما يوفر له المدح والتبجيل وتحقيق الأطماع والمناصب والمال والجاه. ويحذف منها ما قد يهينه ويسبب له الأذى والهوان. بل انه يختصرها اختصاراً عجيباً فيقول في ختامها: "وسمعت أن سلطانهم تمر سأل عني، فلم يسع إلا لقاءه فخرجت إليه من دمشق، وحضرت مجلسه، وقابلني بخير، واقتضيت منه الأمان لأهل دمشق، وأقامت عنده خمسة وثلاثين يوماً، أباكره وأراوحيه. ثم صرفني، وودعني على أحسن حال، ورجعت إلى مصر. وكان طلب مني بغله كنت أركبها فأعطيته إياها، وسألني البيع فتأففت منه، لما كان يعامل به من الجميل، فبعد انصرافي إلى مصر بعث إلي بثمانها مع رسول كان من جهة السلطان هنالك، وحمدت الله تعالى على الخلاص من ورطات الدنيا"¹.

إن ابن خلدون هنا لا يذكر سوى حضوره لمجلس تيمورلنك وطلبه الأمان لأهل دمشق، ثم توديعه له. ثم يسرد قصة البغلة وثمانها كونها أفتضح أمرها عند سلطان مصر، فخاف أن تصل أخبارها للمغرب فيتقول الناس عليه بشئ يعيبه ويهينه فبادر إلى إخبار السلطان بأمرها. ويختم بحمد الله على الخلاص من ورطات الدنيا. والعجيب أن ابن خلدون قد أخفى تماماً تعاونه المعيب مع تيمورلنك وافادته بخدمات قد تطير رقبته لأجلها. فأين خبر تحديد الحدود والمدن والدول ورسم المواقع والتفاصيل الذي قدمه كشرحا عاما لجغرافية المغرب على طبق من ذهب لتيمورلنك؟ وأين المديح وتفاصيل الطلبات لنفسه ولأهل دمشق من هذا الطاغية؟ وهذا ليس بعجيب على ابن خلدون والذي لا يترك فرصة إلا ويستغلها لكن بحذر شديد. فهو عائد الآن إلى بلده، ولا بد أن يقدم لنفسه عند سلطان المغرب ما يعيد له وضعه السابق ويرفع له شأنه ويحقق له غايته وأطماعه ومقصده.

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"، م.ن، ص 297-298 .

ملخص لأهم التعليقات النقدية على هذه الرواية:

أولاً :- في خضم بحثي عما قيل حول هذه الرواية لابن خلدون، وجدت عددا من المواضيع التي عمل أصحابها ومن خلالها، على تحليل محتواها والغوص في حروفها. ومنها تساؤلا لأحد الباحثين وهو الدكتور حسين سرمك حسن بعنوان: هل تم التستر على خيانة ابن خلدون؟ حيث يقول في الجواب على هذا السؤال: "لقد خان ابن خلدون. هذا المفكر العبقري، صاحب المقدمة، والفارس الاول في مجال علم الاجتماع. خان ابناء جلدته من اهل قلعة دمشق، مما ادى الى ذبحهم على ايدي التتار وحرقت مدينتهم بعد ان كانوا صامدين الى حد دفع عدوهم التتري تيمورلنك الى التفكير بعقد هدنة معهم. نعم لقد خان هذا المفكر ابناء قومه وصار عميلا للغازي وبدأ يرسم له الخرائط ويقدم المعلومات التفصيلية عن بلدان المغرب العربي تمهيدا لغزوها. نعم، لقد خان ابن خلدون، فلماذا هذا التستر على خيانتة؟ واقول التستر ولا اقول التغاضي او التغافل او التناسي او...او...إلخ، والأمثلة والبراهين كثيرة. تصوروا مفكرا عربيا مهما مثل الدكتور "محمد عابد الجابري" يؤلف كتابا يقع في 483 صفحة تحت عنوان: "فكر ابن خلدون العصبية والدولة . معالم نظرية خلدونية في التاريخ الاسلامي"، وصدر عن دار الشؤون الثقافية العامة ببغداد، ويتجنب تماما التطرق ولو بكلمة واحدة على الاقل الى المدة التي قضاها ابن خلدون في دمشق ودوره الخطير الذي لعبه هناك لمصلحة تيمورلنك. وخذوا كتابا ضخما اخر يقع في 686 صفحة وعنوانه: "الفكر الاخلاقي عند ابن خلدون" لمؤلفه الدكتور: عبدالله شريط اصدار المؤسسة الوطنية للكتاب والدار العربية للكتاب، الجزائر، ليبيا الطبعة الثالثة 1984، هذا الكتاب هو اصلا اطروحة دكتوراه يتحدث فيها المؤلف عن ادق تفاصيل الفكر الاخلاقي وما يلحقه من سلوك لدى ابن خلدون دون ان يمر ولو بكلمة واحدة على تلك الواقعة الخيانية، بل على العكس من ذلك نجد المؤلف يقدم المواعظ والنصائح الاخلاقية للقراء العرب انطلاقا من التنظيرات الاخلاقية لابن خلدون)¹.

اذن فالدكتور حسين سرمك يحمل على الذين يمرون مر الكرام عن هذه الحادثة مع ابن خلدون ولا يعلقون عليها، حتى انهم لا يحاولون التماس أي عذر لابن خلدون في حادثته هذه، والغريب أن أولئك الكتاب المحترمون يتجنبون الخوض فيها اما خشية الطعن فيه أو افشال بحوثهم حوله والتي أخذت منهم عناء طويلا، والدكتور لا يتحرج أن يصفها بالخيانة ويركز على هذه الكلمة، ثم يلوم الذين يتسترون عليها كما ذكرت.

ثانياً:- كما وجدت ايضا كتابا من مؤلفات وتحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي، وهو من اكثر الباحثين العرب تخصصا بابن خلدون تحت عنوان: "عقريات ابن خلدون". وفيه يتعرض لحياة وآثار ابن

1 - حسن، الدكتور حسين سرمك حسن، جريدة الاتحاد، الصحيفة المركزية للاتحاد الوطني الكردستاني، الأحد 2008/3/9 م، العدد/1787 السنة السادسة عشرة.

خلدون تفصيليا ويتحدث فيه عن لقاء ابن خلدون بتيمورلنك ويعلق على ذلك اللقاء والمساومات والتنازلات المهينة التي قدمها له بالقول: "ويظهر ان ابن خلدون كان قد عاوده حينئذ داؤه القديم، وساوره الحنين الى المغامرات السياسية، فكان يعلق على صلته بتيمورلنك امالا اخرى غير ما وفق اليه في شأن دمشق وشأن زملائه العلماء والقضاة...ولعله كان يرجو الانتظام في بطانة الفاتح والحظوة لديه، ولذلك اخذ يطنب في مدحه ويذكر له انه كان عظيم الشوق الى لقائه منذ امد طويل ويتنبأ له في مستقبله بملك عظيم مستدلا على صحة تنبؤاته بحقائق الاجتماع وأقوال المنجمين والمتنبئين بالغيب، ويظهر كذلك ان ابن خلدون قد آنس سداجة في هذا الفاتح مرحبا في المديح فاخذ ينفخ في كبريائه بهذه التنبؤات، ويروي ابن خلدون ما ذكره لتيمورلنك، بدون ان يصرح بما دعاه الى ذلك فيقول: "ففاتحته وقلت له: ايدك الله، لي اليوم ثلاثون او اربعون سنة اتمنى لقاءك، فقال لي الترجمان عبدالجبار: وما سبب ذلك؟ فقلت أمران الاول انك سلطان العالم وملك الدنيا، وما اعتقد انه ظهر في الخليقة منذ آدم لهذا العهد مثلك، ولست من يقول في الامور بالجفاف، فاني من اهل العلم، وأما الامر الثاني مما يحملني على تمنى لقائه فهو ما كنت اسمعه من اهل الحدثان وهم المنجمون والملمهون من المتنبئين بالغيب..."، ويكمل الدكتور وافي رأيه بالقول: "غير ان ابن خلدون لم يوفق الى تحقيق ما كان يأمله من تيمورلنك، فلم تمض اسابيع قلائل حتى سئم البقاء في دمشق"¹.

ثالثا: كما جاء انتقاد ابن خلدون واضحا وجسورا على يدي مبدعين كبيرين راحلين هما: سعدالله ونوس وعبدالرحمن منيف، فالاول من خلال مسرحيته الخطيرة والمسمى: "منمنمات تاريخية". والثاني من خلال مداخلته النقدية على هذه المسرحية في مقالته التي قال فيها: "...اعتمادا على ما تقدم نحاكم ابن خلدون، ليس بهدف الادانة وانما باستحضاره كنموذج لمتقف كبير قدم اضافات هامة ونوعية في قراءة المجتمعات...ان مثقفا بهذه الاهمية وبهذا الحجم وأيضا خلال تلك الفترة العصبية من تاريخ العرب في مواجهة الغزو التتري، كان يفترض ان يرفع ثقافته ومعارفه الى مستوى تاريخي خاصة وهو في تلك السن المتقدمة. ولعل الصمت، لو حصل، كان اقل المواقف التي يمكن ان تقبل له او منه، اما حين يسخر ثقافته ومنصبه السابق بتسويق الغزوة التترية ويكون نديما لتيمورلنك ويعتبره اعظم حاكم منذ ايام آدم...الخ فان في ذلك الغاء لعقلانية ابن خلدون تماما"².

رابعا: وفي وصف خطير يظهر حقيقة ما جال في نفس ابن خلدون. يذكر المؤرخ والمحلل ابن عريشاه في كتابه "عجائب المقدور في أخبار تيمور" نفاق ابن خلدون لتيمورلنك رغم المجازر والاحداث التي وصفناها فيقول: "فصل" ولما أقلع السلطان بفلك عساكره المشحون، وقع في بحر العساكر التيمورية قاضي القضاة ولي الدين بن خلدون، وكان من أعلام الأعيان، وممن قدم مع

1 - وافي، علي عبد الواحد وافي، "عقريات ابن خلدون"، الفصل الرابع، ص 91 - 95، اصدار عالم الكتب، القاهرة عام 1973.

2 - منيف، عبدالرحمن منيف، "ابن خلدون وصورته في منمنمات تاريخية"، مقالة ختمها لكتابه: لوعة الغياب الطبعة الثالثة عام 2003 م، اصدار المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي للنشر - بيروت/ الدار البيضاء .

السلطان، فلما قتل السلطان وفرك كأنه غافلاً فوق في الشرك، وكان نازلاً في المدرسة العادلية، فتوجه هؤلاء الأعيان إليه في تدبير هذه القضية، فوافق فكره فكرهم، فملكوه في ذلك أمرهم، وما وسعهم إلا استصحابه معهم، وكان مالكي المذهب والمنظر، أصمعي الرواية والمخبر، فتوجه معهم بعمامة خفيفة، وهيئة ظريفة، وبرنس كهو رقيق الحاشية، يشبه من دامس الليل الناشئة، فقدموه بين أيديهم، ورضوا بأقواله وأفعاله لهم وعليهم وحين دخلوا عليه، وقفوا بين يديه، واستمروا واقفين، وجلين خائفين، حتى سمح بجلوسهم، وتسكين نفوسهم، ثم هش إليهم، ومن ضاحكاً عليهم، وجعل يراقب أحوالهم، ويسير بمسبار عقله أقوالهم وأفعالهم ولما رأى شكل ابن خلدون لشكلهم مبايناً، قال هذا الرجل ليس من هاهنا، فانفتح للمقال مجال، فبسط لسانه وسيذكر ما قال، ثم طووا بساط الكلام ونشروا سباط الطعام، فكوموا تلالاً من اللحم السليق، ووضعوا أمام كل ما به يليق، فبعض تعفف عن ذلك تنزهاً، وبعض تشاغل عن الأكل بالحديث ولها، وبعض مد يده وأكل وما جبن في مصاف الالتهام ولا نكل، وإلى الأكل أرشدهم، وناداهم وأنشدتهم كلوا أكل من إن عاش أخبر أهله... وإن مات يلق الله وهو بطين وكان من جملة الأكلين، قاضي القضاة ولي الدين، ولك ذلك وتيمور يرمقهم، وعينه الخزراء تسرقهم. وكان ابن خلدون أيضاً يصوب نحو تيمور الحدق، فإذا نظر إليه أطرق، وإذا ولى عنه رمق. ثم نادى وقال بصوت عال يا مولانا الأمير، الحمد لله العلي الكبير، لقد شرفت بحضوري ملوك الأنام، وأحييت بتواريخي ما مات لهم من أيام، ورأيت من ملوك الغرب فلاناً وفلاناً، وحضرت كذا وكذا سلطاناً، وشهدت مشارق الأرض ومغاريها، وخالطت في كل بقعة أميرها ونائبها، ولكن الله المنة إذا امتد بي زماني، ومن الله علي بأن أحياني، حتى رأيت من هو الملك على الحقيقة، والمسلك شريعة السلطنة على الطريقة. فإن كان طعام الملوك يؤكل لدفع التلف، فطعام مولانا الأمير يؤكل لذلك ولنيل الفخر والشرف. فاهتز تيمور عجباً، وكاد يرقص طرباً، وأقبل يوجه الخطاب إليه، وعول في ذلك دون الكل عليه، وسأله عن ملوك الغرب وأخبارها، وأيام دولها وآثارها، فقص عليه من ذلك ما خرع عقله وخبه، وجلب لبه وسلبه، وكان تيمور في سير الملوك والأمم أمة، وأبا التاريخ شرقاً وغرباً وأمة، وسيذكر لهذه المعان بديع بيان"¹.

ويضيف كذلك في موقع آخر من كتابه: "يحكى أن قاضي القضاة ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون المالكي قاضي القضاة بمصر كان صاحب التاريخ العجيب، والسالك فيه الأسلوب الغريب، على من ذكر لي من رآه، واطلع على لفظه ومعناه، من الأذكياء المهرة، والأدباء البررة، مع أنني لم أره، وكان قد قدم الشام، مع عساكر الإسلام، وحين ولت العساكر الأدبار، أنشبت في مخالبت تيمور الأقدار. قال له في بعض مجالسه، وقد أنس بتوانسه بالله يا مولانا الأمير ناولني يدك وهي مفتاح فتوح الدنيا حتى أتشرف بتقبيلها وقال له أيضاً لما أراد أن يستصحبه معه، وقد سرد عليه شيئاً من تواريخ ملوك الغرب

1 - ابن عريشاه، أبو محمد أحمد بن محمد، (المتوفى: 854هـ)، "عجائب المقدور في أخبار تيمور"، طبعة كلكتا سنة 1817م، ص 211-

وكان تيمور مغرمًا باقراء التواريخ واستماعها. فأعجبه ذلك غاية الإعجاب، "ورغب منه في الاستصحاب" يا مولانا الأمير مصر خرجت عن أن يتولى فيها نائب غيرك، أو أن يجري فيها غير أمرك، ولي فيك عوض عن طريقي وتلاذي، وأهلي وأولادي ووطني وبلادي، وأصحابي وأخداني، وأقاربي وخلاني، وملوك الناس، وعن كل ظهر ورأس، بل وعن كل الوري، إذ كل الصيد في جوف الفرا، وما أتأسف ولا أتلهف، إلا على ما مضى من عمري، وانقضى من عصري، كيف تقضى ذلك في غير خدمتك، ولم تكتحل عيني بنور طلعتك؟ ولكن القضاء جاز، وسأستبدل الحقيقة بالمجاز، وما أولاني أن أكرر على لساني، قوله جزاك الله عن ذا السعي خيراً... ولكن جئت في الزمن الأخير فلأستأنف في ذراك عمراً ثانياً، ولأعدن الزمان بإبعادي عن عدوتك عادياً، ولأتداركن ما مضى من عمري، بصرف ما بقي في خدمتك، والتشبث بعرزك، ولأحسن ذلك أعز أوقاتي، وأعلى مقاماتي، وأشرف حالاتي. ولكن ما يقصم ظهري، إلا كتبي التي أفنيت فيها عمري، وصرفت جواهر علمي في تصنيفها، وأظمأت نهاري وأسهرت ليلي في ترصيفها، وذكرت فيها تاريخ الدنيا من بدنها، وسير الملوك شرقيها وغربيها. ولأن ظفرت بها لأجعلنك واسطة عقدهم، وخلاصة نقدهم، ولأطرزن بسيرك خلع دهرهم، ولأصيرن دولتك هلال جبين عصرهم، وهي في القاهرة. فلو حصلت عليها ما فارقت ركابك، ولا هجرت أتعابك. والحمد لله الذي رزقني من يعرف قيمتي، ويحرز خدمتي، ولا يضيع حرمتي. مع كلام فصيح صاعد، بديع بليغ خالب خادع. "قاهتزت فرحاً أعطافه، وتراقصت مرحاً أطرافه" وأعجبه ذلك وأغراه ميله إلى كتب التواريخ والسير. واستهواه حبه معرفة أحوال الملوك الذي ذكر، حتى شده عما خلبه، بسحر هذا البيان البديع وسلبه. ثم إنه استوصفه بلاد الغرب وممالكها، واستوضحه أوضاعها ومسالكتها، وقراها ودروبها، وقبائلها وشعوبها، كما هو دأبه وشأنه، والقصد في ذلك امتحانه؛ لأنه لم يكن محتاجاً لذلك، إذ في خزائن تصوره "صور" جميع الممالك، وإنما أراد بذلك معرفة مقدار علمه، وكيفية إبداء نصحه له وكنمه. فأملى كل ذلك من طرف لسانه، كأنه يشاهده وهو جالس في مكانه، وشرح تلك الأمور، كما في خاطر تيمور. ثم قال له كيف تذكرني وبختصر مع الملوك الأكابر؟ ولم ننل في النسب تلك المفاخر، وما نحن من يعاسب النحل فأنى تعيينا مع الفحل؟ فقال أفعالكم البديعة أوصلتكم إلى تلك المنزلة الرفيعة فأعجبه هذا الكلام. وقال لجماعته اقتدوا به فإنه إمام. ثم أخذ تيمور يخبر القاضي بما وقع في بلاده، وما جرى بين ملوك الغرب وأجناده. ولا زال يذكر له أخبار الناس حتى سرد عليه أخبار متعلقيه وأولاده، حتى تحير القاضي من إملائه. وقال إن الشيطان ليوحى إلى أوليائه ثم إن تيمور عاهد القاضي أن يتوجه إلى القاهرة، ويأخذ أهله وأولاده وكتبه الزاهرة. ولا يلبث أكثر من مسافة الطريق، ويرجع إليه بأمل فسيح وعهد نبيل الأمانى وثيق، فتجهز إلى صفد، واستراح من ذلك النكد¹.

1 - ابن عريشاه، "عجائب المقدور في أخبار تيمور"، م.ن، ص 439 - 443 .

لقد حاول ابن عريشاه هنا أن يحلل شخصية ابن خلدون فأطنب في الوصف وجاء بأحداث ومقالات جديدة ساهمت في كشف الستار عن مقاصد ابن خلدون وحقيقة روايته مع تيمورلنك. فأراه جعل من ابن خلدون قصة ورواية عندما ذكر موقفه أمام تيمورلنك مبتدئاً بمدح نفسه وعلمه وفهمه في سبر أغوار التاريخ، والاطلاع على قصص الملوك والسلاطين والممالك والبلدان. ثم أعقب ذلك بكلام ملئ بالمدح والتعظيم وخصه لتيمورلنك. فكان ذلك مفتاح لقلبه ليقربه من مجلسه ويُعجب بمقاله، ثم يمدح طعامه. فتيمورلنك في رأيه حاز عظمة ملك الملوك والأكل من طعامه مقدم على سائر الأطعمة في كافة القصور. فيبهره بكلامه ويسرد عليه ما سأل عنه من تاريخ ومواقع وبلدان وأنساب من غير تقصير أو لف وتحوير.

ويتجاوز ابن خلدون الحد عندما يطلب من تيمورلنك مد يده ليقبلها ويضعها على رأسه. بل ويزيد فيعتبر أن خدمته له عبارة عن عوض الله له عن أولاده وزوجه الذين غرقوا، وعن أمواله التي ضاعت وعن كل شيء في الدنيا هو ثمين في نظره. بل ويزيد أكثر بأنه سيقضي سائر عمره وباقي أيامه في خدمته وطاعته ومتقانيا في سماع واجابة أمره. لكن تنزع نفسه نحو حبه للعلم الذي نشأ معه من صغره. فأراه يبكي شيئاً ثميناً في حياته وهي كتبه التي قضى عمره في كتابتها ويرشد تيمورلنك لمكانها في القاهرة ويتمنى استردادها. ويبين لتيمورلنك أنه لو استردها سيملاًها ببيان أمجاده وشكره واعزازه، حتى لا يترك شيئاً من المديح الا وأضافها فيها.

والسؤال هنا عن مقصد ابن خلدون في الحديث عن مكان كتبه وطلبه استردادها؟ ففائدة كتبه لتيمورلنك أظهرها بوضوح. فهي من جانب تكشف له تاريخ الأمم والشعوب وأوصاف البلدان والمواقع وما حصل عبر الأزمان. وهذا يهم تيمورلنك في غزواته وفتوحاته. ومن جانب آخر يمكن استغلالها في كتابة أمجاد وحروب تيمورلنك واضفاء المديح عليه.

لكن ما السر في الإشارة لتيمورلنك بوجودها في القاهرة. فهل الهدف تهيئة تيمورلنك بأنه سيغادره متوجها الى كتبه فيخلص من شره أو بمعنى آخر وسيلة للهروب من تحت يد تيمورلنك وبطشه. أم هو توجيه لأنظار تيمورلنك عند غزوه لمصر - حيث كان يعلم ابن خلدون بنواياه وخططه - فأراد أن يبادر هذا الطاغية لحماية كتبه وصونها من العبث أو الحرق أو النهب على عادة فعل تيمورلنك وجنده. وهذا يكشف مقدار ما يختزنه قلب ابن خلدون وما يمتلئ به من اللامبالاة والحقن والأنانية.

فابن خلدون لا يهمه أو يعنيه مسألة حرق تيمورلنك للأمة العربية والاسلامية، ملوكها وبلدانها وشعوبها ومساجدها. بل ما يهمه فقط كتبه التي قضى عمره في تأليفها بأن تبقى في الحفظ والصون من غير ضياع أو حرق أو اتلاف عندما يُقدم تيمورلنك على غزو القاهرة وتدميرها. وبمقابل ذلك سيعمل ابن خلدون على تزوير التاريخ وسيكتب أن هذا الطاغية ما هو الا فاتح عظيم لبلاد المشرق والمغرب الاسلامي.

إن ما يدل على أحد تلك التحليلات السابقة قول ابن خلدون: "...ولكن ما يقصم ظهري، إلا كتبي التي أفنيت فيها عمري، وصرفت جواهر علمي في تصنيفها، وأظمأت نهاري وأسهرت ليلي في ترصيفها، وذكرت فيها تاريخ الدنيا من بدئها، وسير الملوك شريقها وغربها، ولأن ظفرت بها لأجعلنك واسطة عقدهم، وخلاصة نقدهم، ولأطرزن بسيرك خلع دهرهم، ولأصيرن دولتك هلال جبين عصرهم، وهي في القاهرة فلو حصلت عليها ما فارقت ركابك، ولا هجرت أتعابك، والحمد لله الذي رزقني من يعرف قيمتي، ويحرز خدمتي، ولا يضيع حرمتي..."، مع كلام فصيح صاعد، بديع بليغ خالب خادع. "فاهتزت فرحاً أعطافه، وتراقصت مرحاً أطرافه".

وكانت النتيجة بأن استطاع ابن خلدون أن يغادر هو أولاً دمشق ويتوجه إلى صفد موهما تيمورلنك بأنه سيذهب لاستجلاب كتبه وأهله من القاهرة ويرجع لخدمته وهذا ما نفهمه من آخر الرواية: "ثم إن تيمور عاهد القاضي أن يتوجه إلى القاهرة". ويعني أن يأذن لابن خلدون بالسفر للقاهرة، ويأخذ أهله وأولاده وكتبه الزاهرة. ولا يلبث أكثر من مسافة الطريق، ويرجع إليه بأمل فسيح وعهد نبيل الأمانى وثيق. فتجهز إلى صفد، واستراح من ذلك النكد.

خامساً:- وقد رأيت أن من كمال هذه الرواية وتحليلها أن أذكر شيئاً مما فعله تيمورلنك في دمشق وقلعتها تحت عين وبصر ابن خلدون، وما ارتكب فيها من مجازر وفضائع تقشعر لها الأبدان وتهتز لها القلوب وتدمع لها العيون. ولكن ليس ابن خلدون حيث العجيب أنه لم يهتز له جفن أو يصدق لسانه بأي انكار أو اعتذار حتى بعد مفارقتة لتيمورلنك وابتعاده كثيراً عن أذاه، واقتصر هنا على روايتان حتى لا أطيل:

فقد ذكر المقرئ في هذه الحادثة وبتفاصيل مؤلمة عند ذكره لما قدمه أهل دمشق لتيمورلنك من أموال وسواها مقابل تركهم آمنين حيث يقول: "...وكان قد خرج من دمشق عالم عظيم فتسارعوا إلى حمل ذلك إليه وجروا على عادتهم في النميمة بمن عنده من ذلك شيء حتى أتوا على الجميع. فلما صار إليه ذلك كله ألزمهم أن يخرجوا إليه سائر ما في المدينة من الخيل والبغال والحمير والجمال فأخرج إليه جميع ما كان في المدينة من الدواب حتى لم يبق بها شيء من ذلك. ثم ألزمهم أن يخرجوا إليه جميع آلات السلاح جليلها وحقيرها فتتبعوا ذلك ودل بعضهم على بعض حتى لم يبق بها من آلات القتال وأنواع السلاح شيء. ثم بعد حمل الفريضة ورميه ابن مفلح ومن معه بالعجز عن الاستخراج قبض على أصحاب ابن مفلح وألزمهم أن يكتبوا له جميع خطط دمشق وحاتها وسكها فكتبوا ذلك ودفعوه إليه ففرقه على أمرائه. وقسم البلد بينهم فساروا إليها ونزل كل أمير في قسمه وطلب من فيه وطالبهم بالأموال فكان الرجل يوقف على باب داره في أرى هيئة ويلزم بما لا يقدر عليه من المال فإذا توقف في إحضاره عذب بأنواع العذاب من الضرب وعصر الأعضاء والمشى على النار وتعليقه منكوشاً وربطه ببيديه ورجليه. وعُمر أنفه بخرقه فيها تراب ناعم حتى تكاد نفسه تخرج. فيخلى عنه حتى يستريح. ثم تُعاد عليه العقوبة. ومع هذا كله تؤخذ نساؤه وبناته وأولاده الذكور وتقسم جميعهم على

أَصْحَابُ ذَلِكَ الْأَمِيرِ فِيشَاهِدُ الرَّجُلَ الْمَعَذِبَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ تُوطَأُ وَأَبْنَتَهُ وَهِيَ تَقْبِضُ بِكَارْتِهَا وَوَلَدَهُ وَهُوَ يَلَاطُ بِهِ فَيَصِيرُ هُوَ يَصْرُخُ مِمَّا بِهِ مِنْ أَلَمِ الْعَذَابِ وَأَبْنَتَهُ وَوَلَدَهُ يَصْرُخُونَ مِنْ أَلَمِ إِزَالَةِ الْبَكَارَةِ وَاتِّيانِ الصَّبِيِّ وَكُلُّ هَذَا نَهَارًا وَلَيْلًا مِنْ غَيْرِ احْتِشَامٍ وَلَا تَسْتِرٍ. ثُمَّ إِذَا قَضَوْا وَطَرَهُمْ مِنَ الْمَرْأَةِ وَالْبِنْتِ وَالصَّبِيِّ طَالِبُوهُمْ بِالْمَالِ وَأَفَاضُوا عَلَيْهِمْ أَنْوَاعَ الْعُقُوبَاتِ وَأَفْخَاذِهِمْ مَضْرُجَةً بِالْدماءِ. وَفِيهِمْ مَنْ يَعَذِّبُ بِأَنْ يَشُدَّ رَأْسَ مَنْ يُعَاقِبُهُ بِحَبْلٍ وَيُلَوِيهِ حَتَّى يَغُوصَ فِي الرَّأْسِ. وَفِيهِمْ مَنْ يَضَعُ الْحَبْلَ عَلَى كَتِفِي الْمَعَذِبِ وَيُدِيرُهُ مِنْ تَحْتِ إِبْطِهِ وَيُلَوِيهِ بِعَصَا حَتَّى يَنْخَلَعَ الْكَتِفَيْنِ. وَفِيهِمْ مَنْ يَرْبِطُ إِبْهَامَ الْيَدَيْنِ مِنْ وَرَاءِ الظَّهْرِ وَيُلْقِي الْمَعَذِبَ عَلَى ظَهْرِهِ وَيَذِرُ فِي مَنْخَرِيهِ رَمَادًا سَحِيقًا ثُمَّ يَعْطِقُهُ بِإِبْهَامِ يَدَيْهِ فِي سَقْفِ الدَّارِ وَيَشْعَلُ النَّارَ تَحْتَهُ. وَرُبَّمَا سَقَطَ فِي النَّارِ فَسَحَبُوهُ مِنْهَا وَأَلْقَوْهُ حَتَّى يَفِيقَ فَيَعَذِّبُ أَوْ يَمُوتَ فَيُتْرَكَ. وَاسْتَمَرَ هَذَا الْبَلَاءُ مُدَّةَ تِسْعَةِ عَشَرَ يَوْمًا آخِرَهَا يَوْمُ الثَّلَاثَاءِ ثَامِنَ عَشْرِينَ رَجَبَ فَهَلَكَ فِيهَا بِالْعُقُوبَةِ وَمِنْ الْجُوعِ خَلَقَ لَا يَدْخُلُ عَدَدُهُمْ تَحْتَ حَصَرٍ. فَلَمَّا عَلِمُوا أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِي الْمَدِينَةِ شَيْءٌ لَهُ قَدَرٌ خَرَجُوا إِلَى تَمْرُنْكَ فَأَنْعَمَ بِالْبَلَدِ عَلَى أَتْبَاعِ الْأُمَرَاءِ فَدَخَلُوهَا يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ آخِرَ رَجَبٍ وَمَعَهُمْ سِيُوفٌ مَشْهُورَةٌ وَهُمْ مَشَاءُ فَنَهَبُوا مَا بَقِيَ مِنَ الْأَثَاثِ وَسَبَوْا نِسَاءَ دِمَشْقَ بِأَجْمَعِهِنَّ وَسَاقُوا الْأَوْلَادَ وَالرِّجَالَ وَتَرَكُوا مِنْ عَمَرِهِ خَمْسَ سِنِينَ فَمَا دُونَهَا وَسَاقُوا الْجَمِيعَ مَرِيطِينَ فِي الْحَبَالِ. ثُمَّ طَرَحُوا النَّارَ فِي الْمَنَازِلِ وَكَانَ يَوْمًا عَاصِفَ الرِّيحِ فَعَمَّ الْحَرِيقُ الْبَلَدَ كُلَّهُ وَصَارَ لَهَبُ النَّارِ يَكَادُ أَنْ يَرْتَفِعَ إِلَى السَّحَابِ وَعَمَلَتِ النَّارُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ آخِرَهَا يَوْمُ الْجُمُعَةِ. وَأَصْبَحَ تَمْرُ يَوْمَ السَّبْتِ ثَالِثَ رَجَبٍ رَاحِلًا بِالْأَمْوَالِ وَالسَّبَايَا وَالْأَسْرَى بَعْدَمَا أَقَامَ عَلَى دِمَشْقَ ثَمَانِينَ يَوْمًا وَقَدْ احْتَرَقَتْ كُلُّهَا وَسَقَطَتْ سَقُوفُ جَامِعِ بَنِي أُمَيَّةَ مِنَ الْحَرِيقِ وَزَالَتْ أَبْوَابُهُ وَتَقَطَّرَ رِخَامُهُ وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ جِدْرِهِ قَائِمَةً. وَذَهَبَتْ مَسَاجِدُ دِمَشْقَ وَمَدَارِسُهَا وَمَشَاهِدُهَا وَسَائِرُ دُورِهَا وَقِيَاسِرُهَا وَأَسْوَاقُهَا وَحَمَامَاتُهَا وَصَارَتْ أَطْلَالًا بِالْيَةِ وَرَسُومًا خَالِيَةً قَدْ أَفْقَرَتْ مِنَ السَّاكِنِ وَامْتَلَأَتْ أَرْضُهَا بِجَثَثِ الْقَتْلَى وَلَمْ يَبْقَ بِهَا دَابَّةٌ تَدْبُ إِلَّا أَطْفَالٌ يَتَجَاوَزُ عَدَدُهُمْ آلَافَ فِيهِمْ مَنْ مَاتَ وَفِيهِمْ مَنْ يَجُودُ بِنَفْسِهِ. وَأَمَّا بَقِيَّةُ أُمَرَاءِ مِصْرَ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّهُمْ لَمَّا عَلِمُوا بِتَوَجُّهِ السُّلْطَانِ مِنْ دِمَشْقَ خَرَجُوا مِنْهَا طَوَائِفَ طَوَائِفَ يُرِيدُونَ الْحَاقَ بِالسُّلْطَانِ فَأَخَذَهُمُ الْعَشِيرُ وَسَلَبُوهُمْ مَا مَعَهُمْ وَقَتَّلُوا خَلْقًا كَثِيرًا. وَظَفَرَ أَصْحَابُ تَمْرُنْكَ بِقَاضِي الْقُضَاةِ صَدْرِ الدِّينِ مُحَمَّدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْمَنَاوِيِّ الشَّافِعِيِّ فَسَلَبُوهُ مَا عَلَيْهِ مِنَ الثِّيَابِ وَأَحْضَرُوهُ إِلَى تَمْرُنْكَ فَمَرَّتْ بِهِ مَحَنٌ شَدِيدَةٌ آلَتْ إِلَى أَنْ غَرِقَ بِنَهْرِ الزَّابِ وَهُوَ فِي الْأَسْرِ. وَكَانَ قَاضِي الْقُضَاةِ وَلِي الدِّينِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خَلْدُونَ الْمَالِكِيَّ بِدَاخِلِ مَدِينَةِ دِمَشْقَ. فَلَمَّا عَلِمَ بِتَوَجُّهِ السُّلْطَانِ تَدَلَّى مِنْ سُورِ الْمَدِينَةِ وَسَارَ إِلَى تَمْرُنْكَ فَأَكْرَمَهُ وَأَجَلَّهُ وَأَنْزَلَهُ عِنْدَهُ ثُمَّ أَذِنَ لَهُ فِي الْمَسِيرِ إِلَى مِصْرَ فَسَارَ إِلَيْهَا وَتَتَابَعَ دُخُولُ الْمُنْقَطِعِينَ بِدِمَشْقَ إِلَى الْقَاهِرَةِ فِي أَسْوَأِ حَالٍ مِنَ الْمَشْيِ وَالْعَرِيِّ وَالْجُوعِ فَرَسَمَ لِكُلِّ مِنَ الْمَمَالِيكِ السُّلْطَانِيَّةَ بِأَلْفِ دِرْهَمٍ وَجَامِكِيَّةَ شَهْرَيْنِ...¹

1 - المقرئزي، أحمد بن علي بن عبد القادر أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقرئزي، (المتوفى: 845هـ)، "السلوك لمعرفة دول الملوك" تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الطبعة: الأولى، 1418هـ - 1997م، ج 6 ص 53-55، الناشر: دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت.

ويذكر المقرئ في موقع آخر ما نصه: " شهر شعبان أوله الخميس: فيه قدم قاضي القضاة ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون من دمشق وقد أذن له تمرلنك في التوجه إلى مصر وكتب له بذلك كتابا عليه خطه وصورته تيمور كركان وأطلق معه جماعة بشفاعته فيهم منهم القاضي صدر الدين أحمد بن قاضي القضاة جمال الدين محمود القيصري ناضر الجيش وكان قد خرج مع السلطان من جملة موقعي الدست"¹.

ويروي كذلك ابن حجر العسقلاني فيقول: "... فلما كان في الثاني عشر من الشهر المذكور وقع الاختلاف بين أمراء العسكر المصري فخاف بعضهم من بعض فاختلفوا، فظن من أقام أن الذي اختفى قد توجه إلى القاهرة ليتملكها، فاخذوا السلطان وتوجهوا به إلى نحو صفد ثم إلى غزة فتركوا الناس في فوضى، ووصل السلطان إلى مصر في خامس من جمادى الآخرة وصحبته الخليفة وهم في غاية من الذل ليس معهم خيل ولا جمال ولا قماش ولا عدة، وصار الجيش بعد هرب السلطان يخرجون من دمشق إلى جهة مصر فيسلبهم العشير أثوابهم وربما قتلوا بعضهم، ومنهم من ركب البحر الملح حتى وصل إليهم إلى القاهرة في أسوأ حال، ولما تحقق تمرلنك فرار العسكر أمر عسكره باتباعهم فصاروا يلتقطون منهم من تخلف فأغلق أهل دمشق أبوابها وركبوا أسوارها وتراموا مع اللنكية فقتل منهم جماعة. فأرسل تمرلنك يطلب من أهل البلد رجلاً عاقلاً يتكلم معه في الصلح، فأرسلوا إليه القاضي برهان الدين ابن الشيخ شمس الدين ابن مفلح، فرجع وأخبر أنه تلطف معه في القول وسأله في الصلح فأجابه. فأطاعه كثير من الناس وأبى كثير منهم فأصبحوا في يوم السبت نصف جمادى الآخرة وقد غلب رأي من أراد الصلح وأخرجوا إلى تمرلنك الضيافة جبوها من مياشير الناس. فكتب لهم أماناً قرء على المنبر يتضمن أنهم آمنون على أنفسهم وأهاليهم. ثم فتح الباب الصغير واستحفظ عليه بعض أمراء تمرلنك لئلا ينهب التتار البلد، واستقر الصلح على ألف ألف دينار فوزعت على أهل البلد، ثم رجع تمرلنك فتسخطها وقال: إنه إنما طلب ألف تومان والتومان عشرة آلاف دينار، فتزايد البلاء على أهل البلد وندموا حيث لا ينفع الندم. ثم أول شيء فعله اللنكية من القبائح تعطيل الجمعة من الجامع الأموي فإنه نزل فيه شاه ملك وزعم أنه نائب تمرلنك على دمشق فسكنه بأهله وخبوله وأسبابه ومنع الناس من دخوله وتعطلت من المساجد الصلوات والأسواق من المعاش. وشرع اللنكية في حصار القلعة واستكتب تمرلنك من بعض أهل دمشق أسماء الحارات وقسمها في أصحابه وأقطعها لهم. فنزل كل أمير حيث أقطع وطلب سكان ذلك الخط فكان الرجل يقوم في أسوأ هيئة على باب داره ويطلب منه المال الجزيل فإن امتنع عوقب إلى أن يخرج جميع ما عنده فإذا لم يبق له شيء أحيط على نسائه وبناته وبنيه فيفجر بهم حتى قيل إنهم يفعلون ذلك بهم بحضرته مبالغة في الإهانة ثم بعد وطئهم يبالغون في عقوبتهم لإحضار المال. فأقاموا على ذلك سبعة عشر يوماً فهلك تحت الضرب والعقوبة

1 - المقرئ، "السلوك لمعرفة دول الملوك"، م، ن، ج 6 ص 58 .

من لا يحصى. ثم خرج منها الأمراء المذكورون وصبح البلد في سلخ رجب المشاة والرجالة في أيديهم السيوف المصلطة فانتهبوا ما بقي من المتاع وألقوا الأطفال من عمر يوم إلى خمس تحت الأرجل وأسروا أمهاتهم وآباءهم ثم أطلقت النار في البيوت إلى أن أحترق أكثر البلد وخصوصاً الجامع وما حواليه. ثم رحل تمرلنك بعساكره في ثالث شعبان فأعقب رحيله جراد كثير إلى الغاية ودام أياماً. ومات في هذا الشهر من أهل الشام من لا يحصى عدده إلا الله تعالى، فمنهم من مات حريقاً، ومنهم عن عجز من الهرب فمات جوعاً، ومنهم من توجه هارباً فمات إعياء، ومنهم من كان ضعيفاً فاستمر إلى أن مات. وبلغ الأمر بأهل دمشق قبل رحيل العسكر عنهم أن الواحد من التمرية كان يدخل إلى البيت وفيه العدد الكثير فيصنع بهم ما أراد من نهب وقتل وإحراق وإفساد وفسق، ولا تمتد إليه يد ولا تخاطبه لسان لما غلب على القلوب من الخوف منهم. وبيع القمح بعد رحيلهم كل مد بأربعين درهماً، واخذ الناس في ضم الجراد وبيعه وصار هو غالب القوت بالبلد. وبيع الرطل منه بأربعة ونصف، وصار من بقي حفاة عراة، وأعيانهم عليهم العبي والجلود وهم يبيعون الجراد، وينادون عليه ويتتبعون ما بقي من خلق المتاع ويبيعونه ليشتروا به الجراد، واستمر الحريق في البلد لعجز من بقي عن طففيه حتى عم جميعها...¹.

المبحث السادس عشر

العودة الى المنصب السابق بكافة الطرق والوسائل

وعندما عاد ابن خلدون إلى مصر، مضطراً ومبتعداً عن التهديد باغتياله بسبب ما أشيع عنه واتهامه بالعمالة والخيانة، لم يلزم الهدوء، بل غلبت عليه طبيعته وولعه بالمناصب والذي لا يفارقه. فسعى لاسترداد منصب قاضي القضاة الذي تركه سابقاً. واستخدم وسائله وحيله السابقة للوصول الى قلب السلطان حتى نجح في مسعاه. فمكث فيه عاماً كاملاً. ثم عزل عنه بحجة ما أسماه الوشاة والمنافسين. حيث يذكر ابن خلدون أن أحد القضاة قدم رشوة لمن يدخلون على السلطان ليقتنعوه أن القاضي جمال الدين البساطي هو أفضل منه، فيأمر السلطان بعزله منه بعد عام وذلك في (رجب 804هـ-فبراير 1402م). ثم إن السلطان ندم على عزله لابن خلدون وشاور نفسه مرة ثانية، وأعاد للمنصب ليتولاه مرة أخرى في: (ذي الحجة 804هـ-يناير 1402م). ثم عزل منه بعد سنة أخرى، ثم أعاده للمرة الثالثة، وابن خلدون يأبى على نفسه الا العودة للمنصب والالتصاق به. ثم عزل منه للمرة الثالثة الى أن انتهت حياته بوفاته في: (26 من رمضان 808هـ-16 من مارس 1405م) عن عمر بلغ ستة وسبعين عاماً.

1 - العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ)، "إنباء الغمر بأبناء العمر"، تحقيق د.حسن حبشي، ج2 أحداث سنة 803 هـ، ص137-139، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر 1389هـ، 1969م.

خلاصة القول في النزعة النفسية التي تميز بها ابن خلدون

مما سبق يتبين أن طبيعة ابن خلدون النفسية كانت نزاعة نحو السلطة. رغبة في التقرب من السلاطين كدأب قدماء أسرته وأجداده. كما أنه لم يضيّع وقتاً في اقتناص الفرص للوصول الى غايته. فكان في أغلب حياته منغمساً في السياسة، يهدف الى تحقيق مكانة مرموقة لنفسه وينطلق منها نحو تحقيق ما يساوره في دواخله من طموحات وآمال لا حدود لها. ومن ذلك فإني بدأت أعتقد أن ابن خلدون كان يطمح لمنصب سياسي كبير، وإن لم أبالغ كان يطمح بالرئاسة والتملك. فكانت طموحاته لا تقف عند حد. ودليل ذلك مخطط نشوء الدول والممالك في مقدمته، فانه وإن كان يدرس طبيعة الممالك والدول التي عاصرها أو سمع بقصصها ويصفها وصفا تاريخيا تحليليا فلسفيا. لكنه مع ذلك كان يطمح لتجربتها وتطبيق تلك النظريات على نفسه.

وفي خضم هذا السعي كان يصاب بالفشل المتواصل، وتنزل به النكبات والمصائب. ويتعرض للسجن والاهانة والهرب والتشرد. فكان لهذه العوامل الأثر السلبي الكبير على نفسه مما أوجد في داخله نزعة ثورية انتقامية لمن مكر به أو ساهم في فشله وتشرده. ولا فرق في ذلك بين سلطان أو وزير أو قاضي أو مدرس أو حتى انسان بسيط. فكان ينطوي على قدر كبير من الاستبداد المكبوت والقهر المخزون، بحيث لو كان من الممكن أن يطلق له العنان للوصول الى السلطة لحصل ما لا يحمد عقباه.

ودليلي على ذلك نزعته إلى قيادة الجيوش واذلال الخصم، وفرض السلطة والسيادة بقوة السيف وسطوة السلطان. وأيضا جمع الأموال وإجبار الناس على دفع الضرائب¹، والسعي لتولي المناصب، والتقرب من الحاكم. وقد اعترف بذلك في مقدمته عندما قال: "السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بها على أمره، إلا أن الحاجة في أول الدولة إلى السيف ما دام أهلها في تمهيد أمرهم أشد من الحاجة إلى القلم، لأن القلم في تلك الحال خادم فقط منفذ للحكم السلطاني والسيف شريك في المعونة وكذلك في آخر الدولة"². فابن خلدون عمليا يمدح السيف والحرب والقتال ويميل إليها لتحقيق النصر والتغلب

1 - أنظر: ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غريبا وشرقا"، م.س، ص 95 - 96 . حيث يقول: (...وكانوا في كل سنة يجمع بعضهم لبعض، فالتقوا سنة ست وستين...فانهزم السلطان أبو عبد الله، ورجع إلى بجاية مفلولا، بعد أن كنت جمعت له أموالا كثيرة أنفق جميعها في العرب. ولما رجع أعوزته النفقة، فخرجت بنفسى إلى قبائل البربر بجبال بجاية المتمنعين من المغارم منذ سنين، فدخلت بلادهم واستبحت حماهم، وأخذت رهنهم على الطاعة، حتى استوفيت منهم الجباية، وكان لنا في ذلك مدد وإعانة).

2 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.س، ص 318.

على المحكومين ويعتبر السيف مقدم على القلم في خدمة ولي الأمر المتمثل في السلطان. وهذه كلها صفات شخصية ميالة للعصبية والحرب وتتطوي على المكر والتخطيط والدسائس.

وعندما بلغ ابن خلدون الثالثة والأربعين شرع في كتابة مقدمته ووضع الخطوط العريضة لكتابه سيرته، وعندها كان يشعر أن البدء بمغامرة جديدة لتحقيق الطموحات أمر لا فائدة منه خصوصا وأنه حتى ذلك الحين كان قد خاض غمار العديد من المغامرات الفاشلة، فالأمر يحتاج إلى إعادة ترتيب، وتنشيط الحالة النفسية والعقلية عنده. إضافة إلى تأكده بأن تلك الفترة كان لا يستطيع أن يجد سلطان أو قبيلة قوية تنصره وتمده بالقوة اللازمة لتحقيق غاياته، مما ولد بالتالي في ذهنه مبدأ العصبية والتي بنى عليها جزءا كبيرا من نظريته. فهي تجربة ذاتية جاءت عن طريق الممارسة العملية في دهاليز السياسة والتي لم يتورع فيها عن ممارسة كل أنواع الدهاء والتملق والحذقة.

فكان ابن خلدون لا يتورع عن اللجوء إلى المديح للوصول إلى أغراضه. كما أنه عكف أربع سنوات يجتر ذكرياته المريرة ويستعرض تجاربه الفاشلة ويتحسر على طموحاته الضائعة واستطاع في خلالها انجاز مقدمته، والتي خرجت فعلا من رحم الآلام والخيبة والفشل والخوف. خصوصا وأنه كان في قلعة ابن سلامة أشبه بالهارب من مصير ينتظره، فإما الموت أو السجن. وكان أولئك القوم بمثابة المحتضن له من الخطر. وهذا ما جعله يميل في مقدمته نحو الشدة وأهمية وجود العصبية الحامية لشخص الملك أو الخليفة أو السلطان، والتي بدونها سيكون مصيره الفشل الذريع.

وما أن تجاوز هذه المرحلة، وانطلق بنفسية جديدة وهمة وثابة، خصوصا لما سافر الى مصر، وبدأت حياته مع السلطان المملوكي الظاهر برقوق، وتغيرت الطبيعة السكانية التي كان يتعامل معها من المغرب الى مصر، والتي تمتاز بالتحضر أكثر والاستقرار. بدأت كما أسلفت نوازع نفسه الداخلية المبنية على حب المناصب والسيادة بالعودة للظهور مرة أخرى. فكان يكيل في كل مناسبة خطب المديح والتبجيل بشكل مطول ومبالغ فيه للسلطان أو ضيوفه. وازدانت قريحته الشعرية بأجمل القصائد والأبيات، وصولا الى تجربته مع تيمورلنك والتي كشفت حقيقته على مصراعيها، وعرفته من دعاوى الرغبة بالتعليم والتعلم الدائمين والانصراف لهما والبعد عن السياسة، فكانت السلاح الذي سبب له الفضيحة، وأثبت ما كان يختزن في نفسيته العميقة.

ورغم ما حدث معه، الا أنه عاد ليتكالب على المناصب حتى آخر لحظة من عمره، فيعين ثم يقال من منصب القضاء لاكثر من ثلاث مرات، دون أن يضيره ذلك أو يضع له حد، ومع ذلك لم يكن له أثر يذكر في هذه الفترة الأخيرة من حياته. ويبدو ذلك للطبيعة الميكافيلية التي كان يعاني منها مما سببت

نفور الناس وبعض العلماء منه، فضلا عن كونه جسما غريبا عن الشعب المصري ويحتل منصبا هاما الأصل فيه أن يكون لعلماء مصر.

تقول الدكتورة الخضيرى: "كانت الفترة التي قضاها ابن خلدون في مصر أقل مراحل حياته إضطرابا وقلقا وتنقلا، ولكنها - وهذا شئ عجيب - كانت أقلها انتاجا فكريا، ولم يؤثر ابن خلدون تأثيرا يذكر في الفكر المصري، ويبدو أن ذلك يعود الى عدم رضا المجتمع المصري عن وضع ابن خلدون، ومناصبته اياه العداء لتولييه أحد مناصب الدولة الهامة وهو أجنبي، وأعني بعدم تأثيره في الفكر المصري أننا لم نر له تلاميذا أو مفكرين أخذوا عنه وساروا في طريقته واستكملوا مثلا بحوث المقدمة"¹.

1 - الخضيرى، "فلسفة التاريخ عند ابن خلدون"، م.س، ص 24 .

دور الآثار النفسية الحياتية في تشكيل وصياغة أفكار المقدمة الخلدونية

تمهيد :

ان الاعتقاد السائد لدى الكثير من المحللين لسياسة ابن خلدون ونظرياته الاجتماعية، يعتمد على مقولة أن ابن خلدون لم يسرد التاريخ سرداً، أي بمعنى قصص وحكايات وأحداث. وإنما عمل على الاتيان بطريقة مبتكرة وجديدة في التعامل مع التاريخ، وتقوم على أساس التحليل والدراسة والتقصي والغوص في المشاهدات التاريخية وسبر عمقها، ثم الخروج بنظريات حديثة في علم الاجتماع وقواعد جديدة في نشوء الدول وتغلبها، مسترشداً بالروايات والأحداث التي جرت في عصره وما قبل عصره، ثم بانيا على اسسها، ومجملاً الأسباب التي تؤدي الى نشوء وقيام الحضارات والدول والممالك، ثم ضعفها وانهارها.

وقرر ابن خلدون أن هذه القواعد والنظريات هي من سنن الله وهكذا تجري طبائع الأشياء والأمور. وركز في بحوثه كذلك على سكان البادية ومدح فيهم العصبية والتي هي السبب في النشوء والتكون. ثم ذم الحضر لما يتلبسون به من الترف والتنعيم والانصراف الى مغريات الحياة مما يقود الى الانهيار والضعف لتلك الدول والممالك. ثم حملته على العرب، لما يتميزون به من الغلظة والشدة والقساوة وعدم الانقياد بسهولة الى الخير ومطالب السلطان.

والحقيقة أن تلك البحوث لأولئك المحللين حول مقدمة ابن خلدون، اقتصرت على هذا الجانب من المدح والتبجيل لأفكاره. لكن قليلون هم من فكر بأن هذه الأفكار والمبادئ التي أتى بها ابن خلدون كانت فعلياً ناشئة عن تجاربه ونكباته ومآسيه التي عايشها وقاساها. فهو عملياً كان يتحدث عن نفسه، وأقصد تماماً ما أقول، فإذا مدح ابن خلدون فكرة ما، فإن مدحه لها ناشيء لما فيها من منفعة تعود عليه، وإما لأن أصحابها ناصروه وأنقذوه من مصاعبه ومشاكله، وإما خوفاً وخشية ممن سيقراً مقدمته من علماء وقضاة متنفذين في وقته أو حتى سلاطين وحكام قائمين على عروشهم في زمانه أو مسؤولين وأصحاب قرار. فعمل على تنميق الكلمات والإتيان بأفكار وإبداع نظريات وقوانين لعلم الاجتماع وقيام الدول وانهارها هي فعلاً تمنع عنه الأذى وتحقق له الأمان والاطمئنان.

وإذا ذم ابن خلدون فكرة ما أو أشخاصا معينين، فهو يذمهم لأنهم كانوا السبب في عذابه وجراحه ونكباته. أو لالتقاء مصلحته مع مصالح سلاطين عصره وحكامه في ذم من يذمهم. وإما أن يذمهم لأنهم ساهموا في ضياع مصالح كثيرة له، أو وقفوا حجر عثرة في طريقه، أو عملوا على التهامس ونقل الوشايات بما يسيئه في غيابه سواء في حضرة السلاطين أو سواهم، أو كانوا من المتخاذلين عن نصرته وتحقيق مصالحه وغاياته.

وأنا في بحثي هذا سأسبر غور أفكاره في قضية العصبية والبداءة والعلة في مدحه لها. وأحاول الربط بينها وبين المحطات الشائكة في حياته للخروج بإجابة وموقف مشترك يربط أفكاره بالآثار المستتبطة من واحدة من محطات حياته أو مجملها. ثم أتعرض لحملته على الحضر وإساءته للعرب محاولا كذلك الربط بين هذه الأفكار وما تأثرت به نفسيته ووجدانه الداخلي من صدمات ومآسي اعتصرته في محطات حياته المختلفة. وكذلك أثر عصبية التي كان يعتز بها في الإساءة للعرب اجمالا. أملا بذلك الوقوف على كشف جديد يقوم على تفسير أسباب كتابته لبعض جوانب مقدمته بهذا الشكل. وهل حقيقة الطروحات التي طرحها والأفكار والمبادئ التي نص عليها تلائم جميع الشعوب والأفراد كما ادعى، أم هي مقتصرة على شعوب معينة أو أفراد محددين هو فعلا عاش معهم واكتوى بنارهم.

وأنا لا أحاول التجني على ابن خلدون في بحثي هذا، بل أحاول اثبات وجهة نظري أن الكاتب والراوي والمؤرخ الذي زخرت حياته بمحطات حرجة وصدمات متوالية نفسية كانت أو سياسية أو جسدية أو مالية اقتصادية، لا بد وأن تؤثر حتما على كتاباته وكلماته، فتصبغها وتشكلها بكيفية تتلاءم مع تلك الآلام والصعاب والجروح التي نكبته ومرت به في حياته. وابن خلدون أحد أولئك الذين تجرعوا مرارات الفشل والأحزان والصدمات عبر مسيرة حياته الى وفاته فكانت حبرا كتب بها كلماته وأفكاره عبر مقدمته.

النزعة التملقية والميكافيلية تأبى أن تفارق صاحبها

تحدثت في الباب الأول عن الطبيعة النفسية الخلدونية والتي مالت الى أسلوب التملق والوصولية نحو مراتب الحكم ومناصبه بأي طريقة كانت، وما تفرضه هذه الحالة أحيانا من صفات كالشدة والتعالي والازدراء للغير، متأثرة بسلسلة النكبات والآلام والمآسي التي سايرت حياته وما احتوته من تشرد وخوف ورعب وكراهية متنامية على من تسبب بهذه المحطات الحياتية.

ومن المؤكد أن تتأثر كتاباته وخصوصا في المقدمة بهذه الطبيعة الميكافيلية. فلم يكن المنهج الخلدوني طفرة، أو منهج فريد من نوعه كما يصوره البعض، بقدر ما كان انتاجا مبنيا على الظروف التي قامت في عصره، وأنقلت كاهله، وجعلته يتمرد على المنهج التاريخي الوصفي بعد ما تبين له عجزه عن تفسير التغيرات البنائية التي حدثت بالمجتمع العربي بعد الغزوين الصليبي والمغولي، وبعد غروب شمس الحضارة العربية في الأندلس. فاستحدث منهجاً جديداً، نبع من خبراته وتجاربه ومشاهداته واستقرائه للتاريخ. ثم آلامه ومآسيه وحنقه على من كان سببا في الفشل والحروب والاصطدام به في كثير من المواقف. وقد وجدت ذلك مرسوما في مقدمته في العديد من المواضيع والأفكار. فابن خلدون في بداية مقدمته يزدري من سبقه من المؤرخين في أسلوب كتابتهم للتاريخ بأوصاف احتقارية، تعبر عما يعتري وجدانه من غرور وتعالي وأحقاد متراكمة. ويعتبر طريقته في كتابة التاريخ هي الطريقة العصرية والجديدة والمهمة.

فقرأت كلماته التي يقول فيها: "...ثم جاء آخرون بإفراط الاختصار وذهبوا إلى الاكتفاء بأسماء الملوك والاقتصار، مقطوعة عن الأنساب والأخبار موضوعة عليها أعداد أيامهم بحروف الغبار كما فعله ابن رشيقي في ميزان العمل ومن اقتفى هذا الأثر من الهمل وليس يعتبر لهؤلاء مقال ولا يعد لهم ثبوت ولا انتقال لما أذهبوا من الفوائد وأخلوا بالمذاهب المعروفة للمؤرخين والعوائد..."¹. هذه الكلمات فيها من الغضب النفسي والتحامل الشيء الكثير. فهو لا ينتقد لمجرد الانتقاد الايجابي والمبني على الاحترام للطرف الآخر. بل انه يسعى الى شطب عمل من سواه واتهامه بأنه من فئة الهمل، بل ويقزم عمله ويحتقره ويصف كلمات تأليفه بأنها كالغبار عددا ووصفا.

ثم ان ابن خلدون يناقض نفسه مباشرة بعد هذا القول. فهو يعترف بأنه اعتمد في مقدمته على ما رسخ في ذهنه ووصل لعلمه واستفاد في فنه من مطالعته لكتب أولئك القوم والذين احتقرهم وقزم من أعمالهم. وفي ذلك أيضا اتهام صريح لابن خلدون بأن ما أورده في مقدمته بأغليبيته هو من جمع غيره

1 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، تحقيق حامد أحمد الطاهر، الطبعة الثانية 1434هـ، 2013م، ص 15، دار الفجر للتراث، القاهرة، رقم الايداع 2004/3101.

من المؤرخين والعلماء. وكل ما قام به هو أخذ تلك القصص والعمل على تحليلها واستنباط منظومة قواعد في علم الاجتماع وقيام الدول وتغلبها، ودراسة سلوكيات أصحابها. فدوره كان فعليا هو التحليل والنقد والاستنباط.

ويعترف ابن خلدون في ذلك بلسانه فيقول: "ولما طالعت كتب القوم وسبرت غور الأمس واليوم نبهت عين القريحة من سنة الغفلة والنوم وسمت التصنيف من نفسي وأنا المفلس أحسن السوم. فأنشأت في التاريخ كتابا رفعت به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجابا وفصلته في الأخبار والاعتبار بابا بابا. وأبديت فيه لأولية الدول والعمران عللا وأسبابا. وبنيت على أخبار الأمم الذين عمروا المغرب في هذه الأعصار وملؤوا أكناف الضواحي منه والأمصار وما كان لهم من الدول الطوال أو القصار ومن سلف لهم من الملوك والأنصار وهما العرب والبربر إذ هما الجيلان اللذان عرف بالمغرب..."¹.

وتظهر الطبيعة الخلدونية القائمة على الغرور والإعجاب بالنفس بأجل صورها عندما يصف عمله ونفسه بأوصاف فخمة طاول بها المقامات. واعتلى فيها العروش والمنارات. فيقول: "فهذبت مناحيه تهذيبا وقرنته لأفهام العلماء والخاصة تقريبا وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكا غريبا واخترعته من بين المناحي مذهبا عجيبا وطريقة مبتدعة وأسلوبا، وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الإنساني من العوارض الذاتية ما ينمك بعلل الكوائن وأسبابها، ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها، حتى تنزع من التقليد يدك وتقف على أحوال ما قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك..."².

فالغريب أن يزدري أولا أعمال الغير ويقلل من قيمتها. وهو الذي اعتمد عليها في اقتناص الروايات، ونقل منها القصص والأحداث. ثم يُتبع ذلك بمديح لنفسه وتبجيل يُظهر ما يجول في خاطره من طبائع تنم عن الغرور والاعجاب بالنفس. فيظن في نفسه أنه ما زال حاجبا لأبواب السلاطين، والساعي بأمرهم الى يوم الدين. وأنه الموجه والأمر والناهي بعد أمرهم ونهيهم.

ويقوده جنون العظمة الى أحوال أخرى تُظهر الطبيعة الميكافيلية في دمه وتفضح دواخله. فيقول: "...ولم أترك شيئا في أولية الأجيال والدول وتعاصر الأمم الأول وأسباب التصرف والحوال في القرون الخالية والملل وما يعرض في العمران من دولة وملة ومدينة وحلة وعزة وذلة وكثرة وقلة وعلم وصناعة وكسب وإضاعة وأحوال متقلبة مشاعة وبدو وحضر وواقع ومنتظر إلا واستوعبت جملة وأوضح براهينه وعلاه فجاء هذا الكتاب فذا بما ضمنت من العلوم الغريبة والحكم المحجوبة القريبة..."³.

1 - ابن خلدون، "المقدمة"، م.ن، ص 15 .

2 - ابن خلدون، "المقدمة"، م.ن، ص 15 .

3 - ابن خلدون، "المقدمة"، م.ن، ص 17 .

فالعجب أن يكتب مقدمته في فترة محدودة جمعا وتحليلا لروايات من سبقه في مدة لم تتجاوز الخمسة أشهر كما يعترف بذلك في آخر أسطر مقدمته، ويحلل فيها أحداث كابدها في حياته وعصره. ثم يمدح نفسه بمدح يصل الى درجة من له علم البواطن والظواهر. فيعتبر نفسه ما ترك شاردة ولا واردة إلا ضمنها في كتابه مما يعرض في مجال العمران. وهذا ان دل على شيء فإنما يدل على طبيعة ابن خلدون التفاخرية ودرجة الغرور والتباهي بالنفس كرسالة لمن يقرأ مقدمته. وكأنه يكتبها لشخص يبتغي منه المنصب والجاه والمال كسلطان أو وزير أو نحوهم. علما أنها لم تأخذ منه ذلك الوقت كسنوات طويلة مثلا. كما أنها لم تأخذ منه ذلك الجهد في البحث والسفر والتنقيب والتفتيش.

وكالعادة فمن به طبيعة نشأ عليها نادرا ما تتغير. فهذا الجهد الذي بذله ابن خلدون والمتمثل بالمقدمة وهذا التعب الفكري المتواصل لأربعة سنوات لا بد وأن يلقى ثمنه. وثمنه عنده يتمثل في عدة أهداف. فالخطاب الخلدوني في المقدمة كان في غالبه عبارة عن رسائل موجهة ومقصودة، سواء لأهل البداوة أو لسكان الحضر والمدن أو لذوي السلطان والشأن الأعظم. وذلك كما تقول الكاتبة ناجية بوعجيلة: "...ولا يمكن للناظر في خطابه أن لا يلتفت الى آلية بارزة من آليات تشكيله هيمنت عليه في كامل الكتاب تقريبا. وهي التوجه المباشر الى المخاطب في مراهنه على اقناعه وجعله يتبنى نهائيا كامل المنظومة التي يترجم عنها. انه خطاب جدالي بامتياز وظيفته الأساسية ليست مجرد اصال محتوى معرفي ما، بقدر ما هي تثبيت ذاك المحتوى المعرفي بالذات مع الحرص على إقصاء سائر المحتويات المعرفية المخالفة له"¹.

وكدلالة على ذلك أراه مثلا يمارس التملق للسلطان ومدحه بأوصاف ومدائح عليية وكلها بهدف تحقيق ما يصبو اليه من منصب أو مال أو جاه يعيش فيه منتعما ما تبقى له من حياة. وهذا ما ألحظه بمقدمته عندما يبين أن ما كتبه سيرسله الى خزانة السلطان أبي فارس في مدينة فاس، لتكون موقوفة لطلبة العلم والعلماء. لكن ما يلفت الانتباه هو ما قاله في مديح هذا السلطان من كلام عجيب ووصف مهيب. وكأنه يُقدِّم شيء أمامه عند ارتحاله لبلده تونس. فهو يعتمد على كلامه هذا في تحصيل منصب كريم أو مال وفير. لكن الأخطر في ذلك أنه في بداية كلامه كما أسلفت انتقد المؤرخين بكلام احتقاري، فازدراهم وقلل من شأنهم. وهو هنا عندما يأتي الدور للسلطين والحكام فلا يجرؤ على الإساءة أو حتى مجرد الانتقاد لحكمهم أو طبيعة تعاملهم مع البشر. كما قرأت عن فعله مع تيمورلنك - وسؤالي أهكذا يكون العالم المنصف الجري، يتلون بحسب الظروف والمتغيرات، فكيف سيوثق بكلامه، وكيف سيحصل الإعجاب بحديثه².

1 - بوعجيلة، ناجية الوري، "حفريات في الخطاب الخلدوني، الأصول السلفية وهم الحداثة العربية"، الطبعة الأولى 2008م، ص 107،

الاخراج الفني : بتر للنشر والتوزيع، الناشر: دار بتر للنشر والتوزيع، سوريا، دمشق، رابطة العقلايين العرب.

2 - انظر قول ابن خلدون، "المقدمة"، م،ن، ص 17- 19. حيث يقول: (ويعد أن استوفيت علاجه وأنرت مشكاته للمستبصرين وأذكيت سراجيه وأوضحت بين العلوم طريقه ومنهاجه وأوسعت في فضاء المعارف نطاقه وأدرت سياجه أتحفت بهذه النسخة منه خزنة مولانا السلطان=

ويذكرني هذا كذلك ما ذكره في سيرة حياته أنه كان يحرص على مرضاة السلطان أبي العباس في استجابته لطلبه حول اتمام كتابه المقدمة وما تبعه. وذلك لاشتياق السلطان لمعرفة أخبار المغرب والأحداث فيها، ورأي ابن خلدون بأوضاعها وسلطينها، فلما انتهى من تأليفها أهداها له ولمكتبته السلطانية برسم المحبة. وهذا ما قاله باعترافه: "وقد كلفني بالإكباب على تأليف هذا الكتاب لتشوفه إلى المعارف والأخبار، واقتناء الفضائل، فأكملت منه أخبار البربر وزناته، وكتبت من أخبار الدولتين وما قبل الإسلام ما وصل إلي منها، وأكملت منه نسخة رفعتها إلى خزانته..."¹.

الإمام المجاهد الفاتح الماهد المتحلي منذ خلع التمايم ولوث العمائم بحلى القانت الزاهد المتوشح بزكاء المناقب والمحامد وكرم الشمايل والشواهد بأجمل من القلائد في نحر الولائد المتناول بالعزم القوي الساعد والجد المواتي المساعد والمجد الطارف والتالد ذوائب ملكهم الراسي القواعد الكريم المعالي والمساعد جامع أشتات العلوم والفوائد وناظم شمل المعارف والشوارد ومظهر الآيات الريانية في فضل المدارك الإنسانية بفكره الناقد ورأيه الصحيح المعاهد النير المذاهب والعقائد نور الله الواضح المرشد ونعمته العذبة الموارد ولطفه الكامن بالمراسد للشدائد ورحمته الكريمة المقالذ التي وسعت صلاح الزمان الفاسد واستقامة المائد من الأحوال والعوائد وذهبت بالخطوب الأوابد وخلعت على الزمان رونق الشباب العائد وحجته التي لا يبطلها إنكار الجاحد ولا شبهات المعاند أمير المؤمنين أبي فارس عيد العزيز ابن مولانا السلطان المعظم الشهير الشهيد أبي سالم إبراهيم ابن مولانا السلطان المقدس أمير المؤمنين أبي الحسن ابن السادة الأعلام من ملوك بني مرين الذين جددوا الدين ونهجو السبيل للمهتدين ومحو آثار البغاة المفسدين أفاء الله على الأمة ظلاله وبلغه في نصر دعوة الإسلام آماله وبعثته إلى خزانهم الموقفة لطلبة العلم بجامع القرويين من مدينة فاس حاضرة ملكهم وكرسي سلطانهم حيث مقر الهدى ورياض المعارف خضلة الندى وفضاء الأسرار الريانية فسيح المدى والإمامة الفارسية الكريمة العزيزة...).

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م.س، ص 190.

نقد نظرياته في مدح البدو وذم الحضار وكشف السر في تبنيها

لقد خص ابن خلدون أهل البادية بعدد من الفصول شرح فيها دورهم السابق على الحضار، وبين أفضليتهم وخيريتهم وشجاعتهم المتفوقة على أهل الحضار في عدة مواضع، وفي هذا الفصل سأحاول أن أنقد رأيه هذا من عدة جوانب، وصولاً إلى كشف السر الذي دفعه لمدحهم بهذه الصورة ارتباطاً مع حياته والمحطات التي مرت بها وبما يخصهم.

المبحث الأول

نقد مقولة البدو أصل للمدن

ابن خلدون وضع نظرية مفادها "البدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما"¹. وبرهن على نظريته هذه من عدة جوانب متلازمة وهي:

أن البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم العاجزون عما فوقه وأن الحضار المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم. وهذا يلزم منه قوله: "أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه". فيلزم منه: "خشونة البداوة قبل رقة الحضارة". لذا فهو يقول: "ولهذا نجد التمدن غاية للبدوي يجري إليها وينتهي بسعيه إلى مقترحه منها ومتى حصل على الرياش الذي يحصل له به أحوال الترف وعوائده عاد - في نسخة أخرى عاج - إلى الدعة وأمكن نفسه إلى قياد المدينة"².

قبل نقدي لفكرة ابن خلدون لا بد وأن أقول أن ابن خلدون في حياته لم يتحرك سوى في مساحة محدودة، وهي بلاد المغرب العربي أولاً والتي تمتاز بجفاف صحرائها وارتفاع درجة حرارتها، وقلة مسطح نباتها، وأهلها في غالبيتهم بدو رحل وقبائل متوزعة على مساحات الأرض القاحلة، ترعى الأغنام وتقيم في الخيام، ويغزو بعضها بعضاً طلباً للكأ والماء والزعامة، وأمصارها العامرة محدودة البقاع يقوم عليها سلاطين يعتمدون في قوتهم على ولاء عشيرتهم وسكان مصرهم، وهم أي سكانها يمتنون المهن المتنوعة والتي تخدم حياتهم وترفه عنهم في معيشتهم.

ثم ارتحل بعد ذلك إلى مصر والقاهرة ثانياً وبعدها دمشق والشام والحجاز لفترة محدودة قصيرة. ثم رجع بعدها إلى مصر ليعيش فيها بقية عمره والتي كانت تحت سلطة المماليك. وكان قد كتب مقدمته قبل الانتقال إليها. وكذلك أرسل نسخة مقدمته الأولى لخزانة السلطان قبل انتقاله إلى مصر. ثم بعد سفره وانتقاله لمصر والشام والجزيرة عدل في مقدمته شيئاً محدوداً لم يصل إلى درجة التغيير الجوهرية في

1 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.س، ص 163 .

2 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 163 .

بنيته القاعدية ومنظومتها الفكرية. وهذا ما فهمته ممن قارن بين النسخ. ثم ان بلاد مصر كانت حاضرة في عمرانها وحضارتها، وتختلف كثيرا عن بلاد المغرب العربي في طبيعة الحياة فيها. وبلاد المغرب لم تتأثر بها لبعدها المسافة وعدم أمان الطريق وصعوبة المواصلات. فكان التأثير بين البلدين محدودا.

فمن ذلك أستنتج أن التأثير التحليلي والفكري الذي جاء به ابن خلدون عن قضايا البداوة والحضر والعصبية والعرب كان في عمقه متأثرا بالحياة القاسية التي عاشها في بلاد المغرب العربي والتي كما أسلفت يغلب عليها الطابع البدوي والتعصب للقبيلة والعشيرة وشيخ القبيلة. وإذا تكلم عن الحضر فهو يقصد - وأنا جازم بذلك - حواضر ومناطق حكم السلاطين كفاس والمغرب وتلمسان وبجاية وتونس. ولا يتعدها بالوصف - وان لم يذكرها تحديدا في مقدمته - كأمثلة على ما يعنيه بأن البداوة أصل للحضر. لكن سيرة حياته وتقلاته بين أمصار بلاد المغرب العربي وما واجهه في حله وترحاله، وما أسند إليه من مهام من قبل السلاطين وذكرها في سيرة حياته، وكذلك الآلام والمآسي والنكبات وفترات السجن كلها كانت تحوم في مسقط رأسه وبلاده الأصلية وهي تونس وما حولها. وهي التي كشفت وفضحت ما قصده عند حديثه عن البداوة والحضر والعصبية.

وأعود لنقد مقالته فقد بنى ابن خلدون نظريته في اسبقية أهل البادية على الحضر على قاعدة منطقية عقلانية مفادها أن الأصل في الأمور والأشياء أن يتقدم توفير الضروريات على الحاجيات والكماليات، وهذه من ناحية نظرية صحيحة. لكن من ناحية عملية لا يمكن أن تنطبق على أهل البادية للأسباب التالية :

1. أن من الضروريات الزراعة والفلاحة ، وذلك لتوفير الغذاء النباتي وهذه لأهل الحضر، ولا علاقة للبداوة بها. حيث أنهم أهل رعي للأغنام ولا يتقنون غيرها. ولا يمكن القول بأن اللحوم هي أهم الضروريات ويمكن الاقتصار عليها في المعيشة. كذا لا يمكن القول بأن النباتات الحاملة للأغذية يمكن لها أن تثبت بدون جهد بشري ولوحدها ليدافع ويرجح نظريته في أن الأصل هي البداوة. فهذا قد يحصل في بلاد خط الاستواء وغابات الأمازون والسفانا لطبيعة جوها وأرضها، وليس في بلاد المغرب العربي والشام والجزيرة العربية والتي يميل طقسها الى الحرارة، وأرضها في غالبيتها صحراء قاحلة لا تثبت النبات الذي ينمو تلقائيا ويُشَيء الغذاء إلا بجهد بشري. إذن فالفلاحة والزراعة القائمة بيد الحضر هي أصل كما أن رعي الأغنام القائم بيد البداوة أصل كذلك. وبهذا تبطل نظريته في أن البداوة هي أصل النشأة للعمران.

2. تاريخيا، فإن البدوي يعيب على الحضري رفته ونعومته وعدم استعداده للغزو. والعكس فإن الحضري يحمل على البدوي غلظته، وخشونته وتغير جسمه وملبسه، وصعوبة التعامل معه؛ لما يعانيه من لهيب الصحراء وقلة الماء والتعرض للرياح الحاملة للأتربة ودوام الصيد والغزو والنزال. فأهل البادية على الدوام أهل غزو وكر وفر، ينفرون من حياة الحضري ولا يستسيغونها لأنها في رأيهم تهينهم

وتعرضهم للزدرء، فهم يغزون ويسافرون المسافات لتحقيق غايتهم ثم يعودون لباديتهم أو عشيرتهم أو خيمهم ولا يتطلعون لغيرها، ولا يطمحون للعيش في الحضر، وغاية مقصدهم العيش في قبيلهم.

3. ثم إن عادة البدوي عدم التطلع الى العيش في المدن وتحت سقف من الطين أو الجريد أو حتى من الاسمنت، فلا يطبق هذا العيش. ويشعر بالاختناق وكأنه محبوس لمجرد هذا العيش. وما يلبث إلا أن ينزع الى الصحراء ليجد فيها متنفسه وراحته وعيشه الذي اعتاده. وأنا أقصد ذلك قبل توفر وسائل التبريد الصناعية، وعندما كان البدوي والحضري يشتركان في شدة الأجواء ولهيبها. فمن أين لابن خلدون هذه النظرية التي جاء بها، وأراد أن يجعلها شاملة لطبيعة الوجود الانساني.

ثم هو يأتي بشاهد لا أعرف من أي عصر أو بلد سمع به وذكره بناء على ذلك فقال: "ومما يشهد لنا أن البدو أصل للحضر ومتقدم عليه أنا إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصر وعدلوا إلى الدعة والترف الذي في الحضر وذلك يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها فتفهمه..."¹.

إن اعتقادي أن ابن خلدون يتحدث عن بلاد المغرب العربي التي يعيش فيها وطبائع سكانها، والتي يعود أصولها الى الأمازيغ. نعم فأصولهم غير عربية وابن خلدون لا يتكلم عن الأصول العربية، بل هو يتكلم عن حضارة أخرى وعوائد أخرى لأهل بلاد آخرين، تتميز نفوسهم أحيانا بالدفء والعواطف الجياشة والتي بدورها تتساق نحو التطلع للعيش في أمصار الحضر لأن طبيعتهم تختلف تماما عن الطبيعة العربية أو العرب الأقحاح. فلا داعي للخلط وأن نسوق حديثه في مقدمته على كافة الشعوب خصوصا الشعوب العربية.

ألا ترى على سبيل المثال في بلاد الخليج العربي، وهم سكان الجزيرة العربية، نجد العربي من أصول خليجية، والذي يعود في أصل عائلته أحيانا الى أصول بدوية، يلجأ مع وجود التبريد الصناعي الى العيش في قصر فخم. ولولا هذا التبريد ما طاق العيش في قصر ولا بيت ولا حتى بيت طين. ودليلي على ذلك أنني أرى في كثير من طباعهم أن أحدهم يسكن القصر أو ما يسمى في عرفنا "الفيلة"، فلا يطبق البقاء فيها طويلا وينزع الى نصب خيمة بجوار قصره ثم يشعل النار ويضع دلال القهوة عليها. فيحن ويرجع الى أصله البدوي مهما أصاب من غنى وترف. وهذه الظاهرة تبطل نظرية ابن خلدون في نزوع البدوي العربي الى حياة الريش والترف والمدينة. فلولا سحر التكيف الصناعي لوجدنا العربي من أصل بدوي ينزع الى أصله البدوي ولا يطبق البقاء في بيوت العمران.

يقول الدكتور مطلب مجيد محمود: "لا يمكن اعتبار غاية البدوي إذن التمدن، لأنه لم يتمدّن هو نفسه، بل أحفاده الذين تمدنوا، ومن هذه الحقيقة إن ابن خلدون وقع في خطأ مضاعف عندما لم يذكر من هي الفئة الاجتماعية التي انتقلت من المجتمع البدوي إلى الحضري، وتعميمه لظاهرة جزئية على

1 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 163 .

الظواهر الاجتماعية كافة، وتتناقض وصفه لعملية جذب الأفراد، أفراد المجتمع البدوي إلى الحضري بواسطة التمدن...¹.

أما عن سكان المغرب العربي من أصول أمازيغية فيقول ابن خلدون في أصول دياره وسكانها: "وأما إفريقية كلها تونس إلى طرابلس فبسائط فيح، كانت دياراً لنفزاوة وبني يفرن ونفوسة ومن لا يحصى من قبائل البربر الأمازيغ، وكانت قاعدتها القيروان، "تيكيروان بالأمازيغية"، وهي لهذا العهد مجالات للعرب من سليم وبني يفرن وهوارة، ومغلوبون تحت أيديهم. وقد تبدوا معهم، ونسوا رطانة الأعاجم، وتكلموا بلغات العرب وتحلوا بشعارهم في جميع أحوالهم...².

ويقول كذلك: "...أما نسابة البربر فيزعمون في بعض شعوبهم أنهم من العرب، مثل لواتة يزعمون أنهم من حمير، ومثل هوارة يزعمون أنهم من كندة من السكاسك، ومثل زناتة تزعم نسابتهم أنهم من العمالقة فروا أمام بني إسرائيل. ربما يزعمون فيهم أنهم من بقايا التابغة ومثل غمارة أيضاً وزواوة ومكلاتة يزعم في هؤلاء كلهم نسابتهم أنهم من حمير حسبما نذكره عند تفصيل شعوبهم في كل فرقة منهم، وهذه كلها مزاعم. والحق الذي شهد به المواطن والعجمة أنهم بمعزل عن العرب إلا ما تزعمه نسابة العرب في صنهاجة وكتامة وعندي أنهم من إخوانهم والله أعلم"³. إذن فابن خلدون عندما يصف دياره وطبائع البدو والحضر فيها فهو يصف طبائع الأمازيغ ولا يصف الطبائع العربية.

4. ثم إن من الطبيعي أن يكون الناس في أوليتهم يعيشون حياة قاسية، تقل لديهم فيها كماليات الحياة كسهولة جلب الماء وصنع الطعام والبحث عن أسس التعليم واكتساب المهن وتوفير العلاج. لكن ليس معنى ذلك أن يكونوا بدوا ويحملون صفات البدو الرحل. بل قد يكونوا في عيش يقارب أهل الحضر من حيث نوعية السكن حتى لو كان سكنا بدائياً من القش والطين وليس خيمة. كذلك يمتازون بالتنوع العائلي وتعدد الأنساب وليس كالبدو يأترون على شيخ واحد يأمر وينهى. ويصعب فيهم تنوع النسب لاقتصار زواجهم على بنات عشيرتهم.

5. وبعد ذلك فاني رأيت في كلام ابن خلدون هذا مدح مبطن لأصناف البادية وازدراء واضح لأهل الحضر. فهم أي الحضر في رأيه يعتنون بحاجات الترف والكمال، وهم أهل رقة ودعة. لكن سؤالي: هل يعقل أن من يزرع ويحصد يكون من أهل رقة ودعة وترف وكمال؟ وهل من يعيش حياة القرية أو

1 - محمود، د. مطلب مجيد محمود، "تفسير التاريخ في مقدمة ابن خلدون"، مجلة المورد العراقية (مجلة 8، ع1، 1989م)، ص 139 و 146، نقلا عن موقع رابطة أدباء الشام - نظرية ابن خلدون في تفسير التاريخ، براءة أحمد زيدان، تاريخ الزيارة 2016/4/25.

2 - ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، (808هـ)، "تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدا والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، ضبط المتن ووضع الحواشي أ. خليل شحادة، مراجعة د. سهيل زكار، طبعة 1431 هـ، 2001م، ج 6 ص 134-135، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

3 - ابن خلدون، "ديوان المبتدا"، م. ن، ج 6 ص 127.

المدينة ويمارس مهنة الحدادة والنجارة وحمل الماء وحفر الآبار وفتح الأقنية والمسارب المائية يكون من أهل الدعة والرقعة؟ لقد حاد ابن خلدون في وصفه عن الصواب عندما اعتبر أن أصول كبار العائلات المدنية والحضرية ترجع الى أصول بدوية، علما أن الكثير من مسمياتها تحمل في طياتها أسماء مهن وحرف كالفخوري والنجار والحداد وغيرها.

ثم إنني أعتقد أن ابن خلدون عندما ذكر ذلك كان متأثرا بعوامل محددة ومنها:

1. الطبيعة الديموغرافية لبلاد المغرب العربي في وقته كما أشرت سابقا كانت بلاد يغلب عليها الطابع البدوي. حتى أن الأمصار التي في نظره كان يحكمها سلاطين هي في وضعها الحياتي أقرب الى البادية منها الى الحضر. وذلك كون الحروب والغزوات والاعتداءات والاستتفارات وقتل سلطان لسلطان وما ذكره من اشتباكات وردت في سيرته هي في طبيعتها أقرب لأهل البادية منها للحضر. ولكون ابن خلدون يعيش هذه الحياة فقد ظن أن الدنيا بأسرها قائمة على هذه النظرية، وأن سائر البلدان والأمصار هي من نفس هذه الطينة.
2. أراد ابن خلدون أن يعتز بالجانب البدوي لغاية في نفسه سأعرج عليها فيما بعد.

المبحث الثاني

نقد مقولة خيرية البدو وأفضليتهم على الحضر

جاء ابن خلدون بنظرية في فصل جديد أثناء حديثه عن البداوة وهذا نصها: "أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر"¹. وعلل ذلك بالقول: "وسببه أن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر"². فاعتبر ابن خلدون أن أهل البداوة لم تختلط نفوسهم بعوامل المتعة والترف والبذخ المفسدة للنفس والمضيعة للخلق. ففطرة أهل البداوة أقرب للصفاء والنقاء من أهل الحضر. وما قد يتلبسون به من المتعة والترف فهو قليل جدا لا يقارن مع أهل الحضر، فيقول: "وأهل البدو وإن كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم إلا أنهم في المقدار الضروري لا في الترف ولا في شيء من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها فعواندهم في معاملاتهم على نسبتها وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة إلى أهل الحضر أقل بكثير فهم أقرب إلى الفطرة الأولى"³.

وبالمقابل فأهل الحضر يحمل عليهم ويذمهم فيقول: "وأهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها قد تلونت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك. حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم. فتجد الكثير منهم يقذعون في أقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم، لا يصددهم عنه وازع الحشمة لما أخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولاً وعملاً"⁴. وكلام ابن خلدون هذا يمكن نقده من عدة جوانب أهمها:

1. لقد ظن ابن خلدون أن ما رآه قائماً ومعتاداً عند قبائل وسكان المغرب العربي، يمكن أن يعمم على سائر بلاد العرب. فجاء بهذه النظرية التي يعتبر، بل ويجزم فيها، أن أهل البادية الذين تربوا على عقيدة الغزو والقتال والخشونة والصلابة والقساوة ويعانون من الجهل بأعلى مستوياته، سيكونون أقرب إلى الخير والفطرة الأولى من أهل الحضر الذين يتميزون بالعلم والفهم والدراسة والليونة والنظام، وإن مارسوا متع الحياة على طبيعتهم.

2. ثم أن ابن خلدون يُخطيء في مواضع عديدة من مقدمته عند محاولته التمييز بين الأعراب وأهل البادية. علماً أنني أعرف أن الأعراب منطلقاتهم من البادية وخشونتها. وعنوان الأعراب الحقيقي هو

1 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.س، ص 164.

2 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 164.

3 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 164 - 165.

4 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 164 .

البادية. فهو يمدح أهل البادية هنا، ويركز الخيرية فيهم، ويقول عنهم: "...فيسهل علاجهم من علاج الحضر وهو ظاهر"¹. وبالمقابل يذم الأعراب في مواضع متقدمة أخرى ويصفهم بصعوبة الإنقياد والطاعة. وهذا فيه تناقض عجيب.

والأخطر أن تكون عنصرية مقبولة عند ابن خلدون، وهو رأي الذي لم يصرح به: أن أهل البادية من أصول أمازيغية وهم سكان المغرب يمتازون بالخيرية، بعكس الأعراب - وهم أهل البادية من سكان الجزيرة العربية وممن رحل لبلاد المغرب وسكنها طلبا للكلأ والماء . يمتازون بالصفات المذمومة!! على أنني رأيت في مواضع متعددة أنه يعيد التهجم على بعض أصناف أهل البادية مما يدعو الى الشك بتورطه بالعنصرية أو التناقض في اقواله فيقول مثلا: "ولهذا تجد المتوحشين من العرب أهل البدو أشد بأسا ممن تأخذهم الأحكام ونجد أيضا الذين يصانون الأحكام وملكتها من لدن مرباهم في التأديب والتعليم في الصنائع والعلوم والديانات ينقص ذلك من بأسهم كثيرا ولا يكادون يدفعون عن أنفسهم عادية بوجه من الوجوه"². فهو هنا ينسب التوحش لبعض أصناف أهل البادية ويخصص فيقول: "العرب أهل البدو". فما قصده بالعرب هنا؟ وهل أهل البداوة أصناف فمنهم الأمازيغ أهل البدو...ومنهم العرب أهل البدو!!! والمتوحشون هم العرب أهل البدو فقط!!!

وفي موضع من سيرته الشخصية يذكر أهل البادية من العرب بوصف مسيء. وذلك عندما يتحدث عن أمير بجاية ابو عبد الله الحفصي، ويربط أسباب الفتن بعرب أوطانهم وهم سكان البادية المنتشرين في بلدانهم فيقول: "...ووجدت بينه وبين ابن عمه السلطان أبي العباس صاحب قسنطينة فتنة، أحدثها المشاحة في حدود الأعمال من الرعايا والعمال، وشب نار هذه الفتنة عرب أوطانهم من الدواودة من رياح...وكانوا في كل سنة يجمع بعضهم لبعض، فالتقوا سنة ست وستين..."³.

فالعجيب أنه يمدح أهل البداوة في مقدمته ويصفهم بالخيرية وتفوقهم على الحضر في هذا المجال، لكنه هنا في سيرة حياته يأتي على ذكر أهل البادية في موضع الذم. والخطير أن يسميهم عرب أوطانهم. فان كان مقصده بكلمة عرب أوطانهم مطلق أهل البداوة فقد ناقض نفسه عن قوله في مقدمته، وهي التي وصفهم فيها بالخيرية، وبالمقابل فهو هنا يذمهم ويسند لهم اثاره الفتن. وبالتالي فقد أثبت على نفسه أن الكلام في مقدمته ما هو إلا رسائل شكر وعرفان مشفرة لجماعة معينين من أهل البداوة في بلاد المغرب العربي.

لكن المصيبة إن كان قصده بعرب اوطانهم هنا صنف محدد من أهل البداوة وهم العرب وليس الأمازيغ. فينسب المشاكل وإثارة الفتن والتوحش لأهل البداوة من اصول عربية، وينسب الخيرية التي

1 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 165 .

2 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 168 .

3 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م.س، ص 95 - 96 .

- عناها في بداية مقدمته لأهل البداوة من الأصول الأمازيغية. وبالتالي فابن خلدون يثبت على نفسه القول بأنه من الداعين للتفرقة العنصرية ولتفضيل الأصول الأمازيغية على الأصول العربية.
3. وإذا كان أهل البادية على رأيه فيهم الأصول الخيرية، بعكس أهل الحضر الذين تكثر فيهم المتع وينتشر عندهم الترف ومساوئ الأخلاق التي ذكرها، كقوله: "يقذعون في أقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم". فسؤالي لماذا قضى ابن خلدون عمره متنقلا بين مناصب السلاطين في حواضر المدن والأمصار؟ ولماذا اعتاد البحث عن الترف والنعيم والرفاهية والمال كما ورد في سيرة حياته في الباب الأول وباعتراف لسانه عندما ذكر سعيه للعيش في القصور وعدم مغادرتها؟ فقال: "...وجاءني الخبر بذلك، وأنا مقيم بقصبة السلطان وقصوره"¹. ولماذا لم يسكن البادية أو يقضي فيها عمره ما دامت تمتاز بالخيرية؟ فإذا كانت نظريته صحيحة ومقدسة فالأصل فيه تطبيقها على نفسه، والسعي لما يحسن به أخلاق نفسه ويربي فيه عياله. أما وأنه قد نقضها عن نفسه ولم يسعى إليها فهذا عليه استفهام كبير. ورأيت أنه يتكلم في هذا الموضوع ليوصله كرسالة شكر ومحبة لأناس محددين من البدو والسلام.
4. والأعجب من ذلك فابن خلدون كما قرأت قضاها في خدمة السلاطين، أو التآمر على بعضهم، أو التعامل مع تيمورلنك، أو السفر بين حواضر البلاد ومدنها سعيًا للمناصب والوظائف العلية. وقد كانت مراكز السلاطين المدن وبلاد أهل الحضر ونادرا ما يسكنون البادية إلا في حالة هروب ولجوء أحدهم لقبيل يحميهم. وابن خلدون الذي ساكنهم في حواضرهم لم أقرأ على لسانه في سيرته الذاتية إلا كل مدح وتبجيل لهم. بل وصفهم بأوصاف تقارب الأولياء والصالحين. فلماذا في مقدمته يخالف نهجه في سيرة حياته؟ فيقوم بدم أهل الحواضر ويصفهم بالتلف والضعف والنعيم وقلة الشجاعة وانعدام الخيرية على عكس أهل البداوة. أم أن رأيه هذا كان عبارة عن رسالة شكر أراد توجيهها لأناس معينين من أهل البادية قدموا له الخدمات في عدة أحداث كما سأبين فيما بعد.
5. ثم إن ابن خلدون يحاول تفسير بعض الأحاديث النبوية بناء على هواه ورأيه ليخدم بذلك نظريته تلك. فيأتي بقول الحجاج لسلمة بن الأكوع وقد بلغه أنه خرج إلى سكنى البادية فقال له: "ارتددت على عقبيك تعربت فقال لا ولكن رسول الله أذن لي في البدو"². ويفسر ابن خلدون كلام الحجاج بأنه راجع لمقصد النبي عليه السلام في وجوب إرتحال وهجرة المسلمين في أول الدعوة الإسلامية إلى المدينة حتى تقوى شوكة المسلمين، وعدم السماح لهم بالرجوع على أعقابهم أي ترك المدينة إلى غيرها من النواحي. وكلام ابن خلدون هذا فيه نظر من حيث أن كلمة "عقبك" تحتل معنى آخر وهو الإرتداد عن الدين وترك الإسلام وليس فقط الرجوع للمكان الذي جاء منه أو لمكان آخر.

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م.س، ص 96 .

2 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.س، ص 165.

ودليلي قول الله تعالى: "وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين"¹. فيقول الطبري في تفسير عقبيه: "'ومن ينقلب على عقبيه"، يعني بذلك: ومن يرتدد منكم عن دينه ويرجع كافرا بعد إيمانه"². فالاحتمال الوارد من قول الحجاج لسلمة بن الأكوع هو التحذير من خطورة الرجوع لسكن البادية لما فيها من خشونة وجلافة وصعوبة انقياد أهلها للحق. فذم سكانها لما قد تؤثر على ساكنها من احتمال ترك الدين أو الاختلاط مع أولئك الأعراب فيأخذ من طباعهم الخشنة ما يرده على عقبيه من جهالة ونحوها. كما أن قول الحجاج لسلمة "تعربت"، فيه ذم مبطن للأعراب من أهل البادية حيث أن القول جاء في معرض الذم للأعراب. وهذا دليل نقض لرأي ابن خلدون في خيرية البداوة. كما أن ابن خلدون جاء بقول منسوب للمهاجرين ينسف نظريته من جذورها فيما يتعلق بالبداوة وخيريتها من حيث لا يشعر، حيث قال: "...وقد كانوا المهاجرون يستعيذون بالله من التعرب وهو سكنى البادية حيث لا تجب الهجرة..."³. إذن فالبادية وأهلها على رأي المهاجرين مذمومة ومذموم سكنها كون أهلها لا يهاجرون استجابة لأمر النبي أو أن الهجرة غير واجبة عليهم، أو لطبيعتهم البدوية القاسية والخشنة، وصعوبة العيش معهم وجلافتهم. لكن القول أساسا جاء في معرض الذم. وهو نقض لرأي ابن خلدون على كل حال. فكيف يأتي بهذا القول وهو أساسا يمدح أهل البادية ويصفهم بالخيرية.

1 - سورة آل عمران، آية 144.

2 - الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، (310هـ)، "تفسير الطبري"، تحقيق محمود محمد شاكر، ج7 ص251، دار المعارف بمصر.

3 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.س، ص165.

المبحث الثالث

نقد مقولة تفوق شجاعة أهل البادية على أهل الحضر

لقد ساورني انطباع من كلمات ابن خلدون التي قرأتها أنها تنفت من ثاياتها الغضب والتعصب ثم الازدراء المهين لأهل الحضر. فكأنه يفرغ ما في نفسه وما نكبه في حياته على جماعة محددين ساهموا في أذيته طوال مسيرة حياته. وأقصد هنا أهل الحضر وموئل السلاطين والوزراء. أولئك القوم الذين سجنوه وشردوه ومكروا ضده وأقالوه من مناصبه واضطروه الى سكن البادية القاسية في حمى عدد من أهل المروءة والكرم. إنه يقول في حقهم قولاً شديداً بناء على تأثره السابق منهم. وهذا ما فهمته من قوله: "أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر والسبب في ذلك أن أهل الحضر ألقوا جنوبيهم على مهاد الراحة والدعة وانغمسوا في النعيم والترف ووكّلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم واستناموا إلى الأسوار التي تحوطهم والحرز الذي يحول دونهم فلا تهيجهم هيلة ولا ينفر لهم صيد فهم غارون آمنون قد ألقوا السلاح وتوالت على ذلك منهم الأجيال وتزلزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبي مثوهم حتى صار ذلك خلقاً ينتزل منزلة الطبيعة..."¹.

إنها أوصاف تقشعر لها الأبدان... فهم نيام، مالوا إلى الراحة والدعة، وانغمسوا في النعيم والترف، ضعاف النفوس خائري القوى، جبناء بكل ما في هذه الكلمة من معنى. ودليل جبنهم أنهم لو هاجمهم عدو لا يتحركون من أماكنهم. بل إن طرائد الصيد كالغزلان والأرانب ترعى بجوارهم ولا تهابهم كونهم خائري القوى قد ترهلت أجسامهم فلا يركضون ولا ينشطون لصيدها. بل إنه يزدريهم ويهينهم أيما اهانة عندما يشبهه ضعفهم بأنهم كالنساء والأطفال الذين يطلبون الرعاية من أبيهم أو سيدهم. كما أنهم يحملون صفاتهم في الضعف والترهل.

وبالمقابل يصف أهل البادية بالقول: "وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي وبعدهم عن الحامية وانتبأهم عن الأسوار والأبواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم ولا ينقون فيها بغيرهم فهم دائماً يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطرق ويتجافون عن الهجوم إلا غرارا في المجالس وعلى الرجال وفوق الأقتاب ويتوجسون للنبات والهيئات ويتقردون في القفر والبيداء. مدلين ببأسهم واثقين بأنفسهم. قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية"².

1 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 166 - 167.

2 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 167.

وبعد هذا فلقد رأيت تجنيا كثيرا ونقدا عظيما على كلامه هذا من النواحي التالية:

1. فابن خلدون مرّ في محطات من حياته رأى فيها ضعف وخوار العرب والمسلمين من أهل الحواضر. فرأى الهجمة التتريّة على بلاد المشرق. كما عايش وساهم أيضا في تمرد السلاطين على بعضهم وقتل وملاحقة بعضهم بعضا. ورأى انقسام العرب والمسلمين. ولمس في جانب البدو بعض المروءة والشجاعة في حمايته وتكريمه عندما كانت تلحق به مصيبة أو كارثة فيخرج من مصره للجوء اليهم. وهو ما دفعه لأن يقول هذا القول الجارح في حق أهل الحضر.

2. وابن خلدون قد نسي أن أهل الحواضر فيهم العالم والصانع والمهني والسلطان والوزير والحاجب، والمعلم والمدرّب والصالح والطالح والإمام والطبيب. أيعقل أن يكون هؤلاء كما وصفهم ابن خلدون من اوصاف يندى لها الجبين. أم هي ثورة الغضب في لحظة عدم وعي على من أساء إليه أو أفقده امتيازاته أو جنى عليه في مراحل عمره المختلفة من أهل الحضر والمدن. على أنه يتدارك نفسه في فصل يقع بعيدا في مقدمته. وكأنه خاف من اللوم أو المساءلة، فيناقض نفسه ويعيد النظر ويقرر أن أهل البداوة محتاجون للحضر في ضروريات معيشتهم، ويسعون لديهم لتأمينها. وهم بالتالي سيخضعون لسلطان البلد التي يعيشون حولها. وهذا تناقض خطير منه، فهو بعد أن رفع من شأن أهل البداوة وفضلهم على الحضر هاهو ينتكس ويعترف بحاجة البدو لأهل الحضر.

فيقول في بيان ما سبق: "فصل في أن البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لأهل الأمصار. قد تقدم لنا أن عمران البادية ناقص عن عمران الحواضر والأمصار؛ لأن الأمور الضرورية في العمران ليس كلها موجودة لأهل البدو وإنما توجد لديهم في مواطنهم أمور الفلح وموادها معدومة ومعظمها الصنائع. فلا توجد لديهم في الكلية من نجار وخياط وحداد وأمثال ذلك مما يقيم لهم ضروريات معاشهم في الفلح وغيره وكذا الدنانير والدرهم مفقودة لديهم وإنما بأيديهم أعواضها من مغل الزراعة وأعيان الحيوان أو فضلاته ألبانا وأوبارا وأشعارا وإهابا مما يحتاج إليه أهل الأمصار فيعوضونهم عنه بالدنانير والدرهم... فهم محتاجون إلى الأمصار بطبيعة وجودهم فما داموا في البادية ولم يحصل لهم ملك ولا استيلاء على الأمصار فهم محتاجون إلى أهلها ويتصرفون في مصالحهم وطاعتهم متى دعوهم إلى ذلك وطالبوهم به... فلا يجد هؤلاء ملجأ إلا طاعة المصير فهم بالضرورة مغلوبون لأهل الأمصار"¹.

وأتساءل بعد هذا البيان أين ذلك المديح والتفضيل لأهل البداوة على أهل الحضر؟ ولماذا كان ذلك التمييز بين البدو والحضر في بداية بحثه؟ ولأي هدف ذكره؟ أم أن الأمر في بدايته كان بيانه ضروري حتى يحقق الهدف الذي يصبو إليه من مدح لأهل البادية. والهادف الى إيصال رسائل الشكر والمحبة ثم زرع الفتنة باستفزاز أهل الحضر وصولا الى إشعال المنطقة. ثم بعد أن فرغ من ذلك أشار

1 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 198-199 .

على نفسه بضرورة ايراد هذا الفصل حتى لا يكون بحثه ناقصا. لكنه أشار اليه في موضع ثاني وبعيد كل البعد عن بحثه حول أهل البادية والحضر. فقد ذكره وجاء به بعد التشهير والإهانة لأمة العرب. وبعد فصول متتالية في ذمهم والتقليل من شأنهم. فلماذا لم يذكره في موضعه المناسب؟ ولماذا ذكره بعيدا؟ هذا كله يشير الى صحة ما ذهبت اليه. فهو لا يريد لهدفه الذي يسعى اليه ان يتعكر بشئ من المنغصات، وأن يذكر حاجة البدو الى الحضر وخضوعهم لهم بسبب هذه الحاجة. ففيها افشال ذريع للمخطط المرسوم، وفيها تعكير لصفو العلاقة الحسنة بينه وبين أهل البداوة.

3. وابن خلدون نسي كذلك، وهو ما أثرت اليه سابقا أنه كان من عشاق السياسة وسكن الحضر. بل أنه هو من ساهم في كثير من المواقع في التخلي عن بعض السلاطين والتآمر على بعضهم. كما انه تنكر للعرب والمسلمين بأسرهم عند تعاونه مع عدوهم اللدود تيمورلنك، ورسم له الخطط لبلاد المغرب، وبادله الدعاء والتحية والتمجيد والتحميد. فما باله ينقلب على نفسه ويصف أهل الحضر بهذه الاوصاف وهو منهم وعلى رأسهم في قيادة الضعف والمهازل والترهل. فلقد قبل على نفسه أن يُدلى من جدار القلعة بحبل، كإنسان ضعيف جبان خائف، وأثبت بعدها قمة الجبن والخوف والهلع عندما أظهر ذلك بالصورة والكلمة لتيمورلنك، فمن كان وضعه هذا فلا يحق له اتهام غيره بما هو فيه.

4. وكرر القول في عدم قدرة ابن خلدون على فهم أن الأعراب وأهل البادية هم شيء واحد عند العرب، فصلاية الأعراب وقساوة قلوبهم جاءت من عمق البادية. وابن خلدون بمدحه لأهل البادية وشجاعتهم هو فعليا يمدح الأعراب وقساوة قلوبهم وعدم خضوعهم وانقيادهم لأمر الحق. وهو بهذا يناقض نفسه.

5. ثم أن كلمات ابن خلدون تعكس ما يخالجه نفسه ويسري في شرايينه من طبيعة نفسية ثورية على كل من هو متملق ومنافق وواشي وحاسد وسلطان معادي، خصوصا من كان قد آذاه وتعرض له في حياته من اهل الحضر. وقد حفرتها بعمق على لسانه وفي قلبه مصائب الدهر ونكساته وجراحه وآلامه. فأراه يميل الى الصراع وإشعال الحروب وحب الهيئات والاشتباكات والمواجهات. بل وإسالة الدماء وهذا أكبر دليل على تأثر كتاباته في مقدمته بما مر معه في حياته من نكبات ومحطات قاسية. وهذا ما أفهمه من كلماته: "...فهم دائما يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطرق ويتجافون عن الهجوم إلا غرارا في المجالس وعلى الرحال وفوق الأفتاب ويتوجسون للنبات والهيئات ويتقردون في القفر والبيداء مدلين ببأسهم واثقين بأنفسهم قد صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استنفرهم صارخ"¹.

ولهذه الطبيعة التي لازمتها، فهو دوما يتكلم بأسلوب المحارب والجندي المقدم على المعارك، ويعشق الاشتباكات الحربية والثورات الدموية، وينكر ويزدري ويهين أولئك الباحثين عن الهدوء والسكينة والعيش المستقر الكريم البعيد عن الصخب والخوف والرعب كأهل الحضر. فهو يريد لمن يكتب له أن

1 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 167 .

يكتوي بالنار التي اكتوى بها. ولن يهنأ له عيش ولن يقر له قرار حتى يرى الناس ملتحمين متحاربين ومشتبكين. علما أنه هو من اختار طريق السفر والترحال والبحث عن المناصب والأموال وسعى الى الحياة الرغيدة، ففشل المرة تلو الأخرى، وكان فشله مُرّاً، ونتائجه كالعلقم غصاً، فيتساعل في نفسه لماذا أتجرع تلك المرارة لوحدي ولما لا يشاركني بها خلق كثير. فجاءت كتاباته تناقض ما سعى لتحقيقه لنفسه من جهة، وتكشف وتتفق مع ما كان يدور في نفسه وخلده من جهة أخرى. ومما يدعم رأبي أنه يميل الى الصراع والرغبة بإشعال الحروب والمعارك والغزوات في رواياته وتحليلاته عبر مواضع عديدة في مقدمته. ومنها قوله في عيوب الملكية الحاكمة بالقهر والسطوة: "وأما إذا كانت الملكة وأحكامها بالقهر والسطوة والإخافة فتكسر حينئذ من سورة بأسهم وتذهب المتعة عنهم لما يكون من التكاثر في النفوس المضطهدة"¹. وسرده لقصة عمر مع سعد الممثلة بالحرب والسلب².

6. والأخطر من كل ذلك أنني لمست أن ابن خلدون يدعوا الى الانقلاب على السلطان وعدم طاعة أحكامه أو الإنقياد لأمره بطريق غير مباشر، وذلك عند اتهامه بأن الأوامر السلطانية هي المسببة لضعف النفوس وخورها وقتل همة الرجال عند الحضر من صغارهم الى كبارهم فيقول: "...فقد تبين أن الأحكام السلطانية والتعليمية مفسدة للبأس لأن الوازع فيها ذاتي ولهذا كانت هذه الأحكام السلطانية والتعليمية مما تؤثر في أهل الحواضر في ضعف نفوسهم وخضد الشوكة منهم بمعاناتهم في وليدهم وكهولهم..."³. ثم يمدح أهل البادية فيقول: "والبدو بمعزل من هذه المنزلة لبعدهم عن أحكام السلطان والتعليم والآداب"⁴.

وهو هنا يصيب من جهة ويخطئ من جهة أخرى، فيصيب عند بيانه أن أهل البادية يغلب عليهم الجهل كونهم بعيدون عن التعليم والآداب. وكأنه يمدح فيهم الجهل والأمية، ولسان حاله يقول بأن الجهل هو الأفضل لهم حتى تبقى شوكة الحرب وهمة القتال مشتعلة ومتوقدة في نفوسهم. لكنه يخطئ بقوله أنهم بعيدون عن الأوامر والأحكام، وذلك لأن لهم شيوخهم الذين يأمرهم وينهونهم، ولا يقطع البدو أمراً إلا بعد اذن شيوخهم. وهذا شبيه بالأحكام السلطانية عند الحضر.

1 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 168 .

2 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 168. وفيها يقول: (وقد نهى عمر سعدا رضي الله عنهما عن مثلهما لما أخذ زهرة بن حوبة سلب الجالنوس وكانت قيمته خمسة وسبعين ألفاً من الذهب وكان اتبع الجالنوس يوم القادسية فقتله وأخذ سلبه فانزعزعه منه سعد وقال له هلا انتظرت في اتباعه إذني وكتب إلى عمر يستأذنه فكتب إليه عمر تعمدا إلى مثل زهرة وقد صلى بما صلى به وبقي عليك ما بقي من حريك وتكسر فوقه وتفسد قلبه وأمضى له عمر سلبه).

3 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 169.

4 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 169.

ويظهر تناقض ابن خلدون عندما يعترف بلسانه ويناقض نفسه فيقول عن احتكام البدو لكبرائهم ومشايخهم: "وأما أحياء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشائخهم وكبرائهم بما وقر في نفوس كافة لهم من الوقار والتجلة"¹. إذن فإن للبدو أحكام وتعليم من نوع آخر وهي الأحكام التي يصدرها كبرائهم ومشائخهم فتكون سنداً لهم يلتزمون بها، ويتخذونها دستوراً ومنهجاً، وهو بالتالي يناقض نفسه.

1 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص170.

المبحث الرابع

السر الخفي في مدح ابن خلدون للبداوة وأهلها وذم الحضر

وقبل أن أكشف السر الخفي لهذا التقارب العجيب بين ابن خلدون وأهل البداوة في مسقط رأسه وساحة ملعبه، بلاد المغرب العربي. لا بد أن أعطي صورة عامة عن وضع القبائل البدوية "المسيطر والمتحكم" في بلاد المغرب العربي. حيث يوضح لنا صورتهم على حقيقتها الأستاذ ساطع الحصري عندما يقول: "وأما أهم القوى التي كانت تستند إليها وتستخدمها هذه الثورات والانقلابات، فكانت العشائر البدوية -العربية والبربرية- المنبثّة في مختلف الأقطار المغربية، لأنها كانت بمثابة قوات مسلحة مستعدة للغزو والحرب في خدمة هذا الأمير أو ذاك. وكان عملها يشبه الى حد كبير عمل الجيوش المرتزقة التي تكونت في أوروبا، ولاسيما في إيطاليا في أواخر القرون الوسطى. هذا وكانت بعض العشائر الكبيرة بمثابة دويلات مستقلة، "تجبي الإتاوات تحت اسم الخفارة"، وكثيرا ما تأبى أن تدفع الى السلطان شيئا من الضرائب، وتتاصر هذا السلطان أو ذاك، حسب سير الأحوال والظروف، ولا حاجة الى القول: أن انضمام مثل هذه العشائر القوية الى جيوش هذا الأمير أو ذاك، كثيرا ما كان يقرر مصير الحرب، ويضمن النصر لهذا أو ذاك، وان ابن خلدون عاشر القبائل البدوية مدة طويلة، واكتسب على البعض منها نفوذا كبيرا بفضل ذكائه وجراته، ونفوذ نظره وطلاقة لسانه، وصار يؤثّر في سياسة الدول المغربية تأثيرا ملحوظا بفضل علاقاته بالعشائر المذكورة، وسيطرته المعنوية عليها، ولا شك في أن ما كتبه عن تاريخ المغرب بوجه عام، وعن العمران البدوي بوجه خاص، كان من نتائج المعلومات التي جمعها، والخبرات التي اكتسبها خلال معاشرته الطويلة لمختلف القبائل العربية والبربرية"¹.

وخلاصة القول أن ابن خلدون في كتابته لمقدمته خلال فترة قصيرة، كان متأثرا بالجراح والأحزان والأحقاد التي مرت معه عبر محطات حياته المختلفة وعمرت قلبه، وانطبعت تلك الأحداث في مضامين أفكاره وتحليلاته. فذم الحضر، على الرغم من قضائه لمعظم حياته في حواضر الأمصار، بسبب نشوء نكباته وأحزانه ومخاوفه على يد أهلها ووزرائها وقضائها وسلطينها. وبالمقابل أراد أن يوصل رسالة شكر وعرفان واحترام لأولئك القوم الذين احتضنوه وآووه ونصروه عندما كان خائفا وهاربا من بطش السلاطين وولاة الأمر، وهم أهل البداوة، وهم كذلك أداته في نصرة السلاطين بعضهم على بعض، وفي جمع الضرائب والأتوات. فخصهم بميزات وخصائص عمل على نزعها من أهل الحضر وأضافها لهم وذلك بفضل قوتهم وتأثيرهم الكبير في سياسة السلاطين والممالك والإقطاعيات كما أسلفت وذكرت من وصف ساطع الحصري.

1 - الحصري، "دراسات عن مقدمة ابن خلدون"، م.س.، ص 61.

ولتأكيد قولي فإني ألخص ما قد وضحته وأشرت إليه في الباب الأول من دور أهل البادية في الوقوف بجانب ابن خلدون في عدة مواقف، ومن المفيد والعدالة أن أذكر بعضها. فقد اعترف ابن خلدون في سيرة حياته بلجؤه الى عرب البادية عند حصول الكثير من الملمات والكوارث والنكبات معه، والتي كانت تحصل إما نتيجة لصنع من يده أو بما سماه بالوشايات الكاذبة من وراء ظهره عند السلاطين والحكام، ومن أهم حالات اللجوء:

1. لما خرج من بجاية بعد أن عزله سلطانها من منصب الحجابة، نتيجة الوشايات كما قال، توجه الى عرب البادية، حيث شعر بالأمان. وقد حصل بعد خروجه اقتحام وتفتيش لبيته واعتقال أخيه. وهذا يدل على أن ابن خلدون كان يقع في المصيبة فيلجأ الى البادية حيث يقول: "وخرجت إلى العرب، ونزلت على يعقوب بن علي"¹. والعرب هنا يقصد بهم أهل البادية.

2. ثم الانتقال من أهل البادية المتسمين بآل يعقوب بن علي الى أهل بادية آخرين في بسكرة وهم آل الشيخ أحمد بن يوسف فيقول: "...ثم ارتحلت من أحياء يعقوب بن علي، وقصدت بسكرة، لصحابة بيني وبين شيخها أحمد بن يوسف بن مزني، وبين أبيه، وساهم في الحادث بماله وتجاهه"².

3. ولما عاد غريمه السابق ومن تخلى عنه بالأمس السلطان ابو حمو ليتولى امارة تلمسان بعد موت سلطانها عبد العزيز علم أن ابن خلدون في الطريق، فأرسل أتباعه لينهبوا قافلته وفيها عدد من الفرسان، ويخلعون عنهم ثيابهم، ويتركونهم عرايا، ولولا ما لاقوه في الطريق من اللطاف: "حنو ومساندة أهل البادية عليهم" حتى وصلوا للعرمان، فوجدوا من يلبسهم ثيابا، لماتوا في نكبتهم تلك. يقول ابن خلدون: "...وكان أبو حمو قد رجع بعد مهلك السلطان من مكان انتبأه بالفقر في تيكورارين إلى تلمسان، فاستولى عليها وعلى سائر أعماله، فأوعز إلى بني يغمور من شيوخ عبيد الله من المعقل أن يعترضونا بحدود بلادهم من رأس العين مخرج وادي زا فاعترضونا هنالك، فجا من نجا منا على خيولهم إلى جبل دبدو، وانتهبوا جميع ما كان معنا، وأرجلوا الكثير من الفرسان وكنت فيهم، وبقيت يومين في قفره، ضاحياً عارياً إلى أن خلصت إلى العرمان، ولحقت بأصحابي بجبل دبدو، ووقع في خلال من الألفاظ ما لا يعبر عنه، ولا يسع الوفاء بشكره"³.

4. لما أسند له السلطان ابو حمو مهمة في الصحراء، وكره خدمته فيها، واضطر للخروج مخادعا له وموهما له بأنه سيؤديها، ثم يغير وجهته الى أهل البادية وهم أولاد عريف ويلجأ اليهم طلبا للأمان من غضب السلطان، والذين أمنوه، وجلبوا له عياله من تلمسان، وأرسلوه الى قلعة ابن سلامه.

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م.س، ص 96.

2 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م.ن، ص 96.

3 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م.ن، ص 180-181.

فيقول في ذلك: "وأجبتة إلى ذلك ظاهراً، وخرجت مسافراً من تلمسان حتى انتهيت إلى البطحاء، فعدلت ذات اليمين إلى منداس، ولحقت بأحياء أولاد عريف قبلة جبل كزول، فتلقوني بالتحفي والكرامة، وأقمت بينهم أياماً حتى بعثوا عن أهلي وولدي من تلمسان، وأحسنوا العذر إلى السلطان عني في العجز عن قضاء خدمته، وأنزلوني بأهلي في قلعة ابن سلامة، فأقمت بها أربعة أعوام، متخلياً عن الشواغل كلها"¹.

5. والحادثة الأخيرة عندما خرج من دمشق التي كانت بيد تيمورلنك وتوجه نحو مصر مع مجموعة من أصحابه، حيث اعترضهم في الطريق مجموعة من اللصوص نهبوا ما معهم وخلعوا لباسهم وتركوهم عرايا، ولولا قرى البادية على الطريق لفصح امرهم فيقول: "وسافرت في جمع من أصحابي، فاعترضتنا جماعة من العشير قطعوا علينا الطريق، ونهبوا ما معنا، ونجونا إلى قرية هنالك عرايا... واتصلنا بعد يومين أو ثلاث بالصبيبة فخلفنا بعض الملبوس"².

فألاحظ من كل ما ذكرت صحة رأيي بأغلبيته أن ابن خلدون كان متأثراً بما جرى معه في حياته عند مدحه للبدواة ونقده للحضر في العديد من مواضع مقدمته، وأن المدح والذم كان لغاية أراد تحقيقها من خلال مقدمته.

1 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م.ن، ص 187 - 188 .

2 - ابن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، م.ن، ص 286 - 298 .

نقد مدح ابن خلدون للعصبية الموصلة للتغلب ثم الرئاسة ، وكشف السر وراء ذلك

إن الوضع الإقليمي الذي عاش فيه ابن خلدون، والطبيعة السكانية المكونة من الحضر والبادوا، وما حملته في مكوناتها من عادات وتقاليد وأفكار وتجارب، أثرت بمجملها على فكر ابن خلدون، وصاغته صياغة خاصة تحمل في طياتها العديد من التفاعلات النفسية والعصبية، وظهرت ترجمتها بكلمات وأفكار في أبواب مقدمته وما أحتوته من مبادئ ونظريات.

ويشهد على ذلك الأستاذ ساطع الحصري والذي يقول: "إن البيئة الاجتماعية والسياسية التي عاش فيها ابن خلدون كانت بيئة خاصة، تمت بصلات وثيقة الى الحياة البدوية من جهة، والحياة الحضرية من جهة أخرى، إنها كانت بيئة تجمع بين الحواضر والبادي، لأنها كانت تتألف من مدن وأمصار، داخلية في نطاق تأثير القبائل والعشائر الرحالة، أو قريبة من ميادين فعاليتها، ولذلك كانت الدول القائمة فيها تتأثر متأثراً شديداً من القبائل والعشائر، حتى أنها كثيراً ما كانت تتكون وتتحل، وتتوسع وتنقلص، وتقوم وتتهار، من جراء تألب العشائر أو تشتتها"¹.

كما يقول محمد عابد الجابري في هذا الخصوص: "إن إقامة ابن خلدون عند ابن مزني وسط القبائل لمدة سبع سنوات، وقيامه خلال هذه المدة من حين لآخر بمهمة الاتصال بهذه القبائل أو تلك، لمحاولة اقناعها بمناصرة هذا الجانب أو ذاك، فإن إقامته هذه في قلب العمران البدوي لا بد أن تكون قد أثارت انتباهه الى الظواهر الاجتماعية السائدة في هذا النوع من العمران، وعلى رأسها ظاهرة العصبية بالشكل الذي تحدث عنها به، مثلما أن إقامته من قبل في مختلف حواضر المغرب العربي والأندلس قد جعلته يطلع عن كذب على أحوال العمران الحضري وعوائد أهله وأخلاقه وطباعهم"².

ويضيف في موضع آخر من كتابه: "إن العصبية باعتبارها وزاعاً هي ظاهرة خاصة بالبدو، وذلك لأن الوازع الذي يدفع عدوان الناس بعضهم على بعض في المدينة، والذي يرد العدوان الواقع عليها من خارج هو الدولة ونظمها الدفاعية "حامية، أسوار، إلخ"، وإن العصبية في العمران البدوي تقوم بنفس الدور الذي تقوم به الأسوار والجند في العمران الحضري، أي أنها قوة للمواجهة، لا وازع للفصل بين المنازعات، الشيء الذي يقوم به كبراء القبائل وشيوخها"³.

1 - الحصري، "دراسات عن مقدمة ابن خلدون"، م.س، ص 351 - 352 .

2 - الجابري، محمد عابد، "فكر ابن خلدون العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الاسلامي"، الطبعة السادسة، بيروت، نيسان، 1994م، ص 54، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان.

3 - الجابري، "فكر ابن خلدون العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الاسلامي"، م.ن، ص 172 - 173 .

ثم بدأ ابن خلدون في الحديث عن موضوع العصبية حسب مفهومه الشخصي، وتأثيرها الإيجابي في معرض مدحه لأهل البداوة وشجاعتهم وإقدامهم. فهو يتواصل بالحديث عن البداوة وما فيها من نزعات وصفات تجعلها في مرتبة أعلى من أهل الحضر. وعلى النقيض من ذلك فهو يذم الحضر لعدم حلول هذه العصبية "المفيدة" برأيه في نفوسهم مما يفقدهم الشيء الكثير.

والشيء الذي يتحدث عنه ابن خلدون هو التغلب في الحروب والمعارك والنفرات والهيئات، وصولاً لإقامة كيان الملك ثم الدولة وتحقيق الرئاسة لصاحب العصبية. ثم يحل الضعف بعدها عند ضعف هذه العصبية في النفوس والتي تبدأ بالضعف جراء انغماس أهلها في الترف والملاذات، فيأخذ ساسة الدولة عندئذ باستخدام الجنود المأجورين للدفاع عن دولتهم. وهؤلاء المأجورون قد ينفعون في هذا الشأن قليلاً أو كثيراً إنما هم لا يصمدون طويلاً تجاه الموجة الجديدة الآتية من البادية والمشحونة عصبياً واندفاعاً جديداً... وصولاً إلى انحلال الكيان الملكي أو الدولي القائم.

لقد كان بدء كلام ابن خلدون عن العصبية تحت فصل بعنوان: "في أن سكنى البدو لا تكون إلا للقبائل أهل العصبية"¹. وجاء على بيان حقيقتها في معرض وصفه للحالة الحربية المتربصة والتمهينة عند أهل البداوة عندما قال: "وأما أحياء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشائخهم وكبرائهم بما وقر في نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة، وأما حالهم فإنما يذود عنها من خارج حامية الحي من أنجادهم وفتيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم، ولا يصدق دفاعهم وزيادهم إلا إذ كانوا عصبية وأهل نسب واحد؛ لأنهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم إذ نعمة كل أحد على نسبه وعصبية أهم وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والنعرة على ذوي أرحامهم وقرباهم موجودة في الطبائع البشرية وبها يكون التعاضد والتناصر وتعظم رهبة العدو لهم"².

إن ابن خلدون في قوله السابق، وكذلك ما سيأتي عليه من أقوال في مقدمته يشعري بأوضاع معينة ومحددة كان يركز عليها في دراسته وتحليله لموضوع العصبية. وفي حقيقتها فهي جوانب من الغضب والشدة تمثل الحالة النفسية التي كان يحياها ابن خلدون. فضلا عن أوضاع الصراع الميدانية التي كانت تجري من حوله، وجرت معه في فترات سابقة قبل كتابته للمقدمة. فقد كانت منطلقاته في تعامله مع أهل البداوة من واقع خبرته الكبيرة بهم ومعرفته المتأصلة بطباعهم. كذلك فقد كانت استكمالا لحالة المديح لأهل البداوة وإيصال رسالة محددة لهم. وهي كذلك استمرارا لحالة الازدراء والإهانة الموجهة من طرفه لأهل الحضر عبر ما يعتمل في قلبه وصدره ضدهم من مشاعر الكراهية والبغض والضغينة النابعة مما ارتكبه بحقهم من نكبات وشكايات ودسائس وسجن وإهانة وإقالة من مناصبه ومطاردة له عبر الصحاري والقفار، وتعزية له على يد اللصوص وشذاذ الآفاق، ومنع لزوجه وأولاده من الالتقاء به

1 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.س، ص 169 .

2 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 170 .

لفترات متعددة انتهت بذهابهم غرقا في البحر، أو لما قصرُوا فيه من دفاع عن حياض العرب والمسلمين ضد غزو التتار والفرنجة، ولما يعيشون فيه من حالة تفكك وتشتت وضياح وانحلال. تقول الباحثة بوعجيّة: "...لذلك ستكون السلطة في كامل الخطاب الخلدوني حkra على الأقوياء في المجتمع، أولى العصبية والشوكة، والوصول إليها يكون عبر الغلبة، وممارستها تكون بالاستبداد الطبيعي أيضا حتى تستقيم الأمور، وفي هذا المستوى يتماهى الخطاب السياسي عنده مع كل الخطابات المنطرة للاستبداد في مختلف الثقافات، فهي جميعها تؤكد أن الغلبة ضرورية لتستقيم أمور البشر في اجتماعهم، وأن الاستبداد حكم طبيعة الأشياء لا حكم البشر الاختياري"¹. ولا بد لنقد هذه الفكرة عند ابن خلدون من الدخول إليها من جوانب متعددة حتى أدرك حقيقة ما كان يقصده ويسعى إليه.

المبحث الأول

مفتاح قلوب أهل البداوة لتحقيق الغاية من مديحهم

لقد عرف ابن خلدون سحر ما يجمع أهل البداوة بعضهم لبعض، وأدرك سر تغلبهم وانتصاراتهم في حروبهم. وهي تلك الحمية المبنية على الولاء والذوبان في العشيرة أو القبيلة، والحب المتناهي والذي يجمع شيخ القبيلة البدوية مع باقي أفرادها وبنيتها. وأنه يعز عليهم ويكبر في صدورهم أن يُضام أحدهم بضيم بوجودهم وتنفسهم للهواء. وبالوصفة السحرية القائمة على الجهل وعدم التعلم وانعدام التفكير قبل الاقدام على فعل عسبي ما، أدرك أنه إذا ما اجتمعت هاتين الصفتين في قلوب البدو، أنتجتا رحيقا ختاميا قائما على البطش والحرب وإسالة الدماء بدون تفكير أو وعي أو تدبر بحلية هذا الفعل أو حرمة، وهو ما نسميه في عرفنا العصبية القبلية الهوجاء والعمياء.

وهذا السر الذي أراد ابن خلدون أن يتغنى به ويستجلب به حب وتعاطف قلوب أهل البداوة، وصولا الى تحقيق الغاية والغرض المطلوب أساسا من مدح البداوة، والمتمثل بإيصال رسالة خاصة قائمة على الشكر والعرفان والاحترام والاعتراف بالجميل لأولئك القوم الذين ناصروه وحموه وأكرموا. وكذا تحقيق ما وسعه تحقيقه من مناصب وتقرب للسلاطين بواسطة تقديم خدمات لهم عند توسطه لصالحهم لدى أهل البداوة.

وتظهر خبرة ابن خلدون بطبائع أولئك البدوان في وصف ساطع الحصري عندما يقول: "...وظل يلعب دورا هاما في سياسة الدول المغربية بطريقة جديدة وأسلوب خاص: حيث صار يخدم هذا السلطان أو ذاك عن طريق استئلاف القبائل واستتباعها، دون أن يتولى منصبا رسميا، ودون أن ينتسب الى حكومة من الحكومات، وذلك لأنه كان اكتسب خبرة كبيرة في شؤون البدو، وسيطرة معنوية على

1 - بوعجيّة، " حفريات في الخطاب الخلدوني، الأصول السلفية ووهم الحداثة العربية"، م.س، ص 201.

العشائر، وإقامته في بسكرة بين أهم مجالات العشائر البدوية، زادته خبرة على خبرته السابقة، وضاعفت سيطرته المعنوية عليها. إنه أصبح بارعا في استمالة القبائل واستئلافها واستتباعها، ولا نغالي إذا قلنا إنه أصبح بمثابة الملتزم والمورد لتلك القوى المسلحة، إنه كان يوجه العشائر الى خدمة السلاطين الذين يشايعهم، حتى إنه كان يصطحبها في بعض الأحيان، إنه شايع وخدم بهذه الصورة، أولا سلطان تلمسان أبو حمو، ثم سلطان المغرب الأقصى عبد العزيز¹.

ومن هذا فقد عرف ابن خلدون معشوقة أهل البداوة عند الصيحات والهيئات والفرعات. تلك المعشوقة والمحبوبة الى النفس، لا تظهر ماديا ولا حسيا وإنما تسكن القلب المعنوي بخفاء وشجون. وكأنها سينفونية أوتار تتغنى وتتراقص عندما يحين موعد الجنون البشري. انها معشوقة أهل البداوة والمسماء بالعصبية. ولقد حاول ابن خلدون أن يبرر سبب مدحه لهذه العصبية بلجونه للقرآن لعلمه بقيمة قداسته في القلوب، فاستشهد بقصة سيدنا يوسف في معرض بيانه للرابطة بين يوسف وإخوته المبنية على الدم والقربى كون القرآن قد نطق بها وهي كلمة "عصبة". فضلا عن تأثره بالواقع العربي المغربي الذي كان يعيشه والذي يميل الى الطابع البدوي، والذي يمتاز بالرابطة العشائرية المبنية على الدم والعائلة والنسب وصلة القربى.

لكن استشهاده بالقرآن وتحديدًا بكلمة عصبة، لا يعني ذلك أنه برر لنفسه وللقرآن صواب ما عناه من مفهوم العصبية الإيجابي، فكلمة عصبة في قصة يوسف لا تعني أكثر من جماعة متكثلة مع بعضها، ولو كان معناها جوهر العصبية التي عناها ابن خلدون وهو الالتحام النفسي والولاء المبني على الفداء بين أفراد المجموعة أو القبيلة، لما مكر أخوة يوسف بأخيهم وبيتوا له تلك الخطة لإلقائه في الجب، فالله علم بنيتهم السوداء ومع ذلك قصص على ألسنتهم وذكر لنا كلمة عصبة، وهذا دليل على أنها لا تعني العصبية التي أرادها ابن خلدون.

1 - الحصري، "دراسات عن مقدمة ابن خلدون"، م.س، ص 81 - 82 .

المبحث الثاني

تحقيق استراتيجية الصراع وتفجير الأجواء بأسلوب الإغراء عند كشف سمات العصبية

تكررت محاولات ابن خلدون والتي سعى من خلالها أن ينفس عن عذابات نفسه وآلام قلبه وشواجن مكنوناته، بتحريض وإغراء من يقرأ مقدمته وبأسلوب غير مباشر الى الاندفاع بتهور وعدم روية نحو الحروب والمعارك وإسالة الدماء وتفجير جوانب الصراع. فما يعتمل في صدره من ضغوطات وآلام تبلور بتركيز حديثه عن الفوائد والامتيازات والخصائص التي يمكن أن يجنيها القارئ لمقدمته إذا ما تبنى وأعجب بفكرة العصبية وسعى الى تطبيقها.

فابن خلدون عندما استخدم كلمة العصبية لم يكن يتحدث بالرومانسيات ولا الى ما يسعد النفس ويلطف الأجواء، بل كان مدار هذه الكلمة حول الحروب والاشتباكات والهيئات والصيحات. فأسطره وكلماته وفواصله ألمس فيها الروح الثورية المتصارعة مع الغير. وأسمع قرع السيوف واشم رائحة البارود وغبار حوافر الخيول في ساحات الوغى والمعارك. وأتنفس من خلالها اجتماعات العساكر ودراسة الخرائط والتخطيط لما هو قادم والتحذير من رعب عابر. فكلها تتحدث عن أجواء المعارك والحروب والشجاعة ودفع العدو وحماية القبيلة وملاحقة الطرائد ومواجهة الشر ومقاومة الخوف ومنع التسلل والمرابطة على الثغور ومراقبة طرق المرور.

ثم كان لجوؤه الى مدح أهل البداوة لعلمه وجزمه يقينا أن هذه الأجواء يمكن أن تتحقق بأيديهم فهم أهل لها وإذا نجح باستثارتهم أمكنه النجاح باستثارة من سواهم. فيتحقق مقصده ويشفى غليله ويتنفس الصعداء على ما حقق وأنجز. انها سياسة غسل الأدمغة وإثارة نوازع الثأر والانتقام والغيرة والعصبية الباطنية نحو تحقيق ما تشتاق اليه النفس وما تعشقه.

ان مشاعر التكبر والظهور والانتصار والتغلب على الغير، والبطش به، والشجاعة والفروسية، ثم معاني الصيحات الحربية والتدريب الميداني، هي أحاسيس باطنية تنام بسبات عميق مع الاجواء الرومانسية المعطرة برائحة الورود والأزهار والأموال والغنى الفاحش والنساء الجميلات. ولا سبيل الى ايقاظها من سباتها العميق إلا بإثارة تلك النوازع على يد المجموع الهائج الصائح من أعماق النفس. ولقد استخدم ابن خلدون هذا الاسلوب لإثارة هذه الأداة العصبية عندما تغنى بفوائدها وخصائصها في مواضع متعددة من مقدمته، حيث عملت على جمع أغلبها ونقدها نقدا بناء ومفيدا.

وكان من أبرز مقولاته فيها ما يلي:

1. يقول في فائدتها محرضا: "وإذا تبين ذلك في السكنى التي تحتاج للمدافعة والحماية فبمثله يتبين لك في كل أمر يحمل الناس عليه من نبوة أو إقامة ملك أو دعوة. إذ بلوغ الغرض من ذلك كله إنما يتم بالقتال عليه لما في طبائع البشر من الاستعصاء ولا بد في القتال من العصبية كما ذكرناه آنفا فاتخذ

إماما تقتدي به فيما نوره عليك بعد"¹. فقد أبرز ابن خلدون فائدتها هنا وهي لغرض تحقيق الملك وانتصار المبدأ وإجبار الناس على الخضوع والانكسار والطاعة سواء لذلك الملك أو لتلك الدعوة، فلا بد من القتال. والقتال لا ينجح من غير عصبية. بل يدعو لأن تكون العصبية الحربية اماما يقتدى به. وهو بهذا يضع خطة تحريضية محكمة لمن رغب بانتصار مبدئه أو دعوته وحمل الناس عليها فهذه هي نصيحته وتوجيهاته.

2. ويقول في موضع آخر: "ولما كانت الرئاسة إنما تكون بالغلب وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب ليقع الغلب بها وتتم الرئاسة لأهلها فإذا وجب ذلك تعين أن الرئاسة عليهم لا تزال في ذلك النصاب المخصوص بأهل الغلب عليهم إذ لو خرجت عنهم وصارت في العصائب الأخرى النازلة عن عصابته في الغلب لما تمت لهم الرئاسة"². وهنا أرى رسالة خطيرة يوجهها لأصحاب الملك والسلطين ومفادها إياكم وإهانة أهل العصبية عندكم ولزما عليكم اكرامهم والسعي لراحتهم وتحقيق امنياتهم وغاياتهم على حساب المنفردون بعصبية ضئيلة. فان مجرد اهمال عصبيتكم الرئيسية فقد قضيت على مستقبلكم ودمرت عرشكم. فان التغلب لا يحصل إلا بها. ودوام الحال من سعادة وملك وسلطان بدوام فضل وقوة وتغلب هذه العصبية خاصتكم. ولا تغتروا بالعصبية الأخرى المتفرقة فتضموها لعصبيتكم حيث ستكون وبال عليكم.

ثم ان ابن خلدون هنا يتكلم عن الرئاسة التي تأتي بالقهر وإخضاع الغير، أي أنه يتحدث عن الملكيات الجبرية البعيدة كل البعد عن الانتخابات الديمقراطية. فلا ورود عنده لمفهوم الحقوق الانسانية أو الاختيار الحر أو حتى اسلوب التشاور ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب. فكيان ابن خلدون تربى في واقع تملؤه الحروب واقتتاص الفرص وتدمير الضعيف والانقلاب عليه والسيطرة على ملكه واستلاب ما بحوزته بالقهر والتغلب والتخويف والإرهاب، مستعينا بعصبية التي حرص على تنميتها ورعايتها. وهذا مريب الفرس في تحليل نفسية ابن خلدون وكشف ما يعتل في داخلها من عوامل الضغط والشدة والكراهية والعنفوان وعشق الانقلابات والحروب.

3. ويقول في موضع آخر: "...وذلك أن الرئاسة لا تكون إلا بالغلب والغلب إنما يكون بالعصبية كما قدمناه، فلا بد في الرئاسة على القوم أن تكون من عصبية غالبية لعصبياتهم واحدة واحدة لأن كل عصبية منهم إذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم أقروا بالإذعان والإتباع والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب إنما هو ملصق لزيق"³.

1 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.س، ص 170 .

2 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 174 .

3 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 174 .

لقد اندهشت من كلمات ابن خلدون المتكررة كقوله: "قلا بد في الرئاسة..."، وكلماته: "لأن كل عصبية منهم اذا احست بغلب عصبية الرئيس..."، وقوله: "والساقط في نسبه، انما هو ملصق لزيق". انها توجيهات حربية وخطط لذوي السلطان الأعظم والباحثين عن الملك... فيجب تشكيل أحزاب متناحرة قائمة على أساس العصبية المتحدة. ولا انتصار ولا زعامة الا "لأكبر زعيم تتبعه أكبر عصابة انضوت تحت رايته بمسمى عصبية". فهو تحريض على تملك أنصار الحزب الواحد "أو السلطان ذوي النفوذ الأقوى والأوسع في أقاربه وأنسابه" مقاليد الحكم وعدم الحياد عنها أو التنازل عنها للغير، والتخطيط لبقاء هذا الحكم في أولاده وأحفاده جيلا بعد جيل.

أوهو ما يعني "تغلب الحزب الواحد وسيطرته على كامل مقدرات البلد وإهمال ذوي العصبية الضعيفة التي هي بمثابة ملصق لزيق". بل هو كذلك يشعل قلوب ساقطي النسب أو ذوي العصبية القليلة بلسان حال يقول "أنكم لا حظ لكم في هذه الدنيا فانتم كالضعيف التافه الملتصق بمن هو أعظم شانا منه طلبا للامان والبقاء والحياة".

انها اهانات وتحريضات وتوجيهات، تنطوي على اشغال لوقود الحرب بين القبائل، وتفرغ للجمر اللهب الذي يعتل في قلبه ضد سلاطين وملوك وأمراء ووزراء وحجاب وقضاة المغرب العربي الذين أهانوه وذلوه وطردوه وطاردوه ولم ينزلوه المقام الاسمي الذي يستحقه. فلقد رأى ابن خلدون أن أكثر ما يسره ويغبطه ويملاً قلبه فرحا وسرورا أن يراهم متعاركين متصارعين مدمرين لبعضهم بعضا وهو ينظر اليهم من بعيد. لقد لجأ الى تيمورلنك أملا في تدمير المغرب بأسره فرسم له الخطط ومدحه وتغنى بشكره وحمده على أمل أن ينتقم له من أولئك الذين كادوا له ودسوا له الدسائس. ان كلماته بقدر ما فيها من وصف للنفوس وتحليل للنظام المجتمعي الذي كان دارجا في شمال أفريقيا، بقدر ما تحتويه من عوامل التفرغ والتحريض وان بطريق غير مباشر.

هل يعقل أن تكون دعوة ابن خلدون مبنية على سيادة الظلم والجبروت والاحتقار والاستفراد بالحكم وإهانة الضعيف. علما أن نظريته هذه عليها نقد شديد، فإني أجد في زماننا كثير من الشعوب والدول وخاصة غير الناطقة بالعربية تنتخب رئيسها من مجموعة من المرشحين بغض النظر عن حجم عائلته أو قبيلته (أي عصبية)، وينجح ويتولى الرئاسة مدة مقدرة من الزمن. فضلا عن أن الجيش والعسكر الذين يتولون حراسته وحراسة دولته هم من عصبية وعائلات متعددة متفرقة ضعيفة كانت أو قوية. وهذا أكبر دليل على بطلان نظرية ابن خلدون في تحقيق التغلب وصولا للملك والرئاسة عبر العصبية العائلية والقبلية في عموم الشعوب والأقطار.

كما أن ذلك دليل على أن ابن خلدون كان يتحدث عن بقعة جغرافية محددة وقبائل محددة وأناس محددين. بل الأكثر من ذلك أن ابن خلدون كان يصدر ويرسل بنصائحه الى قادة الملكيات والسلطنات فيما ينفعه لبقاء ملكهم وعروشهم. فضلا عن تحقيق ما يصبو اليه من تقرب الى قلوب السلاطين وبحث عن مصالح سياسية ومالية ومناصب ووظائف عندهم، موهما إياهم بقدرته على

دراسة النفسیات والأنظمة وقوانين الطبيعة والزمن والسنن الكونية، وما يديم الحكم والسيطرة وما ينهيها. ثم يحقق مقولة ضرب عصفورين بحجر عندما يستفيد حظوة وتقرباً عندهم من جهة ومن جهة أخرى يُشعل نيران الحروب والمعارك بين المتنافسين منهم ويجلس للنظر إليها وهي تشتعل وتُأكل الأخضر واليابس وهو مسرور ومبتسم ويتشمت بهم وبصنائعهم.

4. ويقول أيضاً: "والرئاسة على القوم إنما تكون متناقلة في منبت واحد تعين له الغلب بالعصبية"¹. هنا يشير بل ويدعو ابن خلدون في كلمته "إنما تكون..." إلى الحكم الديكتاتوري الجبري القائم على تسلط حاكم واحد أو سلطان واحد قوي باتباعه وعصبية يستفرد بالحكم لوحده ولفترة طويلة من الزمن. ويضع له الضمانة الأكيدة على استمراريته بالحكم عندما يبين له ويدعوه إلى الحفاظ على مصالح عصبية ونفوذها وقوتها، كإسناد مفاصل الدولة إليهم، وعدم السماح لأبناء العصبية الأخرى بالنفوذ إلى المناصب الخطيرة. بل وفيها دعوة ضمنية لتأديب ومكافحة وقتل وإعدام كل من يحاول التفكير بتغيير أو قلب نظام الحكم، أو حتى يعترض على هذا الاستفاد ويدعو لتغييره. فالعصبية الرئاسية هي المستفردة وعلى البقية أن يحترموا هذه العائلة المالكة، وإلا فمصيرهم إلى العذاب والزوال.

5. ويوجه السلاطين لنصيحة خطيرة مفادها: "...فمعنى الحسب راجح إلى الأنساب وقد بينا أن ثمرة الأنساب وفائدتها إنما هي العصبية للنصرة والتناصر. فحيث تكون العصبية مرهوبة والمنبت فيها زكي محمي تكون فائدة النسب أوضح وثمرتها أقوى وتعيد الأشراف من الآباء زائد في فائدتها. فيكون الحسب والشرف أصليين في أهل العصبية لوجود ثمرة النسب وتفاوت البيوت في هذا الشرف بتفاوت العصبية لأنه سرها"²

فبهذه النصيحة يبدأ ابن خلدون ببناء العائلات السلطانية، ويتدخل في أخص خصوصيات الإنسان البشري. فقد أدرك ابن خلدون أنه مما يعتز به الشريف أو صاحب السيادة والرئاسة هو تسلسل شجرة آباءه من الأشراف لتكوين عائلة عريقة في النسب. كما يحرص على أن يكون نسله وسلسلة الآباء في أسرته من ذوي الحسب والنسب ليبني من جهة عصبية له ولعرشه، ويتشرف بذكر أصله ونسبه عند شعبه وقبيلته وأهل عصبية. فيبدأ ابن خلدون بالغزل على هذا الوتر ويربطها بالعصبية لتولد عنده قضية رائعة ومبهرة من الظاهر لكنها خطيرة وذات أبعاد سلبية من الباطن.

فينصح ويأمر ذوي السلطان والباحثين عن الملك أن يتزوجوا نوعية معينة من النساء، تساهم في تحقيق مصالحهم وغاياتهم في التوسع والسيطرة والسيادة. واقصد نوعية ذات حسب ونسب، بغض النظر عن الإعجاب بها، أو الإحساس بمشاعر الحب والميل العاطفي تجاهها. فلا قيمة لمشاعر الحب والميل العاطفي بين الرجل والمرأة. بل هي مشطوبة من قاموس ابن خلدون. وعلى كل شاب من

1 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 175.

2 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 177.

ذوي السلطان والشأن الأعظم أن يتخير لنفسه من الزوجات من كان أبوها أو أخوها سلطان مثله، أو ذي مركز مرموق يستند الى ولاء عائلة تدين له بالطاعة والعصبية. وذلك حتى يُقوّي عصبية بالنسب. فتتشكل لديه عصبية واسعة قوية منيعة.

والخطورة هنا أنها قضية تدفع لاتخاذ الخليلات والعشيقات. فمن الطبيعي أن زواجه المعلن كان لمصلحة يقتضيها نظام الحكم والعرش. وهذه الزوجة قد تكون بشعة في نظره، لكن مصلحة القبيلة أو العشيرة أو السلطنة تفرض عليه الزواج منها. وبالمقابل إذا ما فكر بطعم الحب والعاطفة الحقيقيين سيضطر لاتخاذ عشيقة يرتضيها لنفسه. وبهذا يحقق مصلحتين: فيحقق أولاً مصلحة بالإبقاء على عرشه قوياً، ويحقق ثانياً متعته بالطريق التي يرغبها.

وأنا هنا لم أضع كلاماً على لسان ابن خلدون ولم أتجنى عليه، لكن دعوته الضمنية للباحثين عن الملك والرئاسة بالتركيز على نسب محدد يعتز به كتسلسل عائلي من الآباء، وإهمال موضوع الحب والميل العاطفي وإعجاب كل طرف بصاحبه، ليقوي به عصبية ويكثّر أتباعه ومناصريه، سيؤدي ويقود ضمناً الى اعتبار الزواج مصلحة تفيد العرش وليس حياة واستقرار وبنية نفسية قائمة على التواد والتراحم والتعاطف والمحبة، وإيجاد نسل يمتاز بصفات الخلق والصحة.

وهذه الدعوة من ابن خلدون تكشف مدى المرارة التي كان يعانيها من أهل النظام والسلطان من جهة، حيث يوجههم بنصائح ظاهرها الرحمة وباطنها تفكك واضمحلال وعذاب وتفسخ لبنية الأسرة وكيانها. وهو من جهة أخرى يُظهر لهم أنه الناصح الأمين والحريص على مصالحهم فيحقق لنفسه القرب منهم، ويضمن لنفسه المنصب والمال والوضع السياسي المحترم كمستشار أو حاجب لأحد السلاطين. 6. وكذلك يقول: "اعلم أنه لما كانت البداوة سبباً في الشجاعة كما قلناه في المقدمة الثالثة لا جرم كان هذا الجيل الوحشي أشد شجاعة من الجيل الآخر. فهم أقدر على التغلب وانتزاع ما في أيدي سواهم من الأمم. بل الجيل الواحد تختلف أحواله في ذلك باختلاف الأعصار. فكلما نزلوا الأرياف وتفنقوا النعيم وألفوا عوائد الخصب في المعاش والنعيم نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبدأوتهم"¹.

ينتقل ابن خلدون هنا بعناية ورفق وهدوء في مدحه لأهل البداوة ليضرب على الأوتار الحساسة عند الجيل البدوي الناشيء. فهو يدرك كما أسلفت عشقهم لمعاني العصبية والشجاعة والتغلب. فيضيف مصطلحاً جديداً يسمى بالتوحش. وهو تشبيهها لهم بالوحوش الكاسرة. وهذا مما يفيد ابن خلدون في التقرب الى أهل البداوة واستمرارية إيصال رسائل الشكر والعرفان لهم، وفتح طاقات من المصالح والمنافع بينه وبينهم.

1 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 182 .

ومن شدة عمق التفكير عند ابن خلدون في المفاهيم والمصطلحات المخترعة لتمجيد أهل البادية ينتيه في كلماته فيذكر المقدمة الثالثة وهي في الحقيقة المقدمة الخامسة حسب ما صححه المحقق. لكن ما يعنيني هو دعوته الضمنية لإثارة عوامل الحرب والنزال والغزو والسلب والنهب عندما يقول حرفيا: "لا جرم كان هذا الجيل الوحشي أشد شجاعة من الجيل الآخر فهم أقدر على التغلب وانتزاع ما في أيدي سواهم من الأمم...". ويؤكد دعوته بالقول: "لا جرم..."، وهذا يعني خطاب الحرب للوحوش الكاسرة...أنتم الأقدر...وأنتم الأقوى...على التغلب وتحقيق الصراع لانتزاع ما في أيدي الآخرين سلبا ونهبا.

والسبب لما سبق كما أفهم، أنهم لم ينزلوا موئل الضعاف والمنكسرين والجنباء من أهل الأرياف، ولم تنغمس نفوسهم بالترف والنعيم في حواضر الأمصار فيقول: "فكلما نزلوا الأرياف وتفنقوا النعيم وألفوا عوائد الخصب في المعاش والنعيم نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبدوتهم". وهذه ضربات ثلاثية مزدوجة يحقق فيها غاياته كلها، فهي اهانة وهي تحريض وهي إشعال للحروب والمعارك. فإهانة لأهل الحضر الذين وصفهم بالمتعمين الغارين الجبناء، وهذا بداية زرع عوامل التفسخ والتدهور في علاقات أهل البداوة مع أهل الحضر تحقيقا لغاية يبحث عنها. فلا أنسى ما كابده في عيشه في حواضر المدن وقصور السلاطين من كوارث ونكبات وسجن وملاحقات واهانات وطرد من وظائفه ومن دسائس ومكر واتهامات. وقد حانت الفرصة لتوجيه ضربته القاضية عبر مقدمته لينتقم من أولئك الذين دمروا حياته وسعوا بالوشاية ضده.

ثم هي تحريض وزرع لعوامل الحقد والكراهية بين الفئتين، فيصف أولئك البدو بالشجاعة والتوحش والاقدام، ويحذرهم من النزول لمواطن أهل الحضر والريف لما يمتازون به من الضعف والجبن والانغماس في الترف والنعيم. وقصده الذي يشير إليه من بعيد ولسان حاله الذي يتكلم به "أولئك الماكرين الغادرين الذين مكروا بي ووشوا بي... وإلا لماذا قِيلَ على نفسه أن يعيش بينهم ان كانوا أهل ترف وبذخ ونعيم وضعف وليونة؟ ولماذا قيل على نفسه أن يبحث ويعتلي أرفع المناصب وأرقى الوظائف المليئة بالبذخ والمال والمتعة؟ فان كان لا يرتضيه لغيره فالأولى أن لا يرتضيه لنفسه. وإلا فإن كلامه سيفسر على غير مقصوده.

ثم هي تفجير للصراع وإشعال لنيران الحرب والنزال بين الفئتين. فإذا ما امتلأت قلوبهم غيضا على بعضهم بعضا، نصبوا رايات الحرب لبعضهم، وغزو وصارعوا وانتهبوا ما وقع تحت أيديهم من ديار بعضهم بعضا، فتحقق المقصود لابن خلدون ونجح في غايته التي يبحث عنها من تقريب نفسه لقلوب أهل البداوة عن طريق مدحهم وإيصال رسائل الشكر لهم على خدماتهم له، وكذا إيقاع وإشعال الفتنة بينهم وبين أهل الحضر.

7. ويقول كذلك: "وإذا كان الغلب للأُمم إنما يكون بالإقدام والبسالة فمن كان من هذه الأجيال أعرق في البداوة وأكثر توحشاً كان أقرب إلى التغلب على سواء إذا تقاربا في العدد وتكافأ في القوة العصبية"¹. هنا يعيد ابن خلدون دعوته للنزول إلى البادية وترك الحضرة، ففيها الشجاعة والتوحش وتحقيق المقصود بالغلبة. وهو بهذا يستمر في تحقيق ثلاث خصال متوالية، فهو مديح لأهل البادية وتوجيه رسائل الشكر لهم، وهو كذلك تحريض كما أسلفت لأهل البادية على أهل الحواضر والمدن، وهو كذلك توجيه ودفع لمن يرنو التغلب للوصول إلى الملك والرئاسة أن يجعل عصبية شبيهة بعصبية أهل البادية في التوحش والبسالة والإقدام. وهو بهذا أيضاً يشعل الحروب والمعارك ويعود لإثارة نوازع التفرقة والانتقام. ويركز حديثه على أجواء الصراع ليحقق غايته التي يصبو إليها.

8. ويوجه ابن خلدون رسالة خطيرة هنا للملوك والسلاطين مفادها: "وهذا التغلب هو الملك وهو أمر زائد على الرئاسة، لأن الرئاسة إنما هي سؤدد وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في أحكامه. وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر. وصاحب العصبية إذا بلغ إلى رتبة طلب ما فوقها فإذا بلغ رتبة السؤدد والاتباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لا يتركه لأنه مطلوب للنفس، ولا يتم اقتدارها عليه إلا بالعصبية التي يكون بها متبوعاً فالتغلب الملكي غاية للعصبية كما رأيت"².

لقد أدرك ابن خلدون شهوة الملوك والسلاطين وأمراء الاقطاعيات وما يعتمل في نفوسهم من عوامل الرغبة بالتحكم والقهر والإذلال ودوام السيطرة والتغلب وعدم الإنهزام، وإبقاء الولاء لهم من التابعين والمناصرين. فضرب على هذا الوتر الحساس ليستجلب لنفسه ما يقدر عليه من تقرب وتعاطف وانبهار. فيحقق غايته في نيل منصب سياسي أو وظيفة مرموقة محترمة.

لذلك فهو يقوم بتوجيه نصحه وإرشاده لذوي الشأن الأعظم ليحذروا من جهة، وليسعوا لتحقيق ما نصح به من جهة أخرى. فابن خلدون هنا يشير إلى أن مطلب استمرارية ودوام منصب الرئاسة ليس مضمون على الدوام؛ لأن صاحبها وإن كان يعيش في حالة من السؤدد والانبهار بنفسه كما وصف، إلا أن أحكامه وتشريعاته التي يصدرها على تابعيه لن يكون لها ذلك التقديس والاحترام عندهم ما يدفعهم لأن يلزموا أنفسهم باتباعها. أو بمعنى آخر لن يكون له قهر عليهم. ويوجه نصيحته لهم تحت أجواء إثارة الحروب وتفجير الصراع وتحقيق الرغبة بالهيمنة والقهر والإذلال، أن الأفضل لهم السعي لمنصب الملك. وبكل ما في هذه الكلمة من فخامة ورفعة وسؤدد ورهبة وسيطرة ومجد. فالملك يحقق الهيمنة والقهر والتغلب والرفعة والطاعة العمياء.

ويرتبط تحقيق الملك بسر خفي، يكشف عنه ابن خلدون بتهميل لبيهرهم به، ويوهمهم أنه حقق كشفاً مبيناً وأزال الستار عن سر عظيم. والسر عنده هو: "العصبية"، إذن فابن خلدون يدغدغ مشاعرهم

1 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 182.

2 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 183.

بأسلوبه الخاص ويذكرهم أن التغلب والسؤدد والقهر والإذلال للغير هي صفات معشوقة لهم، ويدلهم على طريق تحقيقها والفوز بها ليقهروا بها العباد ويذلوا بها المساكين والضعفاء، فيقول: "فإذا بلغ رتبة السؤدد والإتباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر، لا يتركه لأنه مطلوب للنفس، ولا يتم اقتدارها عليه إلا بالعصبية".

فالعصبية هي السر الخفي ومن استطاع أن يلهم الأتباع من ذوي الصحبة والخاصة والقربى والنسب، فيكسب ولاءهم وتلتحم قلوبهم بقلبه فداء واستبسالا فقد حقق رتبة الملكية، وملك أساليب التغلب والقهر والتحكم والسيطرة.

ويسترسل ابن خلدون في بيان فضل العصبية تحقيقاً للغايات التي يصبو إليها من إثارة للصراع والعيش بأجواء الحروب والمعارك وما يلحق بها من انتصارات ومغالبة وقهر للخصم وإذلال، ويضع ابن خلدون نفسه مقام المحارب الشجاع البطل. فكما أن الفارس المقدام ينال الأوسمة والنياشين من قادته وملكه وسلطانته، فابن خلدون يطمح بهذه التوجيهات والنصائح وادعائه ضمناً أنه حقق كشفاً باهراً أن ينال العطف والإعجاب من ذوي السلطان فتسند له مهام خطيرة ويعين بمنصب سياسي محترم.

9. ويضيف في توجيهاته كذلك: "فإن عوارض الترف والغرق في النعيم كاسر من سورة العصبية التي بها التغلب وإذا انقرضت العصبية قصر القبيل عن المدافعة والحماية فضلاً عن المطالبة والتهمة الأمم سواهم فقد تبين أن الترف من عوائق الملك"¹.

يعود ابن خلدون هنا للضرب على وتر مدح أهل البداوة وهم "القبيل"، حيث يبين ميزة العصبية فيهم، ويحذر من دخول عوامل الترف والنعيم فيهم، كحال الحضرة. فالترف هو المفقود للعصبية والتي بدورها تؤدي إلى ضياع المدافعة والحماية للقبيلة، مما يسوق إلى التهامهم من قبل الأمم الأخرى.

وابن خلدون هنا يشير إلى الحالة النفسية الثورية التي تلازمه، ورغبته المستعرة والدائمة ببقاء المجاهبات والحروب والمعارك وعدم الركود. فضلاً عن إثارة نوازع الفرقة والخلاف بين أهل البداوة والحضر عن طريق التحريض وإهانة طرف على حساب طرف آخر. كما أن فيها توجيه رسائل الشكر والاحترام لأهل البداوة الذين آووه وحموه ونصروه. وفيها تقدير لطبيعة أهل البادية الذين "حسب ما فهمت" يُعلمون البشرية فنون التغلب والانتصار بحملهم لهذه العصبية الحامية لحياضهم.

ومما يثبت وجهة نظري هذه أنه وقع في تناقض خطير فيما بعد في مقدمته عندما مدح الترف عند أهل الحضرة واعتبره من الأمور التي تزيد قوة الدولة إلى قوتها حيث تكثر فيها العصبية وبالتالي تزداد قوتها. وهذا تناقض خطير ينسف نظريته من أساسها، بل ويعبر عن أهداف ابن خلدون من كتابة مقدمته في كثير من جوانبها، حيث يقول في تناقض خطير: "فصل في أن الترف يزيد الدولة في أولها

1 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 184 .

قوة إلى قوتها والسبب في ذلك أن القبيل إذا حصل لهم الملك والترف كثر التناسل والولد والعمومية فكثرت العصابة واستكثروا أيضا من الموالى والصنائع وربيت أجيالهم في جو ذلك النعيم والرفه فازدادوا به عددا إلى عددهم وقوة إلى قوتهم بسبب كثرة العصائب حينئذ بكثرة العدد¹.

فالعريب أن ابن خلدون يميز بين ترف وترف. فترف أول الدولة يختلف عن ترف وسط زمانها ويختلف عن آخرها. فترف أولها محمود وآخرها مذموم لما يؤدي إليه من دمار. فلا أدري كيف حكم على الترف بهذه الصورة؟ وهو الذي قرر بداية أن أهل البداوة أحسن في الخير والشجاعة والمروءة والخصال الحميدة من أهل الحضرة، كونهم غير منغمسون بالترف والنعيم مثل أهل الحضرة، فالترف

كله مذموم على رأيه الأول. فلماذا هنا يغير ويبدل ويحاول أن يجعل منه جزء حميد وجيد؟ هل الجواب أنه لما بدأ الخوض في مسائل الدولة والسلطان أقصر في الرأي خوفا من ملامة أحد السلاطين الذين تقع تحت أيديهم هذه المقدمة فيقرأها ويتحول بالنقمة على ابن خلدون. فحسب لذلك ألف حساب وتحايل في رأيه وكلامه حتى لا يقع في الملامة. أم أن القضية هي ما أوضحت أنه كان يهدف في بداية مقدمته إلى هدف محدد وهو مدح البداوة بكل أوصاف المديح وذم أهل الحضرة وصولا إلى إيقاع النزاع بين الطرفين. فضلا عن الفوز بمحبة أهل البداوة تحقيقا لشكرهم على أفضالهم. وهذا ما رجح لدي من خلال التحليل والدراسة.

10. وأخطر ما دعى إليه ابن خلدون كذلك: التكبر ضمنا على القوانين والأحكام ورفضها، وإثارة العنجهية والتمرد على السلاطين وأحكامهم. بل دعا إلى رفض تقديم الضرائب والمكوس المستحقة عليهم، وأنها حسب رأيه مفسدة للعصبية ومدمرة لها. وبالتالي فهي مدمرة للملك ومفقدة له. ومن أراد لعصبيته أن تبقى في قمة مجدها فعليه بالتمرد والعصيان. وهذا ما فهمته من قوله: "الفصل التاسع عشر في أن من عوائق الملك المذلة للقبيل والانقياد إلى سواهم وسبب ذلك أن المذلة والانقياد كاسران لسورة العصبية وشدتها فإن انقيادهم ومذلتهم دليل على فقدانها فما رثموا للمذلة حتى عجزوا عن المدافعة فأولى أن يكون عاجزا عن المقاومة والمطالبة"².

ويضيف كذلك: "وفي هذا أوضح دليل على شأن العصبية وأنها هي التي تكون بها المدافعة والمقاومة والحماية والمطالبة وأن من فقدوها عجز عن جميع ذلك كله. ويلحق بهذا الفصل فيما يوجب المذلة للقبيل شأن المغارم والضرائب. فإن القبيل الغارمين ما أعطوا اليد من ذلك حتى رضوا بالمذلة فيه؛ لأن في المغارم والضرائب ضيما ومذلة لا تحتملها النفوس الأبية إلا إذا استهونتته عن القتل والتلف. وأن عصبيتهم حينئذ ضعيفة عن المدافعة والحماية ومن كانت عصبيته لا تدفع عنه الضيم فكيف له بالمقاومة والمطالبة. وقد حصل له الانقياد للذل والمذلة عاقبة كما قدمناه ومنه قوله شأن الحرث لما

1 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 225 .

2 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 185 .

رأى سكة المحرث في بعض دور الأنصار ما دخلت هذه دار قوم إلا دخلهم الذل. فهو دليل صريح على أن المغرم موجب للذلة هذا إلى ما يصحب ذل المغارم من خلق المكر والخديعة بسبب ملكة القهر¹.

لقد أشعل ابن خلدون في النفوس نارا لا تنطفئ، وجعل التمرد والعصيان سبيلا للتغلب والحفاظ على العصبية. وهو بالتالي حقق ما يصبوا اليه. فمن ظن أن الانقياد للأحكام ودفع المغارم والضرائب أهون عليه من القتل والزوال، فقد أخطأ وضاع وخسر وضمحل بل وضعف واستكان وذاب ذوبانا خطيرا. وابن خلدون بهذا يحرض على الثورات واستمرار المعارك والنكبات، فلن يشفي غليله إلا إذا رأى الناس في صراع متلازم طوال الأيام والسنين. فلا راحة ولا سكينة بل تمرد وثوران وصيحات وهيعات وقتل وإسالة للدماء. وإلا ماذا نفهم من قوله: "لأن في المغارم والضرائب ضيما ومذلة لا تحتملها النفوس الأبية إلا إذا استهونتته عن القتل والتلف"، إلا دعوة صريحة للموت والتلف في سبيل معارضة دفع المغارم والضرائب، أي أيها الناس موتوا ولا تقبلوا مذلة دفع المغارم والضرائب.

يقول محمد عابد الجابري: "ان العصبية إذن لا تشتد ولا تلعب دورها التاريخي إلا حيث يكون الناس أحرارا من كل سلطة خارجية عند ابن خلدون، سواء كانت سلطة الدولة أو سلطة عصبية غالبية مستبدة، وسواء كانت هذه السلطة تحكما في النفوس أو استغلالا للخيرات والأموال بوجه من وجوه الاستغلال ولو كانت ضرائب ومغارم"².

والسؤال الذي يؤلمني حقا وأقوله بمرارة أين كان ابن خلدون وآراؤه هذه عندما وقف ذليلا كاسر الجناح يُقبَلُ يد عدو العرب والمسلمين تيمورلنك؟ بل ويحني له رأسه؟ بل ويحقق مطالبه حرفا حرفا في رسم خطط المغرب العربي وتفصيل حاراتها وشوارعها وأزقتها. أين هي نظرياته هذه وهو يقدم له بغلته التي طمع فيها...ويقول: "ومثلك لا يسأل بل يطلب وبدون ثمن؟" فما هذا التناقض الصارخ بين سيرة حياته وآرائه المثلى؟ أيدعوا الناس الى الموت والتلف وإزهاق أرواحهم في مقابل عدم دفعهم لدريهمات قليلة تقيهم بأس "وحوش الصحراء العابثة والمتمردة"؟ أيدفع الناس الى العصيان والتمرد على الأحكام حتى لو دخلوا السجون والمعتقلات وهو من كان يداهن الحكام والسلاطين ويمدح غيهم ويتملق لهم عبر مسيرة حياته كلها؟ أم أن القضية خلاف ذلك كله...وما هي إلا استمرارا لمسيرة حياته التي بناها على الكراهية والشدة والتمرد والتخلي عن بعض السلاطين، والتعاون مع الغازي التتري، فلا ترتاح له نفس ولا يغمض له جفن إلا إذا رأى الناس في عراك وحرب مستمرين. ويرى كذلك من سعى به بوشاية، أو كاد له نتيجة فعل يده، أو أقاله من منصبه، قد سالت دماؤه ودُمرت حياته واكفهرت ساعات أوقاته.

1 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 186 .

2 - الجابري، " فكر ابن خلدون العصبية والدولة ، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الاسلامي"، م.س، ص 184 .

ان القارئ لفكر ابن خلدون في موضوع العصبية، وطبيعة الكلمات التي استخدمها، قد يأتيه شك في أنه يحرض على قلب بعض البلاد في المغرب العربي جحيما يتلظى بنيران الفرقة والنزاعات والشقاق، وأنه يسعى الى جعلها مواجهات دائمة بين قبائلها من البدو والحضر والمدن والأنحاء بسلاح العصبية، وأن تبقى نيران الحماسة والانتقام مشتعلة في النفوس، فهذا يتصدى لهذا، وهذا يحرق هذا، وهذا يتمرد وذاك يعصي وثالث ينهب ويسلب... وكلها بدعوى العصبية، والتي زينها بأنها ولاء وإتباع وحب القبيلة لرئيسها وشيخها وملكها تنفيذا وطاعة لأوامره بدافع الحماية والعيش بكرامة. لكنه في ثنايا حديثه يقلبها الى عصبية مقبلة عمياء تأكل الأخضر واليابس وتتحوّل الى تمرد وعصيان وسلب ونهب وغلبة وتملك وقهر وإذلال ومقاومة للخصم وقتله بهدف الحفاظ على الكرامة. ثم يستثير عوامل الشجاعة والحماسة في النفوس لتقلب القضية الى معارك مستعرة تغذيها العصبية بوقود حربي لا يهدأ أو ينتهي.

11. وأخيرا يلجأ ابن خلدون لإهانة من قبل حياة السلام وأحب العيش بوائم واحترام، ورغب بأمان عائلي وهدوء نفسي، وعدم التفكير بقضايا سعى ابن خلدون لإثارته والتركيز عليها مثل: التوحش والعصبية والقهر والسلب والنهب والتمرد والعصيان.... الخ، وذلك كعلاج أخير لمن لم يقتنع بما قال. فيصفه بالمغلوب والمهزوم والضعيف. وليس هذا فحسب بل يهينه بالقول أنه مولع بالافتداء بالغالب لباسا ومأكلا ومشربا.

وان اعترض معترض أن ما قاله ابن خلدون صحيح وينطبق على الشعوب التي غادرها المستعمرون السابقون أمثال بريطانيا أو فرنسا أو إيطاليا، وما تركته من آثار بادية على الشعوب العربية كالتقليد في اللباس والمأكل والملبس وسائر الأحوال. فأقول ان ذلك يرجع لطبيعة الثقافة والتربية والتعليم التي تلقاها أبناء تلك الشعوب جبرا عنهم أو باختيارهم في مدارسهم ونواديهم ومراكز تعليمهم وعبر وسائل الاعلام. فكان ان زينت لهم فرغوا بها وأحبوها وجاءت اجيال لا تدرك ان أصول تلك العادات نابع من تقليد للمستعمر.

لكن ابن خلدون هنا يتحدث عن حالة من الوله بثقافة المستعمر بدافع غرائزي، يدفع المغلوب أن يقتدي بالغالب. وكأن ابن خلدون يتحدث عن شعوب جاهلة بليدة. فان كان قصده أهل البداوة ففي كلامه نوع من الواقع لما كان أهل البداوة في بلاد المغرب يمتازون به من الجهالة وعدم التعليم فيسهل خداعهم. لكن ان كان قصده المدن والحضر فهذا بعيد كونها كان افرادها يتلقون تعليمهم في مدارس وكتاتيب فضلا عن تشجيع السلاطين على العلم والتعلم، وابن خلدون نفسه أحد أولئك المتعلمين. فقله هذا فيه اهانة لأهل الحضر والمدن لصعوبة تأثرهم بالغالب إلا نادرا.

وأكبر دليل على ذلك الشعب الفلسطيني. فبالرغم من تعاقب المحتلين على ديارهم لفترات طويلة، إلا أنه ما زال يحتفظ بعاداته وتقاليده وسلوكياته التي تربي ونشأ عليها منذ أجيال طويلة. كما أنه يواجه التغيير بعناد شديد في كثير من محاوره. وهذا يناقض كلام ابن خلدون في تقليد المغلوب للغالب.

ثم ان في كلامه تحريض لأن ينتبه الغافلون المغلوبون الى الثورة والعصيان والتمرد. وفيه استمرار لإشعال وقود الحرب على الدوام حيث يقول: "الفصل الثالث والعشرون في أن المغلوب مولع أبدا بالاقْتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده. والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه إما لنظره بالكمال بما وفر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب. فإذا غالطت بذلك واتصل لها اعتقادا فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء. أو لما تراه والله اعلم من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس وإنما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب تغالط أيضا بذلك عن الغلب وهذا راجع للأول"¹.

1 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.س، ص192.

المبحث الثالث

الدفع باتجاه النزاعات القبلية عبر اهانة وتحقير أهل الحواضر والمدن

كان ملعب ابن خلدون الذي يدور في فلكه ويركز أهدافه فيه بلاد المغرب العربي بما حوته من حضر وبدو. فلم يحاول أن يتطلع خارج هذا النطاق لبلدان أخرى يمكن أن تكون لديها عادات وتقاليد وعلوم اجتماع أخرى. وهذا يثبت أن ابن خلدون كان له غايات وأهداف استراتيجية بعيدة المدى من خلال دراسة هاتين الفئتين في هذه البقعة الأرضية المحددة، وتسليط الأضواء عليهما مدحا أو اهانة.

وهذا بعض ما اثبته الكاتب الراحل طه حسين عندما قال تعليقا على هذا الموضوع في مقدمة ابن خلدون: "ويشعر القارئ إذا ما انتهى من قراءة القسم الثاني بأن ابن خلدون لم يدرس سوى القبيلة العربية والقبيلة البربرية، وذلك بالرغم من ادعائه أنه يدرس أصول الدول كلها. ذلك لأن معظم مبادئه لا تطبق حقيقة إلا على الدول العربية والدول البربرية في أفريقيا الشمالية، فهناك يمكن أن تقرر بأوضح السبل تأثير تلك العصبية المؤسسة على روابط النسب التي يبالغ ابن خلدون في تقدير أهميتها ويكثر من ذكرها. بيد أنه توجد أمم عديدة استطال سلطانها أكثر مما لبثته دولة العرب، أمم عاشت واستطاعت أن تقاوم كل صنوف الاضطراب وكل غزوات الأعداء لا بفضل روابط الدم بل بفضل عاطفة أوسع نطاقا وهي الدعامة الحقيقية للروح الوطنية. ولم يلفت ما كان لتلك الأمم من المقاومة المنيعه اهتمام ابن خلدون... وبعد فهل صحيح أنه يجب أن نبحث عن عصبية القبيلة البدوية في أصل كل دولة؟ أليست هناك عوامل أخرى تشترك في تكوين أمة أو مملكة؟ وهل قامت المدن اليونانية واللاتينية على النحو الذي قامت عليه الدول العربية والبربرية؟ يجيبنا التاريخ سلبا، وهل حقيقة أن الأسباب الاجتماعية لتأسيس دولة ما هي واحدة في كل زمان وفي كل مكان وإنها ستبقى كذلك؟ تلك مسألة ربما أدى تقدم التاريخ والاجتماع الى حلها يوما ما"¹.

وبهذا التحليل المنطقي للدكتور طه حسين، يثبت ما ذهب اليه من أن ابن خلدون كان يوجه تحليله لبقعة محددة من الأرض، ويحاول إيصال العديد من الرسائل لمن يعيش فيها سواء من أهل البداوة بمدحهم، أم أهل الحضر باستحقاقهم، وصولا الى تفجير حالة من الصراع بين الطرفين معتمدا على استفزاز وإثارة أحد الأطراف على صاحبه.

إن اسلوب ابن خلدون القائم على مدح وتمجيد أهل البداوة في عدة مواضع على كافة أحوالهم، كاعتبارهم هم مبدأ العمران، ثم موطن الخير، وصولا الى تمييزهم بأنهم أهل الشجاعة والإقدام، حتى ختم بهم أنهم أهل العصبية. ولسان حاله يقول أنه على باقي الأمم والشعوب أن تتعلم منهم.

1 - حسين، د. طه حسين، "فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، تحليل ونقد، الطبعة الأولى"، 1343هـ، 1925م، ص 98-99، الكتاب وضعه

بالفرنسية د. طه حسين، وترجمه محمد عبدالله عنان، مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر بمصر.

ثم انه لا يكتفى بذلك انما يتحدث ويأتي بمقارنات مع أهل الحضر والمدن توحى بأنه يبحث عن أهداف ويسعى لتحقيقها من وراء كتاباته. فهو يسيء اساءة بالغة في عدة مواضع لأهل الحضر عند مقارنتهم مع البداوة. ويعمل على إثارة الأحقاد والنعرات الطائفية والإقليمية بين مكونين أساسيين في المجتمع هما البدو والحضر. وإن الملفت للنظر تلك العناوين التي استخدمها بأسلوب يبعث على الحنق وتوغير الصدر لفئة أهل الحضر والمدن. فأجده يقول: "الفصل الثالث في أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه وأن البادية أصل العمران والأمصاير مدد لها"¹. وكذلك قوله: "الفصل الرابع في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر"². وقوله: "الفصل الخامس في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر"³.

إن القارئ لهذه العناوين لأول وهلة يُصاب بالصدمة على ما يتلفظ به، وخصوصا ان كان من أهل الحضر والمدينة. فابن خلدون يقدم أهل البداوة الذين في غالبهم جهل وعدم تعلم، ويقضون حياتهم خلف الابل والماشية ويعيشون من ألبانها وأصوافها، ومن النادر أن يجدوا الماء ليغتسلوا به أو يُذهبوا به عنهم روائح العرق والصحراء والأغنام، كما ولا يعرفون للطب الحديث علما، ولا لمساكن الحجر والاسمنت سبيلا، بل يعيشون حياة الخيام وهم أسعد ما يكونون بحياتهم تلك... فيأتي ابن خلدون ليضع أهل الحضر والمدن وأهل العلم والطب والمهن والصنائع بمرتبة هي أقل وأدنى وأحق من أهل البادية في العمران والخير والشجاعة.

وسؤالي المستغرب عن رأي ابن خلدون في أن الحكمة والتعقل التي يتعامل بها أهل الحضر اذا ادلهمهم خطب أو وقعت عليهم مصيبة، هي جبن وخور وضعف!! وأما التوحش والتعصب والجنون الذي يتعامل به أهل البداوة أحيانا في مواجهة من يواجهون هو في نظره شجاعة وبسالة ورجولة!! ولا يكتفى بذلك بل يأتي على التفاصيل في ثنايا بحثه فيزيد الطين بلة، ويهين ويحقّر ويوغر الصدور. فيقول مثلا في حق أهل البداوة عند تحاكمهم أمام بعضهم: "...وأما أحياء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشائخهم وكبرائهم بما وقر في نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة، وأما حللهم فإنما يذود عنها من خارج حامية الحي من أنجادهم وفتيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم..."⁴. وهذا مدح لهم ورفع شأن واحترام وتقدير.

وبالمقابل عندما يأتي للحديث عن أهل الحضر والمدن ونقد العلاقات الاجتماعية وحالة القرابة التي تربطهم ببعضهم فأراه يتحدث بأسلوب الازدراء والإهانة والتحقير، وذلك عندما يقول: "وأما المتفردون

1 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.س، ص163.

2 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص164.

3 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص166.

4 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص170.

في أنسابهم فقل أن تصيب أحدا منهم نكرة على صاحبه فإذا أظلم الجو بالشر يوم الحرب تسلك كل واحد منهم يبغي النجاة لنفسه خيفة واستيحاشا من التخاذل فلا يقدرّون من أجل ذلك على سكنى القفر لما أنهم حينئذ طعمة لمن يلتهمهم من الأمم سواهم...¹. فلسان حاله يقول أن أولئك ذوي الانساب المتفرقة الساكنون في التجمعات والأمصار يتصفون بصفات الخوف والتخاذل والتفرق والجبن، لهذا لا يقدرّون على التشبه بشجاعة وعصبية أهل البادية الساكنين في القفر والصحراء الموحشة. فأهل البداوة هم الرجال الشجعان والذين يتفضلون عليكم بهذه الصفات الكريمة.

ودليلي على أن مقصده بقوله المتفردون في أنسابهم هم أهل الأمصار ولا سواهم، أنه ذكرهم في موضع آخر وبنفس اللفظ في معرض اهانتهم وازدراؤهم كذلك والتعريض بنسبهم الوهمي على رأيه، والذي لا يُعتد به كنسب أهل البادية عندما قال: "ولا يكون للمنفردين من أهل الأمصار بيت إلا بالمجاز وإن توهموه فزخرف من الدعاوى، وإذا اعتبرت الحسب في أهل الأمصار وجدت معناه أن الرجل منهم يعد سلفا في خلال الخير ومخالطة أهله مع الركون إلى العافية ما استطاع، وهذا مغاير لسر العصبية التي هي ثمرة النسب وتعدد الآباء لكنه يطلق عليه حسب وبيت بالمجاز..."². وهذا القول كذلك كما اسلفت فيه تعريض وإهانة لأهل الحضر عند جزمه بلفظة: "ولا يكون..."، ومحاولة لوضع القطيعة وصنع الازمة وإشعال الصراع بين الفئتين وإن بطريق غير مباشر.

وعجبي مرة أخرى، إن كان كل ذلك صحيحا برأي ابن خلدون فلماذا لم يساكن أهل البادية؟؟ ولم لم يناسبهم ويربي عائلته بينهم؟؟ ولماذا قضى عمره باحثا عن المناصب السياسية والوظائف الحكومية في المدن والأمصار؟؟ ولماذا ولماذا ولماذا؟؟ أسئلة كثيرة تتكرر عندما يقوم بالتمييز بأسلوب مستفز وباعت على الريبة والشك بين أهل الفئتين "البداوة والحضر"، ولا أجد ابن خلدون للإجابة عليها. لكن الإجابة أحيانا قد تظهر من خلال الحفر في خطابه والبحث عن مقصده من ورائه، ومحاولة التنبؤ بما كان يسعى إليه. فهو يعمل على استدراج المخاطبين لتحقيق آماله وطموحاته وغاياته وهي بعض ما ذكرته سابقا.

تقول الباحثة بوعجيلة أثناء حفرها في معاني مقدمة ابن خلدون واستخدامه لعدد من الأساليب ومنها: "استدراج المخاطب الى معنى بعينه بناء على تسلسل المعطيات: تتعلق هذه التقنية الخطابية ببنية الاستدلال التي يقوم عليها الخطاب الذي يجادل من منطلق الرهان على اكتساب الحق وإفحام المخالف والمخاطب عموما. فهو يقدم تدريجيا جملة من المعطيات والمعاني التي تتوالد من بعضها البعض بكيفية يتعذر معها قطع النسق أو إيجاد منفذ لتقويضه. فالتسليم بالمعطيات الأولى هو بداية السير في اتجاه لا رجعة فيه ولا التفات الى الوراء لمساءلة مشروعة. والخطر في مثل هذا البناء

1 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص170.

2 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص177.

الاستدلالي أنه يحول مركز الثقل المعنوي في تقبل الخطاب من تقييم البدايات التي ينبني عليها، الى تقييم تسلسل الأفكار الذي يبدو حريا بالموافقة عليه، بل بالاعجاب أحيانا، وتحويل مركز الثقل المعنوي. هذا هو الشرط الأساسي لنقل الأسس والمسلمات التي يصدر عنها الخطاب من مستوى اختيار معين من بين اختيارات أخرى مناظرة له الى الاختيار الوحيد الصحيح، أي الى بدايات لا تخضع للمراجعة. مثل قوله: "فقد تبين أن أجيال البدو والحضر طبيعية لا بد منهما كما قلناه..." وإذا تبين ذلك... فبمثله يتبين لك في كل أمر... فاتخذة إماما تقتدي به فيما نوره عليك بعد... "وذلك لأننا قدمنا أن العصبية بها تكون الحماية... وقدمنا أن..."¹.

وفي رأيي فان ابن خلدون كان يصدر من تعبيراته تلك من تراكمات نفسية سكيولوجية عميقة. وآلام وأحزان وأحقاد كانت على صدره كالجبال، وانفعالات وحرائق مشتعلة في عمق مشاعره وأحاسيسه، فخانتته التعابير وكشفت اسرار ما يكتم في نفسه. لقد كان بإمكانه أن يُصدر تحليلاته وتفاصيلاته بأسلوب يُشعر القاريء أنها مجرد مشاهدات كان قد رآها وكتبها بناء على ما لاحظته واستتبطه. لكن أسلوب الكتابة يوحي أنه المتحكم والمسيطر على هذه البلاد والأنحاء. وكأنه ملك على عرشه ويُصدر أوامره أن تكون الأحوال والظروف هكذا... وينبغي... ولا بد... ولا يكون... ومثل هذه الالفاظ كثير تعبر عن مكنونات نفسه وما يشعر به.

تقول الكاتبة والمحللة ناجية بوعجيلة: "توجيه الأمر من ابن خلدون من موقع تعليمي سلطوي: يعتبر الخطاب الذي يستحضر باستمرار المخاطب موجهها اليه الأوامر ملحا على ضرورة امتثاله لتلك الأوامر بالذات، خطابا سلطويا يعطي لنفسه وحده الحق في تلقين الآخر، وتشكيل وعيه على الأسس التي يرتضيها. إنه يتصور كل معرفة سابقة لدى المستقبل لا قيمة لها، وغير معتبرة إلا إذا وافقت ما سيحمله اليه من حقائق. كما أن توجيه الأمر الى الآخر بفعل معرفي ما أو باعتقاد معين هو بشكل مباشر وغير مباشر اعلان عن الأهلية المطلقة للتفرد بوظيفة صياغة الحقائق وابلاغها الى الآخر. انه التفرد الذي حققته المنظومة السنية طيلة تاريخها، بثباتها على اقضاء المغاير والزج به في خانات البدعة والضلالة والكفر وقد كانت سجلات الخطاب الخلدوني في هذا الصدد مركزة في الأمر بتعلم معنى بعينه، والنهي عن آخر يراه خاطئا، والتحذير من آخر يراه خطيرا، وهذا ما تبين من سجلات عديدة في النص الخلدوني مثل: فلا يقعن عندك ريب... ولا يذهب بك الغلط... ولا تشوش قلبك بالريب... فافهم ذلك وتبين حكمة الله... فافهم ذلك واعتبره... فافهم ذلك وقس عليه... واعتبر ذلك باقطار المشرق... فتأمل ذلك واعرف مدارك العلماء..."². وهذا يدفعني الى تحليل ما كان ابن خلدون يسعى اليه... ويتمثل ذلك بالجوانب التالية:

1 - بوعجيلة، " حفريات في الخطاب الخلدوني، الأصول السلفية ووهم الحداثة العربية"، م،س، ص 117.

2 - بوعجيلة، " حفريات في الخطاب الخلدوني، الأصول السلفية ووهم الحداثة العربية"، م،ن، ص 113 - 114 .

1. الغضب الذي كان يعتري ابن خلدون على من أساء إليه وسعى بالوشاية ضده، وعلى أولئك السلاطين والأمراء والقضاة والوزراء الذين كانوا في مواجهته طوال حياته يمكرون له ويحيكون له الدسائس، فسجنوه وطردوه ولاحقوه وأهانوه وشردوه عبر مسيرة حياته. فكان يتمنى من قلبه أن يحترقوا بمكرهم، وأن يرى عروشهم تنهال أمام عينيه، وأن يرى الحروب وقد اشتعلت بين فئات أهل المغرب جمعاء بدوا وحضرا وسكان مدن، ثم يجلس ليشاهد مسلسل التخطيم والنيران وتفجير الأجواء وهو مسرور هادئ البال مستقر الحال.

إنني أقرأ كلماته القاسية الشديدة الوطأة في وصفه وتحليله للأمم الوحشية المفترسة وكأنها وحوش ضارية، بل أنني تخيلت ابن خلدون وكأنه يجلس أمام أقفاص من الوحوش المفترسة يدرس طباعها، ويعبر بألفاظ يأخذها من سلوكيات هذه الوحوش وحركاتها. فهو يخرج ما في نفسيته وعمق صدره من نيران مشتعلة وجمر يغلي، فيقول في وصف أهل البداوة وعلاقتهم مع الحضر: "...فكانوا لذلك أشد الناس توحشا وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان العجم وهؤلاء هم العرب وفي معناهم ظعون البربر وزناتة بالمغرب والأكراد والتركمان والترك بالمشرق إلا أن العرب أبعد نجعة وأشد بداوة..."¹.

ويقول كذلك مستخدما ألفاظ التوحش: "إذا كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع؛ وذلك لأنهم أقدر على التغلب والاستبداد كما قلناه، واستعباد الطوائف لقدرتهم على محاربة الأمم سواهم ولأنهم ينتزلون من الأهليين منزلة المفترس من الحيوانات العجم. وهؤلاء مثل العرب وزناتة ومن في معناهم من الأكراد والتركمان وأهل اللثام من صنهاجة. وأيضا فهؤلاء المتوحشون ليس لهم وطن يرتافون منه ولا بلد يجنحون إليه فنسبة الأقطار والمواطن إليهم على السواء فلهذا لا يقتصرون على ملكة قطرهم وما جاورهم من البلاد ولا يقفون عند حدود أفقهم بل يظفرون إلى الأقاليم البعيدة ويتغلبون على الأمم النائية"².

لعل ألفاظه السابقة وأوصافه السالفة تدل دلالة واضحة على ما كان يعتل في صدره من شدة وغليان وتأثر جراء كل النكبات التي مرت به، فتركت جرحا غائرا نازفا شديدا مؤلما. وكان يكتب وهو يعاني، وكانت كلماته تخرج لتعبر عن حقيقة وضعه وكأنه وصل لحالة من الوحدة وتخلي الغير كاملا عنه بعد أن فشلت مساعيه كافة في السيطرة والتحكم، وتحصيل منصب سياسي مرموق يشعر من خلاله بالزهو والرفعة. فقرر أن يضرب فئات الناس ببعضهم، ويحرض ما وسعه التحريض. ولا ينسى شكر من هو بضيافتهم أثناء كتابته للمقدمة.

1 - ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، م.س، ص163.

2 - ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، م.ن، ص189.

ثم ان دليلي الآخر على ذلك تعاونه الخطير مع تيمورلنك ووضعه لمواصفات بلاد المغرب العربي بأدق تفاصيلها وحرصه على خدمة هذا الطاغية بما يطلبه ويحقق مَناه. وكأنه يستثيره ليعجل في حربه على بلاد المغرب ويطحنها طحنا، فيرى ابن خلدون ما كان يتمناه بأَم عينيه. ولولا الخبر الذي وصل لتيمورلنك عن المخاطر المحدقة بعرشه ما اضطره أن يرجع قافلا الى بلده، لحقق ما كان ابن خلدون يتمناه من تدمير ومحرق وإزالة لبلاد المغرب.

ثم كانت عوامل التحريض التي سعى بها بين أهل البداوة والحضر، بأسلوب تفضيل طرف على طرف، ومدح فئة على حساب فئة أخرى. بل واستخدام أسلوب التحقير والاستهزاء والإهانة لأهل الحضر على حساب أهل البداوة لإشعال نار الغيرة والحسد والصراع والقتال والانتقام والثأر بين تلك الأطراف. حتى أنني أجزم أن "تغيير وملاسنة" كل طرف للآخر في أيامنا هذه نابع من تلك الكتابات منذ نشأت. فتجد الى اليوم البدوي يستهزئ ويتكلم في حق الفلاح والحضري، والعكس وارد كذلك. حتى وصلت المعايير بين أصناف ثلاث: بدوي، وحضري (فلاح)، ومدني. وتطورت الى العائلات وأسابيها، وتعدتها الى الدول والأوطان. وهكذا فهي شرارة اشعلها ابن خلدون ليصطلي بناها كل من أخذ بكلامه تطبيقا عمليا وليس مجرد نظريات ومشاهدات اجتماعية.

والحقيقة أن لتحليل وفهم الخطاب الخلدوني والتعمق فيه نفسيا وفسولوجيا يثبت هذه النظرية. وهذا ما فهمته الباحثة بوعجيبة عندما قالت: " احتواء المخاطب -في مقدمة ابن خلدون - بتشريكه في الملاحظة والاستنتاج: لعل أخطر التقنيات الخطابية التي تصل الى درجة احتواء المخاطب وجعله يتبنى بسلاسة معرفية متناهية أطروحات الخطاب الموجه اليه، هي تقنية تشريكه في عملية التفكير داخل المدار المعرفي الذي يتحرك فيه ذلك الخطاب، وهو تشريك يهم جميع المراحل، من ضبط المعطيات الى تحليلها الى الاستنتاج منها، عند ذاك تبدو المعاني المقررة من بدايات الفكر ومن طبيعة الأشياء، يتوصل اليها المخاطب ووعيه ملتبس بالمادة الدلالية التي يعمل وفقها الخطاب.

وينتج عن هذا الاستلاب أمران هما الغاية المقصودة: الأول هو احتجاب خصوصية الذات المنتجة لهذا الخطاب، والمتمثلة في أحادية أفكارها ومسلّماتها، والثاني هو حجب الإمكانات المغايرة، من حيث التعاقد الضمني الناشئ بين الخطاب ومتقبله، على العمل وفق منطلقات وآليات محددة اكتست صبغة العموم، واكتسبت بداهة الحقائق، إن الخطة الفكرية المتبعة في هذا الصدد هي رهان على جعل المعنى يظهر من انتاج المخاطب لا المخاطب، وذلك من خلال إيكال مهام معرفية اليه: فهو الذي يتأمل، وهو الذي يلاحظ، وهو الذي يتبين حقيقة الأمر، وهو الذي يبني اللاحق على السابق، وهو الذي يستنتج، الى غير ذلك، وجعله يظهر من الاتفاق المسبق بينه وبين منتج الخطاب، وذلك عبر استعمال ضمير الجمع المتكلم، ومن أمثلة ذلك: "ومن تأمل سير هؤلاء الخلفاء...."، "قد تبين لك

غلط..."، "قد تبين لك الفرق بين مذاهب السلف..."، "ألا ترى الى الأمصار..."، "فقد تبينت مراتب هذه الطريقة..."¹.

2. وأراد ابن خلدون من تفصيل نظرياته تلك، ثم اهدائها لخزائن ومكتبات السلاطين بعد مدحهم وتمجيدهم، أن يوصل رسالة ثانية لأولئك المخدوعون بسحره مفادها: أن ابن خلدون عالم ومحرك وسياسي وبارع في التحليل والاستنباط والمشاهدة، وعلى دراية وقدرة في ادارة الأزمات ووضع ورسم الخطط والتوجيهات. فياحبذا بوظيفة سياسية مرموقة يشغلها ويستلمها حتى باقي حياته!! وبالفعل فقد حقق وأنجز ما كان يصبو اليه عندما بعث بتلك المقدمة الى خزائن الملوك والسلاطين خصوصا السلطان المملوكي والي مصر، فاستلم منصب القضاء عدة مرات وفي رتبة قاضي قضاة المالكية. حتى وافته المنية في مصر وهو يسعى نحو تلك المناصب.

3. وسعى ابن خلدون من خلال مدحه لأهل البداوة في مواضع عدة من مقدمته لتحقيق غاية ثالثة وهي ما أسلفت ذكره من توجيه رسالة شكر ومحبة وعرفان واحترام لأهل البادية على ما عملوه له من تأمين لجوئه وحمايته واستضافته عند الازمات، وتأمين توصيل عائلته له بعد أن تقطعت السبل معها، وتأمين تنقلاته، وصدقهم معه في اسناد ومناصرة سلاطين على حساب آخرين، ومدحهم بالأموال والعتاد والرجال.

وهو بهذه الاهداف الثلاثة حقق ما كان يصبو اليه عبر ما تبقى له من مراحل حياته من خلال، وعبر، ما حلله واستنتجه وأشار اليه من الطبيعة البشرية والعمران والعصبية وتحقيق السيادة والغلبة وصولا الى الملك والرئاسة.

1 - بوعجيلة، "حفريات في الخطاب الخلدوني، الأصول السلفية ووهم الحداثة العربية"، الطبعة الأولى 2008م، ص115-116.

كشف الستار عن السر المخبوء لمذمة العرب عند ابن خلدون

تحدث ابن خلدون عن أمة العرب في مواضع متعددة من مقدمته، والمفاجئ أنه استخدم أسلوب الإهانة والتعريض والسخرية من العرب عندما ذكرهم في فصول متعددة، وعمد الى تحليل ما كان يقصده ويعنيه من تحدثه بهذا الشكل. وقد انقسم الباحثون والمحللون حول مقاصد ابن خلدون في كلامه ذلك بين مدافع ومهاجم، وبين من حاول أن يبرئ ابن خلدون بتحوير ولي كلماته ليقول أنه قصد أناس محددين ولم يقصد العرب، أو حتى أمة العرب. فهو عربي وذكي وعبقري ومن المستبعد أن يهاجم أمة العرب التي نزل القرآن بلسانها. وبين من جزم بمقصده حول العرب، وحاول أن يستشهد بأدلة وبراهين تدور في فلك حياة ابن خلدون أو ما وصل اليه من روايات جعلته يحنق ويغضب على العرب عموماً ويتهمهم بما صرح به.

المبحث الأول

العرض الإجمالي لرأي ابن خلدون في أمة العرب

كتب ابن خلدون سبعة فصول، تحمل عناوينها أسلوباً واضحاً ومتميزاً، وقائماً على الاستفزاز والعوانية والإهانة لأمة العرب. وفي بحثي هذا سأعمل على تلخيص أهم المواضع التي تعرض فيها ابن خلدون للعرب بالسخرية والإهانة، وسأعمل على نقدها بعد تحليلها ودراستها:

1. يقول ابن خلدون: "فصل في أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط: وذلك أنهم بطبيعة التوحش الذي فيهم أهل انتهاب وعيث، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر، ويفرون إلى منتجعهم بالفقر، ولا يذهبون إلى المزاخفة والمحاربة إلا إذا دفعوا بذلك عن أنفسهم. فكل معقل أو مستصعب عليهم فهم تاركوه إلى ما يسهل عنه ولا يعرضون له. والقبائل الممتعة عليهم بأوعار الجبال بمنجاة من عيثهم وفسادهم؛ لأنهم لا يتسمنون إليهم الهضاب ولا يركبون الصعاب ولا يحاولون الخطر وأما البسائط فمتى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة فهي نهب لهم وطعمة لآكلهم"¹.

لقد قرأت تلك الكلمات وعجبت أشد العجب!! وتساءلت هل أولئك هم العرب؟ وعدت بذاكرتي قليلاً إلى ما قبل عصر الاسلام واستذكرت بعض المعارك الطاحنة التي قام بها العرب ضد بعضهم كداحس والغبراء وذو المجنة. ثم مررت على العصر الاسلامي فاستذكرت أهم الغزوات والمعارك وصولاً إلى الفتوحات الكبرى في شرق قارة آسيا وغربها. وقلت: أيعقل أن هؤلاء هم العرب الذين يصفهم ابن

1 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.س، ص194.

خلدون. مجرد لصوص ينهبون ويفرون، ولا يقدرّون على صعود الجبال ولا حتى الهضاب، ولا يستقروّن إلا بالضعيف والمنفرد والمنهك والذي يقيم بغير حراسة.

لقد أحسست أن ابن خلدون يتألم من حادثة معينة أو رواية أو قصة سمعها عن بعض قاطعي الطريق أو سكان امارة من العرب فعلوا الأفاعيل في دياره، فحنق عليهم وعمم الوصف على كافة الأمة العربية باعتبار أنهم عرب.

وحقيقة حاولت مرارا أن أبرئ ابن خلدون من هذه التهمة وتحامله وذمه لأمة العرب، وقلت لا يُعقل أن يصدر هذا من قلم عربي مسلم عبقرى يكتب ويناقش بلغة العرب التي هي لغة القرآن. لكن حقيقة ما سبق وأن درسته وحلّته من خفايا عن ابن خلدون جعلني أعيد النظر في تفكيري، فلو كان ابن خلدون يقصد غير أمة العرب، أو يقصد أناساً محددين لذكرهم بالتخصيص والاسم. أما وأنه لا يذكر ذلك، فالتهمة حاصلة له أنه يقصد العرب جميعاً.

وقد انتقد ابن خلدون في هذه الجزئية العديد من الكتب والنقاد وعلى رأسهم الدكتور خالد كبير علّال، والذي قال معاتبا ومتهما ابن خلدون: "...وأما عن الأحكام التي أصدرها ابن خلدون في حق العرب، فسندكر منها ثلاثة، أولها إنه قال: إن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط، بسبب طبيعة التوحش التي فيهم، فلا يطلبون إلا الأمور السهلة، ولا يركبون المخاطر، ولا يذهبون إلى المزاخرة والمحاربة إلا دفاعاً عن النفس، وأقول: أولاً إن حكمه هذا خاطئ من أساسه، ولا يصح إصداره في حق أي شعب من الشعوب، شرعاً ولا عقلاً، وليس له في زعمه هذا دليل شرعي، ولا عقلي، ولا تاريخي، فكيف سمح لنفسه بإصدار هذا الحكم المطلق الجائر المضحك؟ نعم ليس له في ذلك دليل صحيح، وهو حكم لا يصح إصداره في حق أي أمة من الأمم، لأن كل الشعوب لها القابلية والاستعداد للنهوض والسقوط، والانتصار والانهزام، وهي المتحكمة في زمام أمرها، فإذا اجتهدت وتوحدت انتصرت وحققت أهدافها، وإذا تناحرت وتكاسلت واختلفت فيما بينها، انهزمت وذهب ربحها وفقدت مكانتها بين الدول، قال تعالى: *وتلك الأيام نداولها بين الناس*¹. وأما ما زعمه ابن خلدون فهو زعم باطل ومضحك، وبعيد كلية عن النظرة العلمية الموضوعية الصحيحة. وثانياً إنه لو كان العرب لا يتغلبون إلا على البسائط - كما زعم - ما وصف الله تعالى العرب المسلمين بأنهم خير أمة، في قوله: *كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر*². وما حملهم أيضاً مسؤولية تبليغ رسالته إلى البشرية جمعاء، وما وعدهم أيضاً بالنصر المؤزر والتمكين في الأرض، في قوله كذلك: *وعد الله الذين آمنوا

1 - سورة آل عمران / 140.

2 - سورة آل عمران / 110.

منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض، كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم*¹. ولا شك أن أمة لا تتغلب إلا على البسائط، لا يمكن أن يصفها الله تعالى بتلك الصفات، ولا يحملها تلك المسؤوليات الجسام، ولا يعدها بتلك الانتصارات والتمكين في الأرض، وبما أنه وصفها ووعدا بذلك، فلا شك أنها أهلا لذلك. ثالثا إن ما وعد الله به العرب المسلمين قد تحقق على أيديهم على أرض الواقع، فحققوا انتصارات باهرة، وهزموا دولتي الفرس والروم، وملكوا أراضيهم وأموالهم، وكانت لهم دول في المشرق والمغرب، كدولة الراشدين، ودولة بني أمية بالمشرق والأندلس، ودولة بني العباس. وكانت لهم أيضا انتصارات باهرة في مقاومتهم للاستعمار الغربي الحديث. فهل أمة تلك هي انتصاراتها يُقال فيها إنها لا تتغلب إلا على البسائط؟ وهل الذي حققته هو من البسائط؟ وأليس ما حققه العرب المسلمون من انتصارات لم تحققه شعوب إسلامية أخرى؟ فمال بال ابن خلدون يخص العرب بذلك الحكم الجائر دون غيرهم من باقي شعوب العالم الإسلامي؟².

2. ويقول كذلك: "فصل في أن العرب إذا تغلبوا على الأوطان أسرع إليها الخراب: والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار لهم خلقا وجبلة وكان عندهم ملذوذ لما فيه من الخروج عن ربة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافية لل عمران ومناقضة له فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له"³.

وأرى هنا كذلك مذمة ابن خلدون للعرب. ويسميه باسمهم الصريح العرب. فهم بداية لا يدخلون موقع إلا وقع فيه التدمير والخراب، وهم على رأيه أمة جهل وغباء ودمار، يلتذون بالتدمير والتخريب، وكأنهم كالإنسان الأول يسعى لأن يفكك مبناه ويخربه في سبيل أن يضع حجارته مقعدا للقدر عند الطبخ، ويفك عامود الخشب من سقف البيت ليعمد به خيمته. والعرب عنده يعتمدون في ارزاقهم على النهب والسلب، ويخربون على أهل الصنائع صنائعهم. لا بل لا يعبئون بأحكام ولا يلتفتون إليها، وهي في نظرهم حماقة.

كما أنهم يتقاتلون على الرئاسة حتى يصل القتال الى الابن وأبيه والأخ وأخيه. فهم على رأيه همل ضياع لا فائدة ترجى منهم. ويضرب المثل لذلك باليمن والعراق الذي كان بلادا معمرة للفرس، ثم الشام وأفريقيا والمغرب، كيف عندما جازها العرب وقع فيها التدمير والخراب.

1 - سورة المائدة / 9.

2 - علل، د. خالد كبير علل، "موقف ابن خلدون من العرب"، اليوم العالمي للغة العربية 18 ديسمبر، منقول عن الانترنت عنوان: <https://www.facebook.com/AloughaAlarabia/posts/484728644901355> ، تاريخ الزيارة 2016/4/22.

3 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.س، ص194 .

حتى أنني لاحظت من شدة حنقه وغضبه يناقض نفسه في الكلام بين ما سبق وأن ذكره في مدح اهل البداوة والتي طبيعتهم الارتحال والعصبية وحب التغلب وعدم الاستقرار، وبين ما ذكره هنا من ذم العرب لأنهم أهل ارتحال وتغلب، وهذا مناقض لل عمران والذي يلزم منه السكون والاستقرار .

وكأنني بابتن خلدون يتعامل بمزاجية في كتابه فتارة يمدح أهل بلده من البداوة ليتقرب اليهم، وتارة يذم الحضر من اهل بلده كذلك لدواعي نفسية وحياتية وتاريخية وإيقاد للفتن، وتارة يذم العرب منطلقا من أصول عائلية وقومية ويبني من خلالها على عصبية العائلة التي مدحها، ثم مسقطا نفسه في حالة تناقض بين ما يقوله عن العرب وما كان يقوله عن أهل البداوة، ثم تارة يتخلق بأخلاق العلماء والصالحين في تعامله مع تيمورلنك المغولي التتري عدو العرب والمسلمين، ويصفه بأروع الأوصاف...ولا تعرف لابن خلدون طريقا ولا غاية ولا سبيلا ولا شكلا. وكأن البشر عنده وسيلة أو ركوبة يصنفهم تصنيفات خاصة به، فيتهم من يتهم ويستهزئ بمن يستهزئ، ويمدح من يمدح ويذم من يذم، ثم يحركهم كيفما شاء، فيلحن لبعضهم بالمديح ويغدر بآخرين ويوقع بين المتنافسين، وكل ذلك ليحقق غاياته ومآربه التي يصبو اليها.

يقول الدكتور خالد علال في هذا الموضوع: "وأما الحكم الثاني الذي أصدره ابن خلدون في حق العرب وهو أن: العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب، لأنهم أمة وحشية استحكمت فيهم عوائد التوحش وأسبابه، فصار لهم خلقا وجبلة، همهم نهب ما عند الناس، ورزقهم في ظلال رماحهم. وعندما تغلبوا وملكوا تقوّض عمرانهم الذي بنوه، وأقفر ساكنه. وعندما اجتاحت عرب بنو هلال وبنو سليم بلاد المغرب خزبوها، وكان ذلك في القرن الخامس الهجري. وقوله هذا غير صحيح على إطلاقه، وهو مجازفة من مجازفاته، بدليل الشواهد الآتية، أولها إن العرب أنشؤوا أوطانا ومدنا قبل الإسلام، وبعضها ما يزال قائما إلى يومنا هذا، كاليمن ومدنها القديمة، وأخرى في باقي مناطق الجزيرة العربية، كمكة المكرمة والمدينة المنورة. وأنشؤوا أخرى في العصر الإسلامي، وهي ما تزال عامرة إلى يومنا هذا، كمدينة البصرة ، والكوفة، والفسطاط، والقيروان، وبغداد وسامراء.

والشاهد الثاني هو أن العرب أقاموا دولا بعضها عمر طويلا، وبعضها الآخر لم يعمر طويلا، شأنهم في ذلك شأن باقي دول شعوب العالم الأخرى. فمن دولهم التي لم تعمر طولا الخلافة الراشدة عمرت 30 سنة، ودولة بني أمية بالمشرق، عاشت 91 سنة. وأما التي عمرت طولا، فمنها الدولة الأموية بالأندلس، فقد عاشت أكثر من 200 سنة، والدولة العباسية عمرت 524 سنة. ومقابل ذلك هناك دول أخرى كثيرة ليست عربية عاشت أقل من قرن من الزمن، كدولة القرامطة، والدولة المرابطية، والدولة الأيوبية. وبذلك يتبين أن ما زعمه ابن خلدون غير صحيح تماما، ولا يختلف العرب عن غيرهم في مسألة سقوط الدول واستمرارها، لأن الأمر يتوقف على أسباب وظروف بشرية داخلية وخارجية كثيرة،

ولا دخل فيها للأعراق والأجناس. والشاهد الثالث هو إن قوله بأن التوحش جبلة في العرب ومتأصل فيهم مهما تحضّروا هو قول باطل من أساسه لا يصدق على العرب، ولا على غيرهم من الأمم؛ لأن البشر كلهم لهم استعداد للتحضر والنهوض والرقى، كما لهم استعداد للسقوط والتدهور والانعزال والتخلف، فالظروف البشرية الداخلية والخارجية هي السبب الأساسي في نهوض أمة وسقوط أخرى. كما أن العرب لم يكونوا كلهم بدواً أجلافاً، فقد كانت لهم حضارات عامرة قبل الإسلام، في جنوب الجزيرة العربية وشمالها، والإسلام ظهر بين الحضر بمكة والمدينة، ولم يظهر بين الأعراب، ونهى الصحابة عن التعرّب والعودة إلى حياة البادية، مما كان له الأثر البعيد في دفع العرب المسلمين إلى إنشاء المدن والإقامة فيها، وما يزالون يقطنونها إلى يومنا هذا بالجزيرة العربية والعراق والشام وغيرها من البلاد.

والشاهد الرابع هو إن مثال بني هلال و بني سليم الذي ذكره ابن خلدون، لا يصدق على كل العرب، ولا يخص بني هلال وبني سليم دون غيرهم من قبائل شعوب العالم، ولا يصدق عليهم في كل زمان ومكان. فالأعمال التي صدرت عن هؤلاء في تخريبهم لكثير من مظاهر العمران بالمغرب الإسلامي، ليست خاصة بهم ولا بالعرب عامة، وإنما هي موجودة في كل بدو العالم تقريباً، ببلاد المغرب وفارس وخراسان والصين وغيرها. ومثال ذلك قبائل المغول، فهي قبائل بدوية متوحشة، اجتاحت المشرق الإسلامي ودمرته تدميراً خلال القرن السابع الهجري وما بعده. وكذلك قبائل الغجر في أوروبا المعاصرة، فهم يُفسدون ويُقلقون وليسوا عرباً، وعليه فإنه من الخطأ الفاحش إصدار ذلك الحكم على العرب بطريقة فيها تأكيد وتأييد¹.

3. ويقول ابن خلدون كذلك: "فصل في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة والسبب في ذلك أنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلبة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة فقلما تجتمع أهواؤهم..."².

ويتابع ابن خلدون هنا في ذم العرب ويصفهم بأوصاف تنطبق على الرعاع، فهم لا يمكن أن يحصل لهم ملك. بمعنى أن تكون لهم دول وأمراء وملوك وسلطين، إلا بصيغة دينية أو أثر ديني، أو بمعنى آخر فهو يدعو لدولة دينية فحسب حتى يكون للعرب كيان.

1- علال، د. خالد كبير علال، "موقف ابن خلدون من العرب"، م.س، عن الانترنت.

2 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.س، ص196.

كما أنه من خلال هذا المقطع يبين كيف يمكن لأي سلطان أو ملك أن يفرض سيطرته على قومه من العرب، وذلك عن طريق اتخاذ الدين كستار ليصل إلى مآربه السياسية التي هي الملك والحكم. كما أنه يصفهم بالتوحش والغلظة، والتي وصف بها سابقا أهل البداوة مدحا، وهي كما أفهم أوصاف سيئة هنا عندما تكون للعرب تحديدا، فلا ضابط لهم ولتصرفاتهم إلا بالدين الذي يهذبهم ويضبطهم.

وكأنني بآبن خلدون هنا يدعو سائر العرب في الجزيرة العربية ممن هم خارج نطاق حكم دول السلاطين في تونس والمغرب العربي أن يرجعوا لينضوا تحت رايته فهم الحكام بأمر الله ولا يجوز لأحد أن يتمرّد عليهم. فهو يذكّر بأمجاد العرب لما حكمهم الإسلام فيقول: "واعتبر ذلك بدولتهم في الملة لما شيد لهم الدين أمر السياسة بالشرعية وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهرا وباطنا وتتابع فيها الخلفاء عظم حينئذ ملكهم وقوي سلطانهم"¹.

فالعرب عنده كانوا اقوياء بالعمران وسائر مظاهر الحضارة لما كان الدين حاكمهم ومتمكن من نفوسهم، وهذا الكلام من ابن خلدون بعيد كل البعد عن الصحة، حيث يرد عليه الدكتور خالد علّال فيقول معلقا على هذه الجزئية: "وأما الحكم الثالث، فهو قوله: إن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة، أو ولاية، أو أثر عظيم من الدين على الجملة، بسبب خلق التوحش الذي فيهم، وهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض، للغلظة والأنفة وبعد الهمة، والمنافسة في الرياسة، فقلما تجتمع أهواؤهم. وردا عليه أقول: أولا إن ذلك الحكم لا يصح إطلاقه على أية أمة من الأمم، لأنه لا توجد علاقة حتمية بين الدين والدولة، فقد تظهر الدولة ويتخلف الدين. وقد يظهر الدين وتتخلف الدولة، وقد كانت للعرب دول في جنوب الجزيرة العربية وشمالها قبل أن يظهر الإسلام، هذا إذا كان ابن خلدون يقصد بالدين الإسلام فقط. أما إذا كان يقصد مطلق الدين، فلا شك أنه كانت للعرب أديان قبل الإسلام، مع العلم أن كل الدول المعروفة التي ظهرت في العصور القديمة كانت تقوم على الدين، ولم يكن ذلك خاصا بالعرب دون غيرهم من الأجناس. وثانيا إن للعرب في العصر الحديث دول كثيرة معظمها لا يقوم على الدين، وإن تظاهر به بعضها، فهي لا تحتكم إليه في سياستها، ولا في اقتصادها، ولا في اجتماعها، ولا في قانونها، ولا في علاقاتها الخارجية، وبعضها يحارب الدين وأهله علانية، فكيف إذن تمكنت هذه الدول من تكوين دول عربية بعيدا عن الدين في معظم أحوالها؟"².

4. ويقول ابن خلدون كذلك: "فصل في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك والسبب في ذلك أنهم أكثر بداوة من سائر الأمم وأبعد مجالا في الفقر وأغنى عن حاجات التلّول وحبوبها لاعتيادهم الشطف

1 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.س، ص197.

2 - علّال، "موقف ابن خلدون من العرب"، م.س، عن الانترنت.

وخشونة العيش فاستغنوا عن غيرهم فصعب انقياد بعضهم لبعض لإيلافهم ذلك وللتوحش¹. ويقع ابن خلدون هنا في تناقض آخر، وذلك في معرض غضبه وسخطه على العرب بدون تحييص أو تمييز. فقد مدح سابقا أهل البداوة، وأذكر أنه اعتبرهم في الخير أفضل من الحضرة وكذا في الشجاعة والمروءة وغيرها من الصفات. وهو هنا - ولأنه يذم العرب - فقد ذمها صراحة عندما اتهم العرب بأنهم أكثر بداوة من سائر الأمم. فالقليل من البداوة والكثير مذموم عنده ولا فرق في ذلك... لأن الموضوع هنا هو موضوع العرب.

ولشدة غضبه عليهم فهو ينسف كافة آرائه السابقة ومعتقداته. كما أنه هنا يبحث عن كل مذمة يمكن أن يلصقها للعرب ويأتي بها، وهذا يشير إلى الثورة النفسية المتأزمة عنده على العرب عموماً... وأقصد العرب تحديداً دون سائر الأمم وذكرها بالتصريح وليس التلميح فقال بملء فيه: "أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك"، فلا مجال لمحاولة تبرئته والتنبؤ بمقصود اللفظ وما كان يدور في خلدته فالتعبير واضح.

ولشدة غضبه كذلك على العرب لم يستطع أن يستشهد بمثال فيه نوع من الانصاف للعرب، بل أتى بمثال أشتم منه رائحة الإساءة البالغة للعرب عندما يقول: "كان رستم إذا رأى المسلمين مجتمعين للصلاة يقول أكل عمر كبدي يعلم الكلاب الآداب"². فلسان حاله يقول... رستم يصف العرب الذين أذمهم بالكلاب، وفيه توافق بالوجهة والقصد.

ولقد أنكر ابن خلدون أي حضارة كانت للعرب منذ العصور الإسلامية الأولى، ووصفهم بأنهم قد رجعوا لسكنى الخيام هرباً من الحضارة والنور، حيث يقول: "ولما ذهب أمر الخلافة وانمحي رسمها انقطع الأمر جملة من أيديهم وغلب عليهم العجم دونهم وأقاموا في بادية قفارهم لا يعرفون الملك ولا سياسته بل قد يجهل الكثير منهم أنهم قد كان لهم ملك في القديم"³. وهذا فيه ظلم بالغ لأمة العرب الذين أنارت حضارتهم المشرق والمغرب.

5. ويقول كذلك: "فصل في أن المباني التي كانت تختطها العرب يسرع إليها الخراب إلا في الأقل والسبب في ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع كما قدمناه فلا تكون المباني وثيقة في تشييدها، وله - والله أعلم - وجه آخر وهو أمس به وذلك قلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن كما قلناه في

1 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.س، ص 196 - 197.

2 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 197.

3 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 198.

المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعي فإنه بالتفاوت في هذا تتفاوت جودة المصر وردائه من حيث العمران الطبيعي والعرب بمعزل عن هذا وإنما يراعون مراعي إبلهم خاصة لا يبالون بالماء طاب أو خبت ولا قل أو كثر ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنابت والأهوية لانتقالهم في الأرض نقلهم الحبوب من البلد البعيد...¹.

وهذه إهانة عظيمة للعقول الهندسية العربية، فابن خلدون يعتبر العرب مجرد رعاة للإبل والغنم ولا دخل لهم بالحضارة أو المهن أو الصناعات. وكأن العربي نشأ في البادية وظل فيها، حتى أنه منعه أن يتخرج منها الى الحياة والعالم الخارجي، فلا يعرف العربي عند ابن خلدون سوى مرابط الابل ومرابض الخيول والأغنام... ولا يعرف عن الحياة سوى هذه الأمور، والجهل برأي ابن خلدون مستحکم في عقول العرب، فلا يفكرون بالأمكنة المناسبة عند تخطيط مدنهم وإقامتهم فيها من حيث التهوية ونظافة المياه وحسن الأجواء. انما تفكيرهم منصب فقط على مرابط الابل ومراعي الأغنام، وهذا اجحاف وظلم لأمة العرب جميعا والتي أنشأت حضارة تفاخر فيها الأمم في الهندسة والطب والكيمياء وسواها من العلوم والمهن.

6. ويقول أيضا: "فصل في ان العرب ابعد الناس عن الصنائع والسبب في ذلك أنهم أعرق في البدو وأبعد عن العمران الحضري وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها. والعجم من أهل المشرق وأمم النصرانية عدوة البحر الرومي أقوم الناس عليها؛ لأنهم أعرق في العمران الحضري، وأبعد عن البدو وعمرانه. حتى إن الإبل التي أعانت العرب على التوحش في القفر والإعراق في البدو مفقودة لديهم بالجملة، ومفقودة مراعيها، والرمال المهيئة لنتاجها. ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه في الإسلام قليل الصنائع بالجملة حتى تجلب إليه من قطر آخر. وانظر بلاد العجم من الصين والهند وأرض الترك وأمم النصرانية كيف استكثرت فيهم الصنائع واستجلبها الأمم من عندهم"².

ابن خلدون يُظهر هنا اعجابه بالحضارات الغربية والشرقية سوى حضارة العرب، وهذا يوحي بالقول وكأن ابن خلدون ليس من العرب، أو حتى من الناطقين بها، وكأنه لا يتشرف كذلك بالانتماء لها. فيتهم العرب بأنهم ليسوا أهلاً للصنائع ولا يعرفون عنها شيئاً. وذلك لكون مرباهم في البداوة والصحراء ورعي الابل والأغنام ولم يتطلعوا لغيرها. كما أنهم عندما ملكوا بعد عصر الخلافة، لم يلتفتوا للعلم بل كان اهتمامهم منصبا على الاقتتال على المناصب والبحث عنها والفوز بها. وكانت الصنائع تأتي

1 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص436.

2 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص486 - 487.

لأمة العرب من الاعاجم، فينقلونها ويطبقونها في بلادهم. وكأن ابن خلدون يقول انه لا فضل للعرب بشيء من الصنائع والمهن، والفضل كله يعود للأعاجم، وهذا كذلك فيه ظلم بالغ لأمة العرب.

7. ويقول أيضاً: "فصل في ان حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم: من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر، وإن كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته مع أن الملة عربية وصاحب شريعته عربي؛ والسبب في ذلك أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداءة وإنما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها في صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ولا دفعوا إليه ولا دعتهم إليه حاجة"¹.

لقد بلغ الأمر بابن خلدون أن يتهم العرب بأنهم حمقى سُذَّج يعانون من الأمية الشاملة والجهل المطبق، حتى منذ بداية الدعوة الإسلامية. ويقول بأنهم كانوا يتناقلون العلم عن بعضهم بالحفظ في الصدور، فلم يكونوا يعرفون الكتابة ولا القراءة. والمصيبة الأكبر أنه يُرجع الفضل في نقل العلوم ووضعها إلى الأعاجم الذين تعلموا العربية... ثم استدعت الحاجة، كون الكثرة الكاثرة من المسلمين هم أعاجم، استدعت الحاجة إلى أن يضع علماء الأعاجم الذين تعربوا تفاصيل الدين واللغة بالعربية لأمة العرب.

وسؤالي أين ذهبت معلقات الشعر زمن الجاهلية والتي كانت تكتب وتعلق على جدران الكعبة؟؟ وما تفسيره لما يسمى بكتاب الوحي زمن الرسول محمد عليه السلام؟ وأين ذهب الفقهاء العرب مثل أبو حنيفة والشافعي وابن حنبل ومالك؟؟ وأين ذهب سواهم من علماء الطب واللغة وغيرهم من العرب؟؟ إن ابن خلدون هنا كما قلت يحمل في صدره ثأراً عميقاً ضد العرب، ويحاول أن يفرغه بالبحث عن أي تهمة أو مذمة يمكن أن تكون قريبة أو فيها اقناع، ليحاول الصاقها بالعرب. واني في هذا البحث سأحاول كشف الستار عن خفايا أسرار توجه ابن خلدون لزم العرب بهذه الصورة.

1 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص695.

المبحث الثاني

انقسام المحللون في نقد مقولات ابن خلدون الدائمة للعرب

قبل أن أعرض لرأبي حول السر الذي دفع ابن خلدون لقول ما قاله عن العرب، لا بد أن أستعرض آراء بعض الكتاب والمحللين لتفسير هذه الظاهرة من ابن خلدون وأهم البواعث التي دفعتة للقول بها، فقد انقسم الباحثون حول هذه القضية الى قسمين: فالقسم الأول انبرى للدفاع عن ابن خلدون ومحاولة ايجاد العذر لما قاله، وذلك عن طريق التنبؤ لما كان يقصده ومن هم العرب المعنيين في مقالته، بينما ذهب أهل القسم الثاني الى اتهام ولوم ابن خلدون وإظهار معاداته لأمة العرب، ومحاولة تفسير هذا العداء الصادر منه. وفي هذا البحث سأحاول تلخيص هذه الآراء لمحاولة الوصول الى حقيقة السر الذي دفع ابن خلدون للقول بهذه المقالة.

أولاً - المدافعون عن ابن خلدون:

1. الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه الأسس الاسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته، يحاول استعراض أهم ما قيل في مقالة ابن خلدون هذه، ويخلص في النهاية الى تبرئة ابن خلدون مما يُقال عنه، حيث يقول: "...وقد يستبعد المرء لأول وهلة أن يكون رجل مثل ابن خلدون ضد العرب - وهذا شيء منطقي - لأنه عربي حضرمي من حيث الجنس والأرومة، ولأنه فقيه مسلم ومالكي من حيث الصفة والعقيدة. ولكن هذا الفقيه المفكر العربي المسلم هو الذي دفع دارسيه دفعا الى مثل هذا الموقف الذي يحمل في طياته كثيرا من أدوات الإستفهام وعبارات التساؤل. ان ابن خلدون قد افرد في مقدمته عدة فصول جعل عناوينها توحى بالنيل من العرب ومروءاتهم وشمائهم...انها عناوين مثيرة وعدوانية، بل عدائية إذا ما كان المؤلف يقصد العرب كأمة، وأما اذا كان يقصد الاعراب فان الأمر حينئذ يأخذ وجهها آخر"¹.

ويضيف كذلك: "ان هذه الصفات التي وصفها ابن خلدون بداهة لا تنطبق الا على الاعراب دون العرب، من حيث الإنتهاب وغيث الفساد والفرار الى منتجعهم بالقفر. فالعرب عاشوا من قديم في مكة ويثرب والطائف وصنعاء وغيرها من أمصار الجزيرة العربية ولم يصدر عنهم شيء مما ذكره ابن خلدون. وأما الأعراب فإنهم يسعون الى الغزو والانتهاب، وهم على عكس قول ابن خلدون، فلا

1 - الشكعة، د. مصطفى الشكعة، "الأسس الاسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته"، الطبعة الثالثة، 1413 هـ - 1992 م، ص 169-170، الناشر الدار المصرية اللبنانية .

تصددهم بسائط او جبال، ولا تعوقهم سهول أو وعورة، ولا تزال بعض قبائلهم الى اليوم على هذا النهج من السلوك ما وجدت اليه من سبيل"¹.

فأرى هنا أن مصطفى الشكعة قد اعتبر أن لفظ العرب عند ابن خلدون مقصدها الأعراب من أهل البادية، وهم ذوي الشكيمة والصلابة والقساوة، وحياتهم قائمة على الانتهاب والترويع والغزو. فذلك تكلم في حقهم ابن خلدون. على أن الشكعة يحمل على ابن خلدون تجاوزه الحد في الاتهام فقال في حقه: "ومن المؤسف أن يتورط المؤرخ الكبير في أخطاء تاريخية حين يذكر في هذا الفصل ما نصه: وانظر الى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الأوطان من لدن الخليفة كيف تقوض عمرانته، وأقفر ساكنه، وبدلت الأرض فيه غير الأرض، فاليمين قرارهم خراب إلا قليلا من الأمصار، وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانته...، إنه ليس بصحيح أن العراق قد خرب عمرانته حسبما ذكر ابن خلدون، وكذلك الشام، وكيف يتسنى لابن خلدون أن ينسى العمران الهائل الذي أنشأه العرب في العراق والأقطار الشامية.

إن ابن خلدون يناقض نفسه بنفسه، فقد ذكر في صفحة 343 من المقدمة "أن بغداد وحدها كان بها خمسة وستون ألف حمام"، ولنا أن نتساءل والأمر كذلك: إذا كانت الحمامات وحدها بهذا العدد الهائل، فكيف كانت صورة العمران آنذاك من قصور ومساكن ومساجد ومدارس ومستشفيات وأسواق ومتاجر ومصانع وبساتين وحدائق، ناهيك ببغداد الرشيد والمهدي من قبل، وبغداد المتوكل من بعد... ولكن لا ينبغي أن يطلق على العرب في حروبهم هذه الصفة، لأنهم كانوا أشرف من حارب وأرحم من فتح... ثم ما بال ابن خلدون لم يذكر حروب الفرس والروم وما جرى فيها من ويلات، وقد كان التخريب أقل مصائبها، وماذا كان يكتب ابن خلدون لو قدر له أن يعيش في زماننا ويشهد ويلات الحرب العالمية الثانية التي محت العمران في كل من ألمانيا وإنجلترا...². إذن فابن خلدون أخطأ عندما ظلم العرب في هذه الجزئية وكان يصدر في أحكامه عن رواية تاريخية سنذكرها فيما بعد.

2. الدكتور عبد الواحد وافي هو الآخر دافع عن ابن خلدون في كتابه عبقریات ابن خلدون، واعتبر أن قصده في العرب هم الأعراب فقال: "وضع ابن خلدون لبعض فصول مقدمته عناوين يظهر منها في بادئ الرأي أنه يتحامل على الشعب العربي وينتقص من قدره...والحقيقة أن ابن خلدون لا يقصد من كلمة العرب في مثل هذه الفصول الشعب العربي، وإنما يستخدم هذه الكلمة بمعنى الأعراب أو سكان البادية الذين يعيشون خارج المدن، ويشغلون بمهمة الرعي وخاصة رعي الإبل ويتخذون الخيام مساكن لهم، ويظعنون من مكان الى آخر حسب مقتضيات حياتهم وحاجات أنعامهم التي يتوقف معاشهم

1 - الشكعة، "الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته"، م.ن، ص 173.

2 - الشكعة، "الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته"، م.س، ص 174 - 175.

عليها. وهم المقابلون لأهل الحضر وسكان الأمصار، كما تدل على ذلك الحقائق نفسها التي عرضها ابن خلدون في الفصول التي وردت فيها هذه الكلمة...ومنها ما ذكره في خاتمة تمهيده للمقدمة السبب الذي دعاه الى تقديم دراسة هذه الشعوب على دراسة غيرها فقال: "وقد قدمت العمران البدوي لأنه سابق على جميعها، كما تبين لك بعد" ¹.

والغريب أن الدكتور وافي في شدة دفاعه عن ابن خلدون يحاول أن يتنبأ بمقاصد ابن خلدون ويحلل نواياه عندما سمى بعض البلاد العربية وكيف خربها العرب فيقول: "فمع أنه يبدو من النظرة السطحية في هذا النص أنه يقصد شعب العرب على الإطلاق، فإن تأملاً عميقاً في عباراته يتبين منه أنه يقصد اليمن والعراق والشام في عهودها الأخيرة المعاصرة له والقريبة منه، وهي العهود التي تقوض فيها سلطان الخلافة المركزي وتغلبت عليها أسرات وشعوب همجية بدوية الأصل، وتوزع السلطان في كل بلد منها بين عصابات متنافرة متناحرة، وقد صرح بغرضه فيما يتعلق بأفريقيا والمغرب، إذ ذكر أنه قد أصابها الخراب حينما تغلبت عليها شعوب بدوية من بني هلال وبني سليم" ². إذن فالدكتور وافي هو الآخر يعتبر أن مقصود ابن خلدون في كلمة العرب هم الأعراب الهمج من البادية الذين خربوا ودمروا وأسأؤوا في بلاد العرب، وهم برأيه من قصدهم في فصوله.

3. محمد جميل بيهم، كاتب آخر يدافع عن ابن خلدون ويعتبر قصده في لفظة العرب هم البدو لا غير فيقول: "لقد كان ابن خلدون جلياً في أنه كان يَدُمُ البدو دون العرب، وذلك بالفصول الأربعة التي جاءت تحت عنوان "في العمران البدوي والأمم المتوحشة والقبائل". كما كان واضحاً - فيما بعد - بأنه كان يُطري العرب ويُشيد بهم وبحضارتهم في الإسلام وما قبله. ولكن مصدر الالتباس يرجع إلى أنه في الحالتين استعمل كلمة العرب، فترك المجال للشعوبيين لأن يتجاوزوا قصد المؤلف إلى التمسك بالكلمة دون المعنى، وإلى اتخاذها حجة لهم للتدبير بالعرب والخط من شأنهم" ³.

4. الأستاذ محمد العبدية هو الآخر يتجه إلى هذا المنحى في محاولة تبرئة العرب مما نسبته إليهم ابن خلدون عند تحليله لمصطلح العرب، فقد رأى أن هذا المصطلح من أكثر المصطلحات التي ثار حولها الجدل، فقد استعمله ابن خلدون تارة بمعنى البدو، وتارة بشكل عام، أو الجنس العربي. فصب بعض النقاد جام غضبهم عليه، واتهموه بالشعوبية، وقد تبين لي - أي للأستاذ محمد العبدية - أنه يستعمل

1 - وافي، د. عبد الواحد، "عقريات ابن خلدون"، الطبعة الثانية 1404 هـ، 1984م، ص 262 - 265، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية.

2 - وافي، "عقريات ابن خلدون"، م.ن، ص 268 - 269.

3 - بيهم، محمد جميل، "العروبة والشعوبيات الحديثة"، ص 53 - 54، نقلاً عن كتاب "عقريات ابن خلدون"، د. عبد الواحد وافي، م.ن، ص 271.

كلمة العرب في الغالب للقبائل التي تعيش على رعي الإبل؛ فهم لهذا أكثر الأُمم بُعداً عن التحضر؛ لأنهم دائماً مؤغلوّن في الصحراء .

ويستعمل ابن خلدون هذا المصطلح أيضاً للقبائل عندما تتحضر، ولكن صبغة البداوة تبقى غالبية عليها؛ فهي تختار المدن المناسبة لطبيعتها الأولى، ولا تهتم بالماء والموقع، وتبقى طريقة البناء والتعامل مع المدينة هي هي؛ فهم يحتقرون المهن والصنائع، ولا يشجعون أصحابها بإعطائهم ما يستحقون، ولا يهتمون بالمشروعات الكبيرة التي تؤسس للمستقبل؛ فطابع البداوة لا يزال مؤثراً فيهم. وكذلك يستعملها للذين ينتقلون فجأة من البداوة إلى الحضارة ولا يستطيعون إقامة التوازن المطلوب¹. ويقول في بعض هوامشه معلقاً: "من الواضح أنه يعني البدو ومن في معناهم، أو العرب الذين لم ترسخ أقدامهم في العمران مدة طويلة، فهم بطبعهم أقرب إلى البداوة، فهؤلاء بعيدون عن الصناعة، لأنها بحاجة إلى استقرار طويل وتدريب وعلم..."².

5. الدكتور عماد الدين خليل، وهو كاتب ومحلل، عمل هو الآخر على تبرير استعمال ابن خلدون لكلمة العرب في مجال الذم، ورأى أن هذا الرأي مجرد رد فعل نفسي وفكري إزاء ما أحدثته بعض قبائلهم في الشمال الإفريقي. مضافاً إلى ذلك رغبة خلدونية درج عليها من التعميم الذي مارسه في أكثر من مكان، والذي يقود بالضرورة إلى مد المقولات أو النظريات أو القوانين إلى أكبر مدى زمني أو مكاني؛ لكي يعطيها صفة الشمولية؛ ويجعلها أكثر ثقلًا وأهمية في حركة التاريخ على حساب الوقائع التاريخية نفسها.

ومن ثم، فإنه على رأيه إذا كانت بعض القبائل العربية في فترة ما من فترات تاريخها لا تقدر على التغلب إلا على البسائط، عمّت في مقدمة ابن خلدون وأصبحت: "إن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط"، وإذا كانت بعض الجماعات العربية لدى تغلبها على بعض الأوطان أسرع إليها الخراب، عمّت ذلك في مقدمة ابن خلدون وأصبح: "إن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب"³!

1 - العبد، د. محمد العبد، "تصوص مختارة من مقدمة ابن خلدون"، الطبعة الأولى، 2009م، ص 44-45، مركز الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية، مصر، القاهرة، مدينة نصر.

2 - العبد، "تصوص مختارة من مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 158.

3 - خليل، د. عماد الدين خليل، "ابن خلدون اسلامياً"، الطبعة الأولى، 1403هـ، 1983م، ص 106-107، المكتب الاسلامي، بيروت ودمشق.

ثانياً - المنتقدون لرأي ابن خلدون :

1. الدكتور طه حسين، يقر ويثبت عداء ابن خلدون للعرب، حيث بدأ بإرجاع عداءه للعرب الى العصر الاسلامي الأول، وتحديدًا منذ بداية اخضاع العرب للأمة الفارسية وإهانتها، وبالتالي فلم يتوانى أتباعها فيما بعد عن المكر للعرب والمسلمين على امتداد حكم العرب والمسلمين لأراضيهم. فيقول: "...ابن خلدون استطاع أن يصوغ ما ينكره عليهم صوغاً منظماً، وإذا أردنا أن نصل الى منشأ ذلك التعسف بحق العرب وجب علينا أن نرجع الى القرون الأولى من الهجرة وأن نبحت عنه في تلك الأمة الفارسية التي أخضعها العرب. هذه الأمة لم تدخر وسعاً في الانتقام لنفسها من ذلك العدوان، سواء أكان ذلك الانتقام بتشويه المبادئ السياسية والدينية، أم بالدعوة الى احتقار الآداب وتسفيه السنة..."¹.

ويتابع طه حسين في عرض النتائج فيقول: "ونحن نعرف أن القضية انتصرت نهائياً بنهوض بني العباس، وصار العرب شيئاً فشيئاً موضع الاحتقار حتى من الخلفاء أنفسهم وأقصوا عن السلطة المدنية والحربية، حتى أن الجيش في عهد الخليفة المأمون لم يكن به جندي عربي واحد"².

ثم يتابع طه حسين أحداث زمن المأمون والعلاقة الخلافية مع أخيه الأمين، كون المأمون ابن جارية فارسية ورغبته بتقديم الفرس وأن تنتقل الخلافة من العباسيين الى العلويين أبناء فاطمة، وأن تلك الظاهرة لم تكن من تأثير العقيدة الدينية وإنما من تلك القومية الفارسية التي تؤثر وتفضل العلويين على غيرهم. وعلى ضوءها وقعت الحرب الأهلية بين المأمون وأخيه الأمين.

ويصل بالمقارنة الى زمن ابن خلدون ليحاول أن يضع سبباً لتحقير ابن خلدون للعرب، وهل تلك الظواهر القائمة على عداء العرب لأسباب قومية، يمكن أن تكون هي السبب في توجه ابن خلدون لاحتقار العرب؟ فيقول طه حسين: "ومنذ القرن الرابع أجهزت غزوات الترك والحروب الصليبية ثم غزوات التتار على عظمة العرب، حتى أنهم في عصر ابن خلدون قلما كانوا يمثلون في شؤون المسلمين السياسية، وكانوا حينئذ يئنون في اسبانيا من جور نصارى الاسبان، فليس غريباً إذن أن يزدريهم ابن خلدون ولا سيما أنه عاش في ظل الاسر البربرية المجاهرة بعدائها للعرب الذين خربوا أفريقية الشمالية في القرن الخامس"³.

1 - حسين، " فلسفة ابن خلدون الاجتماعية"، م.س، ص 100.

2 - حسين، " فلسفة ابن خلدون الاجتماعية"، م.ن، ص 101.

3 - حسين، " فلسفة ابن خلدون الاجتماعية"، م.ن، ص 101-102.

اذن فابن خلدون عند الدكتور طه حسين يصدر في عدائه للعرب والمسلمين من وحي مخالطته للبربر في شمال أفريقيا والمعادين أساسا للعرب منذ سنين طويلة. كذا انهزام وذلّة العرب في اسبانيا على يد نصارى الاسبان. فكان لابن خلدون أن ساير الوضع العام المنتشر في شمال أفريقيا وتحدث بما يختلج في قلبه وقلوب البربر والأمازيغ في تلك الديار من عدااء مستحكم وقديم وذو جذور تاريخية ضد العرب، فكانت مقدمته فضحا لما كان يراوده من مشاعر وأفكار.

ويحمل طه حسين على ابن خلدون أنه لم يتكلم عن أفضال العرب على الأمة الإسلامية طوال عهودها حتى وقته، إنما يقتصر على ذكر ما ينتقدهم به فيقول: "ينعى ابن خلدون على العرب، بادئ ذي بدء، عجزهم التام عن التغلب إلا على البسائط، وطبيعي أن يستند الى تغلب العرب على سهول الشام والعراق ومصر وساحل أفريقيا الشمالية، بيد أنه نسي أن العرب قد فتحوا أيضا فارس واستقروا هناك أكثر من قرنين، يقول بعد ذلك أن العرب لا يتغلبون على قطر إلا أصابه الخراب المطلق... فهم شعب من الناهبين والأشقياء، ولم يقدم ابن خلدون تأييدا لذلك الرأي سوى مثل واحد هو تخريب أفريقيا الشمالية في القرن الخامس، وان ذلك لم يكن إلا تنفيذًا لأمر خليفة مصر الفاطمي الذي أراد أن ينتقم من أسرة بربرية كانت خاضعة له من قبل ثم غدت خصما له... ومن الغريب أن ينسى ابن خلدون أن فتوحات العرب في فارس والشام واسبانيا بل أفريقية لم تؤد الى خراب هذه البلاد، ولو كان عادلا حقا لفحص الأوامر التي أصدرها الخلفاء الى الجيوش الظافرة وهي أوامر تقضي بمعاملة المغلوبين أحسن معاملة واکرامهم، وكان حقا عليه ألا ينسى المعاهدة التي عقدها الخليفة عمر بنفسه مع أهل بيت المقدس¹.

اذن فابن خلدون بحسب رأي طه حسين متحيز ضد العرب لأصوله البربرية الأمازيغية، وهو بالتالي لا يتذكر أفضال العرب الكثيرة وإنما الذي يتذكره فقط الخراب الذي أحدثته بعض العصابات البدوية في الشمال الأفريقي ويعمم سلبيات هؤلاء على العرب عموما وهذا فيه ظلم وعدم اعتراف بالحق.

2. الأستاذ محمد عبد الله عنان هو الآخر ينتقد ابن خلدون أشد الانتقاد، ويتهمه بأنه يصدر في عدائه للعرب وانتقاده لهم من آثار أشبه ما تكون بالتعصب للقوم الذين عاش معهم طوال حياته، بل ان عائلته من قبل تقلبت في نعيمهم، وهم البربر، وقد قام العرب من قبل بفتح بلادهم بالقوة والسيطرة عليها، واستخدموا معهم كافة أشكال الاذلال والإهانة، فابن خلدون يصدر من هذه الأحزان ويقرر ما يقرره ضدهم.

1 - حسين، " فلسفة ابن خلدون الاجتماعية"، م.ن، ص102.

يقول الاستاذ عنان في ذلك: "وحديث ابن خلدون عن العرب طريف شائق رغم ما يطبعه من شدة وتحامل، فالعرب في نظره أمة وحشية، تقوم فتوحهم على النهب والعبث، ولا يتغلبون إلا على البسائط السهلة، ولا يقدمون على اقتحام الجبال أو الهضاب لصعوبتها... وإذا كان ابن خلدون يعتمد في هذه الحملة على كثير من الأدلة والملاحظات... فإنه مع ذلك يبالغ في حكمه على العرب، وتعوذه الحجة في كثير من آرائه..."¹.

ويلوم ويحمل عنان على ابن خلدون عدم ذكر أفضال العرب الكثيرة فيقول: "ولكننا نقول فقط في شأن الفتوحات العربية، إن العرب هم الذين افتتحوها وهاد الشام ومفاوز الأناضول وأرمينية وتوغلوا فيما وراء فارس، واقتحموا شمال أفريقية حتى المغرب الأقصى ثم اسبانيا، وعبروا جبال البرنيه الى فرنسا، وهذه كلها أقطار وعرة وليست من البسائط التي يسهل غزوها، ثم أن العرب لم يخربوا هذه الأقطار، ولكنهم بالعكس أقاموا فيها دولا ومجتمعات عامرة زاهرة..."².

ثم يحلل الاستاذ عنان ويكشف بعض أسرار توجه ابن خلدون لزم العرب، وذلك عندما يخصص في نفسيات ابن خلدون، ويكشف عن تألمه للإهانة التي سببها العرب لمن عاشت عائلته معهم وفي نعيمهم، وهم العائلات البربرية في الشمال الأفريقي. حيث قام العرب بمهاجمة ديارهم والتغلب عليهم، ومن ثم القضاء على كثير من أسرهم بحروب عدائية وانتقامية. فيقول موضحا ذلك: "وقد نفهم سر هذا التحامل الذي يطلق رأي ابن خلدون في العرب بمثل هذه الشدة إذا ذكرنا أنه رغم انتسابه الى أصل عربي ينتمي في الواقع الى ذلك الشعب البربري الذي افتتح العرب بلاده بعد مقاومة عنيفة وفرضوا عليه دينهم ولغتهم، واضطروه بعد طول النضال والمقاومة والانتفاض أن يندمج أخيرا في الكتلة الإسلامية، وأن يخضع راغما لرياسة العرب في أفريقية واسبانيا حتى تحين الفرصة لتحرره ونهوضه. والخصومة بين العرب والبربر في إفريقية واسبانيا شهيرة في التاريخ الاسلامي، وقد ورث البربر بغض العرب منذ بعيد، ونشأ ابن خلدون وترعرع في هذا المجتمع البربري يضطرم بمشاعره وتقاليده وذكرياته، ونشأت في أسرته قبل ذلك بمائة عام، ونعمت برعاية الموحدين البرابرة وتقلبت في نعمهم، فليس غريبا بعد ذلك أن نسمع منه أشد الأحكام وأقساها على العرب... ثم هو يجيش هنا أيضا بعاطفة وطنية قوية، فهو ينطق هنا بلسان ذلك الوطن البربري الذي غزاه العرب واثخنوا فيه مدى أحقاب وبسطوا عليهم سلطانهم الديني والسياسي، ولبت عصورا يقاتل في سبيل حرياته واستقلاله"³.

1 - عنان، محمد عبد الله عنان - المحامي، "ابن خلدون حياته وتراثه الفكري"، الطبعة الأولى، 1352هـ، 1933م، ص 112 - 113، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة.

2 - عنان، "ابن خلدون حياته وتراثه الفكري"، م.ن، ص 113.

3 - عنان، "ابن خلدون حياته وتراثه الفكري"، م.ن، ص 113 - 114.

3. ثم أن الدكتور محمد العبدية ورغم دفاعه السابق عن ابن خلدون، يعترف في بعض حواشي كتابه بالخطأ الجسيم الذي وقع فيه ابن خلدون، ويلمح كذلك لتأثر ابن خلدون بالبربر الذين عاشت عائلته سابقا ويعيش هو حاليا بينهم. وينطلق من باب الدفاع عن عاش في نعيمهم، فيقول الدكتور محمد مصرحا: "إن استعمال ابن خلدون لكلمة العرب يشوبه شيء من الغموض وشيء من التشاؤم، ولقد عاش فترة طويلة مع القبائل العربية والبربرية، ودرس طباعهم وطريقة تفكيرهم، وشاهد الغارات المتكررة من عرب بني هلال وسليم على الدول التي ما إن تنشأ حتى تزول. فكان هذا سببا لأن يفكر طويلا في هذه الظاهرة: لماذا يعيش هؤلاء على السلب والنهب؟ وإذا استقروا فكيف يتصرفون؟ ومع أن تحليلاته صحيحة في الجملة، إلا أنه في قضية خطيرة مثل هذه كان الواجب أن يوضح مقصده ويزيل الالتباس بين كلمتي البدو والعرب، ولعل طريقته في التعميم إذا اقتنع بقضية ما هي التي أدت به الى هذا الغموض"¹.

4. الدكتور محمد عابد الجابري، يربط بوضوح الحالة النفسية التي وصل اليها ابن خلدون من كره وحقد للعرب، بسبب ارجاع أزماته كلها في حياته الى العرب وما فعلوه في بلاد المغرب، فيقول: "لقد هبط ابن خلدون فجأة، ودفعة واحدة، من قمة مجده السياسي الى حضيض التشرد، من قمة الجاه والنفوذ الى التعرض للتفتيش والمصادرة والملاحقة، ولعل العنصر المسؤول عن هذه النكبة، نكبته هو ونكبة أميره صاحب بجاية، هم أولئك العرب الذين صب عليهم جام غضبه في المقدمة.

ذلك لأن الصعوبات التي لقيها أمير بجاية بعد استرجاع امارته إنما كان مصدرها قوم من عرب بني هلال، الذين كانوا يكسبون عيشهم من رماحهم، ومن نيران الفتنة التي يوقدون بها استمرار. إن الخصومات، بل الحروب التي قامت بين أمير بجاية وابن عمه سلطان قسنطينة، والتي كانت فيها نكبة ابن خلدون وصاحبه، إنما سببها تلك الفتنة التي قام بها كما يقول ابن خلدون: "عرب أوطانهم من الدواودة من رياح، تنفيقا لسوق الزبون يمترون به أموالهم"²، وكانوا في كل سنة يجمع بعضهم لبعض، فالتقوا سنة ست وستين وسبع مائة بفرجوت، وانقسم العرب عليها، وكان يعقوب بن علي رئيسهم مع السلطان أبي العباس، فانهزم السلطان أبو عبدالله، ورجع الى بجاية مفلولا بعد أن كنت جمعت له أموالا كثيرة انفق جميعها في العرب"³. فكره ابن خلدون للعرب برأي الجابري صحيح وقائم، وهو راجع لتلك الهجمات التي قام بها بنو سليم وبنو هلال على بلاد المغرب العربي.

1 - العبدية، د. محمد العبدية، "نصوص مختارة من مقدمة ابن خلدون"، الطبعة الأولى، 2009م، ص 46-47، مركز الرسالة للدراسات والبحوث الانسانية، مصر، القاهرة، مدينة نصر.

2 - الزبون: الحرب. يمترون: يستخرجون. ومعنى الجملة أن هؤلاء العرب كانوا يشعلون الحرب عمدا ضد السلطانين ليكسبوا منها ويغتنوا بفضلها.

3 - الجابري، " فكر ابن خلدون العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الاسلامي"، م.س، ص 63-64.

المبحث الثالث

كشف السر والقول الفصل في ذم العرب عند ابن خلدون

سأعرض في هذا المبحث عن رأيي في آراء المنتقدين لأقوال ابن خلدون، ثم سأعمل على كشف أسرار حملته على العرب ووجهة نظري في هذا الموضوع، مستنداً للتحليل والبرهان من كلامه في مقدمته، ومسترشداً بما عانى منه في حياته، حتى يكون البحث علمياً وبعيداً عن التجني والظلم. فقد خلصت من خلال تعمقي في أبحاث مقدمة ابن خلدون واستقراي لأقواله المختلفة ومضامينها، ثم من خلال دراسة آراء المنتقدين لأقواله على مختلف توجهاتهم، ومشاربهم، ثم بالربط مع حياته وما مرَّ فيها من نكبات وأحزان وآلام عبر مسيرتها الطويلة، الى النتائج التالية:

أولاً - إن ابن خلدون في استخدامه لمصطلح العرب كان يقصد العرب جميعاً بدواً وحضراً، ولم يخص البدو بأحكامه القاسية دون الحضرة. كما أنه قصد العرب بكل زمان ومكان ولم يقصد عرباً محددين في زمان محدد أو مكان محدد، كما أنه عندما تكلم بحق العرب، استخدم أسلوب النقد الجارح مبيناً بعض الصفات السلبية والتي يشترك فيها كافة الأمم وليس العرب وحدهم، وامتنع عن ذكر الصفات الحسنة على كثرتها مما يحمل في طياته معان كثيرة من البغض والتحيز وعدم الإنصاف، ويتضح ذلك من خلال شواهد عديدة أذكرها على النحو التالي:

1. إن ابن خلدون في بداية مقدمته قد خاض بمدح أهل البداوة في فصول عديدة ولم يقصر في بيان مآثرهم وأفضالهم في الخيرية والشجاعة والعصبية والطاعة لمشايخهم وكبرائهم، وسماهم باللفظ الخاص بهم: وهو البداوة، وهذا دليل على أن البدو عند ابن خلدون لهم مسمى محدد، ومنزلة خاصة وحفاوة عظيمة... وإذا كان مقصد ابن خلدون من العرب في مقدمته أنهم أهل البداوة وحدهم كما قال بعض المدافعين، فإن كلام ابن خلدون هنا يثبت عليه دعوى التناقض وعدم الصحة. فالمعروف أن العرب كانوا أصنافاً فمنهم من يسكن البادية ومنهم من يسكن الحضرة، وابن خلدون نفسه جاء بأحاديث عن النبي العربي وموجهة لأتباعه من المسلمين العرب ذكرتها سابقاً تحذرهم من سكن البادية، فكيف يستسيغ القول أنه خص بزمه عرب البادية أو البدو المتوحشين دون عرب الحضرة؟ أو لم يقصد العرب جميعاً.

لذلك فرأيي أن ابن خلدون قصد العرب جميعاً، ولولا ذلك ما مدح البدو في بداية مقدمته... وإن قال قائل أن مدح البدو في بداية مقدمته كان يقصد به بدو الشمال الأفريقي دون سواهم وهم من ذوي الأصول البربرية. فأرد بالقول أن ابن خلدون هنا سيكون متعصباً لفئة البربر الذين عاش بينهم دون سواهم، وسيثبت ذلك التهمة عليه بأنه يذم العرب جميعاً. بل ستعدو مقدمته فاشلة في اعتبارها منظومة للاجتماع البشري. وستكون مقتصرة فقط عن الاجتماع الشمال أفريقي بما يخص الأمازيغ والبربر، وتحمل في طياتها العداء العنصري للعرب.

2. ثم إنه عندما تكلم عن زوال دول العرب، قال إنهم في الأصل أمة متوحشة همهم نهب ما عند الناس، وحتى عندما كونوا دولاً منذ زمن الخلافة الراشدة، فقد زالت بسرعة، وتقوّض عمرانها وأفقر ساكنها¹. فواضح من كلامه أنه يقصد العرب جميعاً بدواً وحضراً، فأهل التوحش والنهب ما عند الناس، هم الأعراب أو قبائل البدو، والذين كونوا الدولة الراشدة والأموية والعباسية، هم عرب المدينة.
3. والشاهد الثالث هو أن ابن خلدون قال إن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية²، أو ولاية، أو أثر عظيم من الدين على الجملة، بسبب خلق التوحش المتأصل فيهم. وكلامه هذا صريح كل الصراحة في أنه يقصد أساساً العرب من أهل الحضرة، لأن الملك الذي حصل للعرب كان في أهل المدينة، وفيهم ظهر الإسلام أساساً وكونوا دولته.
4. والشاهد الرابع هو أن ابن خلدون قال إن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك³، لأنهم أكثر الناس بداوة، ومن طبعهم نهب ما عند غيرهم، وحتى إنهم عندما ملكوا كان ذلك بسبب الدين، فلما تركوه نسوا السياسة، وعادوا إلى بداوتهم. وهذا أيضاً نص صريح في أن ابن خلدون يقصد بمصطلح العرب، البدو والحضر معاً، فكلهم عرب وهم الذين قصدهم، فهم أهل البادية الذين ينهبون ما عند غيرهم، وهم الذين كونوا دولاً باسم الإسلام، وهم الذين عادوا إلى البداوة عندما تركوا الدين، وعليه فإن ما ذهب إليه المدافعين السابقين غير صحيح، ولا يستقيم كلام ابن خلدون عن العرب إلا مع الذي ذهبت إليه.

ثانياً - لقد سبق لي وأن أثبت في الباب الأول سعي ابن خلدون المتواصل للمناصب السلطانية والوظائف المرموقة والجاه والمال وحب السياسة والخوض فيها. وهذا بدوره يستدعي التملق للحكام ومدح السلاطين والتقرب اليهم بالشعر والتحليل السياسي وبيان الحكمة والنفاق وسواه من الوسائل التي يهدف من خلالها للتسلق والوصول. وإذا أخذت بعين الاعتبار أن ابن خلدون كان ملعبه الرئيسي قبل وعند تأليفه للمقدمة هو في بلاد الشمال الأفريقي والتي تشمل تحديداً تونس وبجاية وتلمسان (الجزائر)، وغيرها، فهي التي كان يرتحل ويتشرد ويتنقل عبرها من سلطان لسلطان ومن أمير لأمير.

وبالرجوع إلى الأصول العائلية والقبلية والتي كان ينطلق منها هؤلاء نجد أنها الأصول البربرية. وإذا قلت أن عائلة ابن خلدون قد عاشت متمعة ومتنقلة في المناصب في ظل قبائل الموحدين البربرية، كما أنه نفسه قد عاش في ظل هذه القبائل، فكان كما سلف يمدح بعضهم ويلجأ لآخرين ويستلم مناصب في ظل حكمهم. وإذا قلت كذلك أن هذه القبائل تحمل في دواخلها وقلوب أفرادها الأحقاد

1 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.س، ص 194.

2 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 196.

3 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 196.

والضغائن على العرب عموما لما فعلوه بهم من توجيه جيوشهم نحو ديار هؤلاء البربر وفتحها بقوة الحديد والنار والسيطرة عليها وقتل رجالها ونهب أراضيها وخيراتها وسبي نساءها وحرائرهما، وتشريد أهلها... فكان من الطبيعي بل ومن المؤكد والحال هذه، أن يتكلم ابن خلدون بحق العرب كلاما مهينا جارحا وقاسيا وينم عن بغض وحقد وحسد عميق، ليتساق مع توجهات بني قومه في معاداة العرب، وليحقق لنفسه ما يطمح اليه من مركز وقيادة.

وقد وصف الدكتور مصطفى الشكعة تفاصيل ما حدث في تلك البلاد حيث يقول: "الحقيقة أن الصورة التي تكونت في مخيلة ابن خلدون ورسخت في ذهنه عن القبائل العربية كان مصدرها الأول ما فعله بنو سليم وبنو هلال وأحلافهم في شمال أفريقية، وهي صورة قاتمة تنتهي به الى سوء الظن، وإصدار أحكام ليست في صالحهم، وهو غير ملوم لو حدد الحكم الذي أصدره عليهم ولم يجعله ذا صفة جامعة شاملة. إن قبائل سليم وهلال ورياح وعدي وأحلافهم قد أنزلوا بالأقاليم الإفريقية والمغربية الكثير من التخريب والنهب والسلب على مدى قرن ونصف من الزمان، فقد خربوا مدينة القيروان وضواحيها، وفعلوا الشيء نفسه في كل مكان حلوا به، مثل تونس وسوسة والمهدية، وأوقعوا الهزائم بكثير من قبائل البربر المعروفة بقوة الشكيمة وشدة المراس، وأدخلوا الرعب الى القلوب والفرع الى النفوس.

بل إن هذه القبائل حين استقرت في بعض المناطق بدأت تمارس أدوارا مصيرية في تاريخ المنطقة، فقد عقد بعض ملوك بني غانية - حكام جزر البليار - حلفا مع هذه القبائل العربية، واستخدموهم في ضرب الموحدين، والاستيلاء على إفريقية خلال معارك استمرت نحو ربع قرن من الزمان، جرى فيها من ألوان النهب والسلب والاستباحة والتخريب الشيء الكثير الذي توارث الناس روايته وترديده لعدة أجيال، بحيث وصل الى ابن خلدون عن طريق الرواية والقراءة، وهو حين يذكر كيف خرب العرب اليمن والعراق والشام يستطرد قائلا: "...كذلك وإفريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها، وعادت بسائطه خرابا كلها، بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمراناً..."، إذا كان حكم ابن خلدون على العرب بالوحشية والتخريب قائما على ما سمعه بالمغرب وإفريقية من أفعالهم، فإننا لا نلومه إذا ما كان الحكم مقتصرًا على تلك القبائل من هلال وسليم وبقية الطوائف المحالفة لها، أما أن ينصرف الحكم الى سائر العرب فذلك أمر يحتاج الى حجاج ونقاش¹.

1 - الشكعة، "الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته"، م.س، ص 176 - 177.

وقد لخصت دوافع ابن خلدون لذمه العرب من خلال الأحداث السابقة في الأسباب المنطقية التالية:

1. موافقته لتوجهات ومعتقدات أهل السلطان والإمارة والمناصب في تلك الديار، وحتى يصل الى قلوبهم ويحقق أطماعه السياسية، فيلزم من ذلك معاداة العرب كما أنهم يعادونهم، ونقد العرب كما أنهم ينقدونهم، بل وتحقير العرب كما أنهم يحقرونهم. وإلا فإنه لن يناله منهم شيئاً مفيداً ولا خيراً أكيداً...ولقد ذهب الأستاذ محمد جميل بيهم في تحليل هذه الجزئية عند ابن خلدون لما ذهبت اليه أنا أيضاً، من أن يكون ابن خلدون قد قصد هذا الإيهام في المعنى تحديداً من كلمة العرب، وتعمد ذلك ترلفاً ونفاقاً لأصحاب السلطان عند أهل المغرب من البربر¹.

2. لوازم المواطنة والجوار والعيش في هذه الديار من أصول أجداده السابقين ووصولاً اليه، تفرض عليه حتماً موافقة التوجهات العدائية أو التقابلية الصداقية مع أي جهة تعاديهما أو تصادقها المستويات السياسية والتنفيذية والعسكرية في هذه الديار. ولكون هذه التوجهات قائمة في مجملها على الحالة العدائية للعرب لما فعلوه بهم سابقاً، فمن الطبيعي وحتى يثبت ابن خلدون مواظنته الصالحة فلا بد من موافقة هذه المستويات على معتقداتها وتوجهاتها، وحتى يستقيم لابن خلدون مقامه ومقام عائلته في تونس وغيرها.

3. عشق ابن خلدون الخلاب لموضوع العصبية، والذي اعتبره أنه تلك الرابطة الاجتماعية التي تربط بين أبناء القبيلة وتجعلهم يتكاتفون في السراء والضراء، بل هي لا تشمل أبناء الأسرة الواحدة الذين تربطهم صلة الرحم فحسب، بل تتسع لتشمل أهل الولاء والحلف، وفي مواقع أخرى تضم الرق والمرتقة، وهم من يُطلق عليهم اسم "المصطنعين إلى العصبية". وبالمقابل فموضوع النسب يعتبره أمر وهمي فائدتته هو الترابط الذي يوجد فقط، وهذا كله يفرض على ابن خلدون أن يوالي عشيرته من أهل تونس والشمال الأفريقي البربري، وأن يقدم لهم آيات الطاعة والولاء، ومن ضمنه موالاة من يوالون ومعاداة من يعادون، وإلا ستعتبر مقدمة ابن خلدون في واد وهو في واد آخر، فمعادات العرب وتقزيمهم هي من مستلزمات موضوع العصبية عنده لأهل بلده.

4. قلت في البداية أنه يمدح قبائل أهل البداوة والذين هم يقطنون بلاد المغرب العربي، أو أغلب سكان الشمال الأفريقي، ومدحه لهم مرتبط ارتباطاً وثيقاً بتوجهاته السياسية ومصالحه الشخصية في تلك البلاد ومنها كما ذكرت إيصال رسائل شكر واحترام وتقدير لهم، لحمايتهم له وتوفير الملجأ والإقامة

1 - بيهم، محمد جميل، "العروبة والشعوبيات الحديثة"، ص 53 - 54، نقلاً عن كتاب عيقرات ابن خلدون، د. عبد الواحد وافي، م.ن، ص271.

الآمنة والمستقرة له ولعائلته...ولكون أغلب أولئك السكان والقبائل من أصول بربرية، وقد عرفت موقف أهل البربر من العرب عموماً...فمن الطبيعي أن تلتقي المصالح لكلا الطرفين مع بعضهم بعضاً. فابن خلدون يريد الوصول الى قلوب القبائل البربرية، والقبائل البربرية تعادي العرب، فمن المنطق أن يعادي ابن خلدون العرب ليحقق غايته ومصالحه عند هذه القبائل، وخصوصاً أنني لا أنسى أنه كان يكتب رسالته وهو في ضيافتهم وبين قصورهم ومضاربهم.

ومما يثبت ذلك أيضاً ما قاله عن البربر في عدة مواضع فيقول مثلاً: "وانظر ما وقع من ذلك بإفريقية والمغرب منذ أول الإسلام ولهذا العهد. فإن ساكن هذه الأوطان من البربر أهل قبائل وعصبيات، فلم يغن فيهم الغلب الأول الذي كان لابن أبي سرح عليهم وعلى الإفرنجة شيئاً. وعادوا بعد ذلك الثورة والردة مرة بعد أخرى، وعظم الإثخان من المسلمين فيهم. ولما استقر الدين عندهم عادوا إلى الثورة والخروج والأخذ بدين الخوارج مرات عديدة"¹.

ويقول: "وأيضاً فالصنائع بعيدة عن البربر لأنهم أعرق في البدو"². ويقول: "ولما كانت بلاد البربر بالعكس من ذلك في زكاء منابتهم وطيب أرضهم ارتفعت عنهم المؤن جملة في الفلح مع كثرته وعمومه، فصار ذلك سبباً لرخص الأقوات ببلدهم. والله مقدر الليل والنهار، وهو الواحد القهار، لا رب سواه"³. ويقول: "ومعظم هذا الصنف لدينا بالمغرب من طلبة البربر المنتبذين بأطراف البقاع ومساكن الأغمار، يأوون إلى مساجد البادية ويموهون على الأغنياء منهم، بأن بأيديهم صناعة الذهب والفضة، والنفوس مولعة بحبهما والاستهلاك في طلبهما، فيحصلون من ذلك على معاش"⁴.

وأخطر ما تحدث به عن البربر وأثبت بذلك مدى تعصبه لهم قوله في مدحهم: "وأما تخلُّق البربر بالفضائل الإنسانية، وتنافسهم في الخصال الحميدة، وما جُبلوا عليه من الخُلُق الكريم مرقاة الشرف والرفعة بين الأمم ومدعاة المدح والثناء من الخلق، من عزَّ الجوار، وحماية النزول، ورعي الذمة والوسائل والوفاء بالقول والعهد، والصبر على المكاره، والثبات في الشدائد، وحسن الملكة والإغضاء عن العيوب، والتجافي عن الانتقام ورحمة المسكين، وبر الكبير وتوقير أهل الدين، وحمل الكل، وكسب المعدوم وقرى الضيف والأعانة على النوائب، وعلو الهمة وإباء الضيم، ومشاقة الدول،

1 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.س، ص 213.

2 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 435.

3 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 443.

4 - ابن خلدون، "مقدمة ابن خلدون"، م.ن، ص 672.

ومقارعة الخطوات، وغلاب الملوك، ربيع النفوس من الله في نصر دينه...فلهم في ذلك آثار ينقلها الخلف عن السلف لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعيه من الأمم...وحسبك ما اكتسبوه من حميدها، واتصفوا به من شريفها، أن قادتهم إلى مراقي العزّ وارفّت بهم على ثنايا الملك حتّى علت على الأيدي أيديهم...¹.

ثالثاً - الثورة النفسية الداخلية والتي كان يعاني منها ابن خلدون، وما أثبتته أنا في الباب الأول من بغضه وكراهيته لكل من سعى بالوشاية به أو المكر ضده، أو ساهم في تشريده أو سجنه أو اهانتته. كما أنني قد بينت سعيه المتواصل للإيقاع بين مكونات منطقة الشمال الأفريقي أو المغرب العربي، عن طريق مدح جانب (البدو) ضد جانب آخر (الحضر) ومحاولة تفجير الأجواء، لينتقم فعليا ممن مكروا به أو سعوا بالوشاية ضده. وهنا تلنقي المصالح أيضا...فلا مانع أن يتوسع تفجير الأجواء والإيقاع بين مختلف الأطراف ليشمل سكان الجزيرة العربية وبلاد الشام، فتغنيّه وعزفه على وتر احتقار وتقزيم العرب وإهانتهم، يبعث برسائل العداء بين مختلف المكونات من الشمال الأفريقي وحتى الخليج العربي، حتى أنه في الواقع المنطقي لم يترك أحدا من شره، وجعل مُطلق الرصاص الأولى وحامل شعلة الفتنة أهل البداوة لتبدأ المكائد والمعاداة بين البدو والحضر، ثم بين سكان النصف الأيمن من الوطن العربي مع النصف الأيسر...وهكذا حتى يتحقق لابن خلدون ما يتطلع اليه من الانتقام.

1 - ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون (808 هـ)، تاريخ ابن خلدون المسمى "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، طبعة 1431 هـ، 2001م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، نقلا عن الانترنت وعن موقع: http://www.amazighworld.org/arabic/history/index_show.php?id=1288 ، والزيارة تمت بتاريخ 25 / 4 / 2016.

الخاتمة

لقد تبين لي من العصف الذهني الذي مارسته في هذا البحث، والتحليل والدراسة والمقارنة بين حياة ابن خلدون وما احتوته من نكبات وآلام وفشل على كثير من الأصعدة اضافة الى حالات السجن والملاحقة والتشرد وما تبع ذلك من خوف ورعب، فضلا عن الثورة النفسية الداخلية والضغينة والتحامل على من كان سببا بتلك النكبات وعمل على الإساءة له، وبالمقارنة مع كتاباته في المقدمة حول بعض المواضيع الخطيرة والهامة، فقد خلصت في هذا البحث الى العديد من النتائج والتوصيات كانت عبارة عن دراسة متعمقة، فضلا عن تحليل ومقارنة مع مقدمته.

أهم النتائج التي توصلت اليها أخصها بما يلي:

1. أن حياة ابن خلدون كانت عاصفة بالأحداث المؤلمة على الصعيد النفسي والجسدي والعقلي، وأن هذه الأحداث كان لها دور بارز في صياغة شخصيته الغربية، وصقل مواهبه الفكرية، فضلا عن تفاعلاته ومشاركاته السياسية والاجتماعية فيما بعد.
2. أن ابن خلدون كان شخصية متقلبة، فتارة أراه ذاك المتعلم الذي يطلب العلم من مشائخه ومعلميه، ويمدحهم بالقول والشعر، ويذكر أفضالهم عليه. وتارة أراه ذاك المعلم الذي ينزوي للتدريس والشرح والتعليم في احدى الزوايا الصوفية أو المسجدية، فينسدل عليه لباس أهل التقوى والصلاح. وتارة أشاهده يعارك أهل السياسة والملك بفكره وبديته وكيده وصولا لتحقيق مآرب شخصية تتمثل بالمناصب والوظائف المحترمة ذات المردود المادي المتزايد، فتعجب لما كان يتكلم به سابقا عن العلم والتعليم والتصوف، عند المقارنة مع تقلباته السياسية.
3. مارس ابن خلدون ما يسمى بمستلزمات السياسة وفرائضها وأحاييلها ومكرها، وصولا الى تحقيق العديد من الغايات والمقاصد الذاتية. فوقع بالمكر بين الحكام، وغدر ببعضهم، ونقل الرسائل بينهم، وساهم في استمالة القبائل البدوية لبعضهم بالإغراء والإكراه، وسعى لجمع الضرائب والأتاوات من بعض القبائل لصالح السلاطين، بل مارس المديح والتبجيل بالشعر والقول البليغ، والخطابة لدى بعضهم حتى يصل لقلوبهم ويحقق مبتغاه.
4. تعرض ابن خلدون نتيجة لسياسته ومواقفه تلك مع الحكام والسلاطين الى الكثير من الشدائد والآلام، وصولا الى السجن والطرده والتفتيش والتشرد والهرب والتعري على يد بعضا من قطاع الطرق، فضلا عن نهب أمواله، وسلب أمتعته، وهلاك عائلته، وكان لتلك الأحداث أثر بارز في شخصيته.
5. تعاون ابن خلدون مع تيمورلنك المعادي للعرب والمسلمين، وقدم له خدمات جليلة وعديدة، اعترف بها بلسانه، دون أن يبرر سبب أفعاله تلك، أو يحاول الاعتذار أو اظهار الندم على ما فعل، وكان لذلك الموقف العجيب أثر بارز على مصداقية تحليلاته فيما بعد في مقدمته كما ظهر لي.

6. عندما مدح ابن خلدون أهل البداوة في مقدمته تحت فصول متعددة، كان متأثراً بالعديد من الجوانب التي فرضت عليه ذلك المديح، وأجبرته أن يخوض فيه، وذلك مثل استذكار أفضالهم وتعاملهم السابق معه في عدة قضايا ومصائب وشدائد تعرض لها، فعبّر عن ذلك بتوجيه الشكر والامتنان لهم على ما خدموه به في نكباته المستمرة بأسلوب المديح والتبجيل.

فضلا عن أن الجو العام والطبيعة السكانية المغربية كان يغلب عليها الطابع البدوي الصحراوي، وأهل البداوة كانوا يشكلون القسم الأغلب من أهل بلاد المغرب العربي، فكان لهم دور بارز في التأثير السياسي على الكثير من الملوك والسلاطين، وكان الكل يستجديهم ويمدحهم طلبا لمعونتهم وأموالهم ورجالهم في الحرب، وكانوا يشكلون أحيانا موازين التفوق والنجاح للعديد من طالبي السلطة والحكم، فكان من الطبيعي أن يجعل ابن خلدون تركيزه في بداية بحثه في المقدمة على هؤلاء القوم لكونهم المكون الرئيسي في الشمال الأفريقي.

ثم إن طبيعة ابن خلدون للتواقة للسلطة والمناصب والمال والوضع الاجتماعي الراقى، تفرض عليه أن يركب موجتهم وينفذ من خلالهم، لما كانوا يمثلونه من سلطة مؤثرة على باقي الأمصار، فمن خلالهم يمكن أن يحقق أرقى المناصب عند السلاطين، كما أنه يجعلهم عوناً له عند الشدائد.

7. وعندما قام ابن خلدون بدم أهل الحضر فقد كان متأثراً كذلك بما مر معه في حياته من نكبات وآلام وسجن وتشرد وفشل، سببها له أهل المناصب والسلاطين من وزراء وقضاة ومستشارين وحجاب وكبار موظفين يقيمون في تلك الممالك الحضرية، وحواضر المدن والأمصار، عبر الوشايات والمكائد التي كانت تحاك ضده، أو تكشف خيوط مؤامراته. فأولئك الذين سعوا بالوشاية به وطرده وسجنه وتسببوا بمراحل فشله، أجبروه على ذلك التحامل على أهل الحضر ومن الطبيعي أن أهل الحضر كانوا يعتبرون المكون الأساسي والسياسي لمدن وحواضر بلاد المغرب، وهي التي شكلت الملعب الأساسي لابن خلدون كون مصالحه كانت تدور في فلكها، فكان حقه وبغضه بادياً وظاهراً في مقدمته عندما ذم الحضر وبين فضل البداوة عليهم.

8. ثم إن ابن خلدون كان يعيش بحالة من التوتر والغضب النفسي والتشنج الناتج عن الجراح النفسية العميقة على أولئك الواشين والغادرين به، فضلاً عن رؤيته للهزائم المتلاحقة للعرب والمسلمين من سكان الشمال الأفريقي وبلاد الشام، فكانت أن شكلت هذه العوامل حالة من التأزم النفسي الداخلي والحنق الشديد تمثلت بمشروعين أساسيين طرحهما في مقدمته وهما: مشروع العصبية، ومشروع ذم العرب. فرأى كما أسلفت أنه لا نجاح للبنية السكانية والمكون الأساسي للمجتمعات (خاصة الشمال الأفريقي) في تكوين دولها وسلطانتها ومجتمعاتها القوية إلا بصورها عن حالة التعصب والولاء للعشيرة والأمراء والسلاطين، دون أن يدرك أن ما طرحه في موضوع العصبية هذا مذموم عند المسلمين لما يحمل في طياته من جنون أعمى وانتقام رهيب وسفك للدماء وأخذ بالثارات.

وأعطى للوضع عند أهل البداوة نموذجاً صريحاً وكاملاً على ذلك، فخدم نفسه من خلال رأيه هذا بعدة خدمات: منها أولاً كان ذلك بمثابة توجيه للشكر والعرفان لأهل البداوة على خدماتهم السابقة له، ثم مكافأتهم بالقول بأنهم أهل السبق في تعليم البشرية أسس ومبادئ الاجتماع المدني، وفن تحقيق الغلبة على مختلف الدول والأصعدة، لما يطبقونه بينهم من مبدأ للعصبية والجنون الأعمى. وثانياً التنفيس عما كان يعتل في صدره من غضب وحقد وبغض على أولئك الغادرين والواشين من أهل الحضر من السلاطين والقضاة والحجاب، وذلك من خلال دعوته للعصبية وأن تكون الأمور تصدر عن هذا المنهج التعصبي الإقليمي المتطرف.

وثالثاً الإيقاع بين مكونات المجتمع المغربي من بدو وحضر، من خلال تحريضه واستثارته لعوامل التعصب والتطرف والغضب الجنوني في النفوس، فيفتح المجال للانتقام والثأر لكل طرف من الأطراف.

ورابعاً فقد رأى أن في مكون المجتمع المغربي الغلبة والعصبية للقبائل البربرية الأمازيغية، والتي لا ينسى فضلها عليه وعلى عائلته، فرأى أن من مصلحته أن يخوض في ذم العرب لما يعلمه من المعاداة القديمة بينهم وبين العرب، فلعب على هذا الوتر ليحقق لنفسه بعض الفوائد كالتقرب أكثر للقبائل البدوية البربرية في شمال أفريقيا وبلاد المغرب العربي، وما قد يضمنه ذلك لنفسه جراء ذلك من مناصب ومصالح مستمرة، فضلاً عن إيقاع حالة من الصراع بين الأطراف المتعادية، ناهيك عن أخذه وتبنيه لمبدأ التعصب لمواطنته الصالحة في بلاد المغرب، مع أن لغته عربية، لكنه لا ينسى أفضال البربر عليه وعلى عائلته من قبل، فكان مشروع مذمة العرب متأثراً بالوضع الاجتماعي والحالة النفسية التي عاشها في تلك البلاد.

وقد يتفاجأ القارئ لهذا البحث أنني قد قسوت قليلاً على المؤرخ وعالم الاجتماع ابن خلدون، وذلك من منطلق ما قيل عنه وما كتب كذلك بشأنه في كثير من المؤلفات والكتب مدحا وتبجيلاً بما يخص علمه وقدراته التحليلية ودراساته المتعمقة. فهذا العالم في نظر البعض لا يجوز التعرض له بالطعن أو التجريح، فمقامه بين العلماء كبير، وقدره بين أولي الفن التحليلي والتأريخي عظيم وجليل.

لكني أقول أن من لوازم البحث الأصيل والحقيقي أن لا يتأثر الباحث بأي مؤثرات خارجية، فمن الطبيعي أن الدارس لحياة أي مفكر لا بد وأن يتجرد عن كل ما قيل عنه مدحا وذما، وأن يدخل في البحث عنه خالي الذهن، صافي القلب، بعيداً عن المؤثرات الجانبية المادحة أو الذامة. لذلك فقد اعتبرت أن ابن خلدون كأبي كاتب ومحل آخر لديه مشاعر وأحاسيس وأمزجة تقع تحت تأثير المتغيرات والظروف والأحداث التي تمر به، وتشكل شخصيته النفسية والسيكولوجية، ويمكن له أن يخطئ أو يميل أو يتأثر بأي صدمة أو مصيبة أو كارثة تلحق به وتحفر عمقا في قلبه.

ومن هذا المنطلق عكفت على دراسة حياته التي كتبها بقلمه، وقرأتها بقراءة نوعية تعي وتشعر بما وراءها. فلم تكن قراءة سطحية، ولم تكن قراءة للإستمتاع فقط، بل عشت بأحاسيسي ومشاعري كل لحظة عاشها ابن خلدون، وافترضت في الخيال أنني مكانه، وحاولت أن استشف ما قد يحصل من نتائج، ووضعت عدة خيارات، وحاولت وبناء على طبيعة نشأتي الافتراضية أن أختار من تلك الخيارات ما يناسبني.

ثم بعد أن وضعت تصورا شاملا لما قد عاشه ابن خلدون، وما أثر عليه، وذكرته في الباب الاول، انتقلت لدراسة بعض الأفكار والمواضيع التي خصصت بحثي فيها في الباب الثاني، وللحقيقة التي أختتم بها بحثي هذا فقد اكتشفت أمورا كثيرة صاغت تلك الأفكار بطريقة ترتبط مع حياته وما مرَّ فيها من نكبات وأحداث كما ذكرت سالفا، ووجدت أن ابن خلدون يصوغ المعلومات متأثرا بالآلام والجروح العميقة التي رسمت خطوطها في نفسيته وعبر خياله الواسع. وخلصت في النهاية الى أن ابن خلدون مدح البداوة ودم أهل الحضر لمشاريع كانت تعانق مخيلته العقلية ومربطة بنكبات حياته كما قلت، وخلصت كذلك أن اندفاعه نحو مدح العصبية وإفراد لها فصول متعددة كان هو الآخر مبدؤه تلك الظروف القاهرة والنكبات التي عصفت بحياته، وكان يهدف من كليتها الى تحقيق غايات ومشاريع وأهداف يمكن لها أن تخدمه في حياته.

وأخيرا فقد وجدت أن ذم العرب في مقدمته كان على صلة وثيقة بتلك المشاريع والأهداف الاستراتيجية بعيدة أو قريبة المدى والتي كان ينوي تحقيقها، وقد فشل في أكثرها، لكنه استطاع أن ينجح في بعضها على المستوى الشخصي، وحقق لنفسه من جرائها بعض الغايات والمناصب والفوائد المادية، الى أن فاضت روحه الى بارئها. وإنني أعتبر مشروع الرسالة هذا لنيل درجة الماجستير عبارة عن مساهمة متواضعة يمكن لها أن تكشف الستار عن بعض خبايا حياة ابن خلدون، وتحاول أن تميط اللثام عن بعض جوانب الغموض التي اعترت بعض الأفكار في مقدمته.

أهم التوصيات التي خرجت بها من هذه الدراسة:

1. وجوب اعتماد حياة ابن خلدون وما انطوى فيها من أسرار كمنهج أساسي عند تحليل ودراسة ونقد أي جوانب أو أفكار في مقدمته، كما يجب الرجوع الى المؤثرات التي حفرت عميقا في قلبه والتعمق في دراستها عند اعتماد احدي النظريات التي تبناها ونادى بها.
2. ابن خلدون كأبي مؤرخ أو محلل آخر، لا يفضل غيره سوى بالقدرات التحليلية التي جاء بها، والأفكار والمبادئ التي نادى بها كالعصبية مثلا، وهو انسان يحمل في داخلته العديد من المشاعر والهموم والأحزان، ويملك كغيره نوازع الحب والخوف والطمع والتحدي والغضب والكره وسواها، والتي بدورها تؤثر عليه كما تتأثر كتاباته بها، فلذلك لا يجوز أخذ فكرة مسبقة عن عظمة الرجل والتأثر

بالمديح الذي كيل له قبل مطالعة أفكاره ودراسة مقدمته، فتكون الأحكام مبنية على تصور خاطئ عن شخصيته، وتفرز نتائج تخلو من الدقة في كثير من جوانبها.

3. من المؤكد أن مقدمة ابن خلدون قد تأثرت كتابتها بالمساحة الجغرافية التي عاش بها، وبنى أفكاره عليها، فيجب الحذر عند تبني أي مبدأ أو فكرة نادى بها لتعمم على كافة المجتمعات أو التجمعات البشرية الأخرى، فالكثير مما تبناه ابن خلدون قد لا يصلح أو ينطبق الا على قبائل أو تجمعات سكانية محددة، وفي فترة زمنية خاصة.

وأخيرا أمل أن أكون قد وفقت في طرح هذا الموضوع بأسلوب محايد ومجرد، وأن تكون الأفكار قد أصابت مقصودها وحقت الغاية من البحث فيها، وأجابت عن التساؤلات المطروحة.



ابن خلدون

کما تخیله جبران خلیل جبران

أولا - الكتب المطبوعة:

1. ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون (808هـ)، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، الطبعة الأولى 1425 هـ - 2004 م، عارضها بأصولها وعلق حواشيها محمد بن تاوويت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
2. ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون (808هـ)، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدا والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي أ. خليل شحادة، مراجعة د. سهيل زكار، طبعة 1431 هـ، 2001م، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
3. ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون (808هـ)، مقدمة ابن خلدون، تحقيق حامد احمد الطاهر، الطبعة الثانية (2013م)، دار الفجر للتراث - القاهرة .
4. ابن عريشاه، أبو محمد أحمد بن محمد، (المتوفى: 854هـ)، عجائب المقدور في أخبار تيمور، طبعة كلكتا سنة 1817م.
5. بوعجيلة، ناجية الوريحي، حفريات في الخطاب الخلدوني، الأصول السلفية ووهم الحداثة العربية، الطبعة الأولى 2008م، الاخراج الفني: بترا للنشر والتوزيع ، الناشر: دار بترا للنشر والتوزيع، سوريا، دمشق، رابطة العقلايين العرب.
6. بيهم، محمد جميل، العروبة والشعوبيات الحديثة، نقلا عن كتاب عبقریات ابن خلدون، د. عبد الواحد وافي.
7. الجابري، محمد عابد، فكر ابن خلدون العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الاسلامي، الطبعة السادسة، بيروت، نيسان، 1994م، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان.
8. الجوهري محمد، ومحسن يوسف، ابن خلدون إنجاز فكري متجدد، تقديم اسماعيل سراج الدين، مكتبة الاسكندرية.

9. حسين، د. طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، تحليل ونقد، الطبعة الأولى، 1343هـ، 1925م، الكتاب وضعه بالفرنسية د. طه حسين، وترجمه محمد عبدالله عنان، مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر بمصر.
10. الحصري، ساطع الحصري، دراسات عن مقدمة ابن خلدون، طبعة موسعة، الطبعة الثالثة 1387هـ، 1967م، الناشر مكتبة الخانجي -القاهرة، ودار الكتاب العربي - بيروت.
11. الخضيرى، الدكتورة زينب الخضيرى (كلية الآداب، جامعة القاهرة)، فلسفة التاريخ عند ابن خلدون، طبعة 1409هـ، 1989م، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.
12. خليل، د. عماد الدين خليل، ابن خلدون اسلاميا، الطبعة الأولى، 1403هـ، 1983م، المكتب الاسلامي - بيروت، ودمشق.
13. الزركلي، خير الدين الزركلي، الاعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الطبعة الخامسة عشرة، أيار/مايو 2002م، دار العلم للملايين.
14. الشكعة، د. مصطفى الشكعة، الأسس الاسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته، الطبعة الثالثة، 1413هـ - 1992م، الناشر الدار المصرية اللبنانية.
15. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، (310هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف بمصر.
16. الطنجي، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: عبد الهادي التازي، الرباط، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية رحلة ابن بطوطة.
17. عاصي، حسين عاصي، ابن خلدون مؤرخاً، بتصرف، ط1، 1411هـ / 1991م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
18. العبد، د. محمد العبد، نصوص مختارة من مقدمة ابن خلدون، الطبعة الأولى، 2009م، مركز الرسالة للدراسات والبحوث الانسانية، مصر ، القاهرة، مدينة نصر.
19. العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ)، إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق د حسن حبشي، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي= مصر 1389هـ، 1969م .

20. عنان، محمد عبد الله عنان - المحامي، ابن خلدون حياته وتراثه الفكري، الطبعة الأولى، 1352هـ ، 1933م، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة .
21. المقرئزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقرئزي، (المتوفى: 845هـ)، السلوك لمعرفة دول الملوك تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الطبعة: الأولى، 1418هـ - 1997م، الناشر: دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت .
22. النبهان، محمد فاروق، الفكر الخلدوني من خلال المقدمة، الطبعة الأولى 1418هـ، 1998م، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان .
23. وافي، د. عبد الواحد، عبقریات ابن خلدون، الطبعة الثانية 1404هـ ، 1984م، شركة مكتبات عاكظ للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية.

ثانيا - المجلات والجرائد ومواقع الإنترنت:

1. حسن، الدكتور حسين سرمك حسن، جريدة الاتحاد، الصحيفة المركزية للاتحاد الوطني الكردستاني، الأحد 2008/3/9 م، العدد/1787 السنة السادسة عشرة .
2. شيخة، جمعة شيخة، محاضرة بعنوان ابن خلدون ماله وما عليه ، ضمن الموسم الثقافي لدار الآثار الإسلامية، في السابعة من مساء الاثنين 2007/11/5 بمركز الميدان الثقافي (مقر منطقة حولي التعليمية). قدم المحاضرة وأدار حولها النقاش الدكتورة هناء البارون الأستاذة بالمعهد العالي للفنون المسرحية. الموقع على النت: جريدة النهار الكويتية، العدد 66 - 2007/11/08، تاريخ الطباعة 2016/11/4،
<http://www.annaharkw.com/Annahar/ArticlePrint.aspx?id=30946>
3. علال، د . خالد كبير علال، موقف ابن خلدون من العرب، اليوم العالمي للغة العربية 18 ديسمبر، تاريخ الزيارة 2016/4/22، منقول عن الانترنت عنوان:
<https://www.facebook.com/AlloughaAlarabia/posts/484728644901355>
4. محمود، د. مطلب مجيد محمود، تفسير التاريخ في مقدمة ابن خلدون، مجلة المورد العراقية (مجلة 8، ع1، 1989م)، نقلا عن موقع رابطة أدباء الشام - نظرية ابن خلدون في تفسير التاريخ، براءة أحمد زيدان، تاريخ الزيارة 2016/4/25 .

5. منيف، عبدالرحمن منيف، ابن خلدون وصورته في منمنمات تاريخية، مقالة ختمها لكتابه: لوعة الغياب، الطبعة الثالثة عام 2003 م، اصدار المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي للنشر - بيروت/ الدار البيضاء .

6. نويهض، وليد نويهض، اللقاء مع تيمورلنك والوقوف على حريق دمشق، رحلة ابن خلدون الى الشام 2، مقال صحفي، صحيفة الوسط، العدد 3115 - الجمعة 18 مارس 2011م الموافق 13 ربيع الثاني 1432هـ، <http://www.alwasatnews.com/news/532760.html>

فهرست اللوحات

144	ابن خلدون كما تخيله جبران خليل جبران
-----	--------------------------------------

قائمة المحتويات

الصفحة	المحتوى
	الاهداء
أ	اقرار
ب	شكر وعرفان
ج	التعريفات
د	الملخص
و	Abstract
1	المقدمة
7	الباب الأول: سلسلة الأحداث المؤثرة في الكيان النفسي لابن خلدون
7	تمهيد
8	الفصل الأول: نبذة مختصرة عن حياة ابن خلدون
8	المولد والنشأة
9	الأصل العائلي وتأثيره في نشأته
10	الفصل الثاني: التكوين الثقافي
12	الفصل الثالث: سمات العصر الذي عاش فيه
15	الفصل الرابع: مأساة وباء الطاعون وأثرها النفسي عليه

17	الفصل الخامس: تحليل مسلسل الأحداث والمنعطفات الخطيرة في حياة ابن خلدون وأثرها النفسي في تحديد سمات شخصيته
17	المبحث الأول: مخاطر اللعبة السياسية وشهوة المنصب
21	المبحث الثاني: ابن خلدون يثير حفيظة الحساد وموظفي الدولة والمراقبين
22	المبحث الثالث: لسانٌ عذب ومدح خفي يجعله قريب من قلوب الحكام المتآمرين على بعضهم
23	المبحث الرابع: سفر ابن خلدون الى غرناطة يثبت الاتصال المسبق مع سلطانها
25	المبحث الخامس: الطبيعة البشرية تتغلب وتخلق حسادا وكارهين وتزداد المآسي
27	المبحث السادس: القدر يلعب لصالحه، وعلاقاته السابقة تخدمه في الأزمات
28	المبحث السابع: اللعب بالنار والمجاهرة بالنفاق السياسي
34	المبحث الثامن: الانتقام ممن أفقده امتيازاته وأخرجته من نعيمه
39	المبحث التاسع: الذكاء والدهاء لا يخدمان صاحبهما في كثير من الأحيان بل تستمر نكباته
43	المبحث العاشر: رحلة الخوف والرعب ودفع الثمن
46	المبحث الحادي عشر: الشوق لمسقط الرأس
49	المبحث الثاني عشر: الرحلة الى مصر تثبت طبيعته المولعة بالمناصب والتي تأبى أن تفارقه
52	المبحث الثالث عشر: سلسلة الكوارث تتابع بفقد الزوجة والأولاد والأموال غرقا في البحر
53	المبحث الرابع عشر: القبول بمنصب أقل توقيا من الفتن وبعدا عن الدسائس والوشايات
56	المبحث الخامس عشر: المقابلة والتعاون الخطير مع عدو المسلمين تيمورلنك
56	تقديم
84	المبحث السادس عشر: العودة الى المنصب السابق بكافة الطرق والوسائل
85	الفصل السادس: خلاصة القول في النزعة النفسية التي تميز بها ابن خلدون
88	الباب الثاني: دور الآثار النفسية الحياتية في تشكيل وصياغة أفكار المقدمة الخلدونية
88	تمهيد

90	الفصل الأول: النزعة التملقية والميكافيلية تأبى أن تفارق صاحبها
94	الفصل الثاني: نقد نظرياته في مدح البدو وذم الحضر وكشف السر في تبنيها
94	المبحث الأول: نقد مقولة البدو أصل للمدن
99	المبحث الثاني: نقد مقولة خيرية البدو وأفضليتهم على الحضر
103	المبحث الثالث: نقد مقولة تفوق شجاعة أهل البادية على أهل الحضر
108	المبحث الرابع: السر الخفي في مدح ابن خلدون للبادوة وأهلها وذم الحضر
111	الفصل الثالث: نقد مدح ابن خلدون للعصبية الموصلة للتغلب ثم الرئاسة، وكشف السر وراء ذلك
113	المبحث الأول: مفتاح قلوب أهل البداة لتحقيق الغاية من مديحهم
115	المبحث الثاني: تحقيق استراتيجية الصراع وتفجير الأجواء بأسلوب الإغراء عند كشف سمات العصبية
127	المبحث الثالث: الدفع باتجاه النزاعات القبلية عبر اهانة وتحقير أهل الحواضر والمدن
134	الفصل الرابع: كشف الستار عن السر المخبوء لمذمة العرب عند ابن خلدون
134	المبحث الأول: العرض الإجمالي لرأي ابن خلدون في أمة العرب
143	المبحث الثاني: انقسام المحللون في نقد مقولات ابن خلدون الدائمة للعرب
151	المبحث الثالث: كشف السر والقول الفصل في ذم العرب عند ابن خلدون
157	الخاتمة
163	قائمة المصادر والمراجع
167	فهرست اللوحات